الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم

عصر ملوك الطوائف في الأندلس أنموذجاً

(دراسة تاريخية تحليلية)

تأليف الدكتور

حمد بن صالح السحيباني

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

ح) **مجلة البيان١٤٢٣هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السحيباني، حمد بن صالح

الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم عصر ملوك الطوائف في الأندلس أنموذجاً ـ الرياض

٢٧٢ ص؛ ١٧× ٢٤

ردمك: ٢ ـ ٦ ـ ٩٣٦٥ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الأندلس ـ تاريخ ـ عصر ملوك الطوائف

أ ـ العنوان

ديوي ٩٥٣،٠٧١٢ ٢٣/٣٦٤٤

رقم الإيداع: ٣٦٤٤/ ٢٣

ردمك ٢ـ ٦ ـ ٩٣٦٥ ـ ٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحیم

المقدمـة
التعريف بالموضوع وأهميته

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فإن من المبادئ والقيم التي قصد الإسلام تأصيلها في نفوس معتنقيه وأتباعه، إعداد القوة، والشعور بأن عزة المسلم وعلو شأنه يجب أن تبقىٰ شامخة متعالية علىٰ ما حواليها من القوىٰ: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ [**الأنفال**: ٦٠]. ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [**المنافقون**: ٨].

ومما لا شك فيه أن القوة المعنوية ما هي إلا نوع مهم من أنواع القوة التي دعا الإسلام إليها وأمر بها، وكان الرسول ﷺ وصحابته من بعده يسعون دائماً إلىٰ تأصيلها في نفوس المسلمين عامة والجند والمحاربين خاصة، وذلك إدراكاً منهم لأهميتها وتأثيرها علىٰ المسلمين في كل شؤون حياتهم الاجتماعية والسياسية والحربية، ويدرك المتتبع لتاريخ المسلمين العسكري والسياسي أن قوتهم في هذين الميدانين - بل في جميع شؤون حياتهم - كانت مرتبطة ارتباطاً قوياً ومباشراً بقوتهم المعنوية، وأن أولئك القوم كانوا حينما تتعالىٰ فيهم هذه القوة يقدِّمون أروع الأمثلة في التضحية والفداء للدين والعقيدة، كما كانوا يستشعرون هذه القوة، ويدركون أهيمتها لهم ولا سيما في الميادين الحربية، وقد عبر عن هذا الشعور الخليفة الراشد أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - حينما قال: «إن الله لم ينصرنا مع نبيه ﷺ بكثرة عدد، ولا بكثرة جنود»[١]. كما وعاها الصحابي الجليل ثابت بن أقرم - رضي الله عنه - حينما قال لأبي هريرة - رضي الله عنه - وكان بجانبه في معركة مؤتة، لما رأىٰ

---

(١) محمد يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة، ج ٤، ص ٦٤٠.

أبا هريرة قد هاله ما رأىٰ من كثرة عدة العدو وسلاحه : « يا أبا هريرة! كأنك ترىٰ جموعاً كثيرة؟ قال : نعم . قال : إنك لم تشهد بدراً معنا؛ إنّا لم نُنصر بالكثرة»[١] .

وقد أدرك هذه الحقيقة أحد جنود طليحة بن خويلد الأسدي الذي كان يُعَدُّ بألف فارس[٢] ، وذلك حينما هُزم جنده أمام الجيش الإسلامي ، فقال ـ لما رأىٰ كثرة انهزام أصحابه ـ : «ويلكم! ما يهزمكم؟ قال رجل منهم : أنا أحدثك ما يهزمنا : إنه ليس منا رجل إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله ، وإنّا لنلقىٰ قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه»[٣] .

ومما لا شك فيه أن هذا التعالي في الروح المعنوية هو الذي جعل أولئك القوم رهباناً بالليل ، فرساناً بالنهار ، لا يخشون خوض الوغىٰ ، ولا يهابون العدو مهما كانت قوته ، بل إن العدو لا يثبت أمامهم ولو كان فوق ناقة عند اللقاء[٤] ، شعارهم في ذلك قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿ **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ** ﴾

[**التوبة** : ٥٢] .

وقد ظلت هذه الروح المعنوية سامية في جيل الصحابة والتابعين ، كما بقيت سمة ملازمة للجند في حركة الفتح الإسلامي ؛ حيث استشعر أولئك الجند مسؤولياتهم الجسيمة إزاء الناس فانطلقوا ليبلغوا رسالة الإسلام إليهم مدفوعين بروح معنوية عالية ، وقيم حضارية لا تعرف الجبن ولا الخور ، ولم يكن للتقاعس أو الضعف مكان في نفوسهم .

وقد صوّر هذا الشعور الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة[٥] ـ رضي الله

(١) المرجع السابق، ج ٤ . ص ٦٤٠ .
(٢) الذهبي، العبر، ١، ص ٢٦ .
(٣) محمد يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة، ج ٤ ، ص ٦٤٢ .
(٤) المرجع السابق، ص ٤٦٤ .
(٥) قالها ـ رضي الله عنه ـ قبيل خروجه لمعركة مؤتة سنة ٨ هـ، انظر : البداية والنهاية، لابن كثير، ج ٤، ص ٢٤١ ـ ٢٤٣ .

عنه - حيث قال:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً ... وضربةً ذات فريحٍ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مرّوا على جدثي ... أرشده الله من غاز وقد رشدا

ولـمَّا دخل المسلمون الفاتحون بلاد الأندلس، كان الجيش الفاتح يتمتع بروح معنوية قوية؛ لأن أفراده التزموا بتعاليم الإسلام الشاملة التزاماً حقيقياً، كما فهم قادته الأوائل الجهاد في سبيل الله على حقيقته، في أنه من أجل إعلاء كلمة الله، ونشر دينه في الأرض؛ ذلك لأنهم قد نشؤوا في بوتقة الإسلام، وتربوا في المدرسة الإسلامية، وغذوا بالعقيدة الصافية، وانعكس ذلك في منهج حياتهم عبادة وجهاداً، ومن هؤلاء القادة - تمثلاً لا حصراً - موسى بن نصير، وعقبة بن نافع الذي قال بعدما أتمّ فتح بلاد المغرب: «يارب! لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك مقاتلاً مَنْ كفر بك»[1].

وقد بدا هذا الأمر واضحاً خلال المعارك الحربية التي خاضها المسلمون ضد النصارى بالأندلس في تلك الفترة، فقد ذكر المؤرخون أنه ما أن رأى النصارى طلائع جيش المسلمين بدأت تجتاح بلادهم، حتى كتب أحد قادتهم - ويدعى تدمير - رسالة إلى لذريق قال فيها: «إنه نزل بأرضنا قوم لا ندري أمن السماء نزلوا أم من الأرض خرجوا!»[2].

ومع مضي الزمن، ازداد تأصل هذه الروح عند مسلمي الأندلس؛ إذ أصبح

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ١/ ٢٧، ابن الأثير، الكامل، ص ٤/ ١٠٦.

(٢) ابن هذيل، تحفة الأنفس، ص ٧٠، المقري، نفح الطيب، ١/ ٢٤٠، ابن عذارى، البيان المغرب، ٢/ ٨، وقد ذكر أن الذي كتب الرسالة هو القائد ينج ابن أخت لذريق.

قادتها يرون أن هذا الأمر من أهم مسؤولياتهم، حتىٰ لو كانوا خارج بلاد الأندلس، فقد ذكر المؤرخون أن موسىٰ بن نصير - رحمه الله - لما قفل من الأندلس: «أنزل الرابطة والحامية بثغورها، واستعمل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها»[(١)].

ولم تكن هذه القوة المعنوية خاصة بالمسلمين الفاتحين لبلاد الأندلس، بل إنها كانت سمة عامة تميّز بها الجند الفاتحون للبلدان الإسلامية، وكُتُب التاريخ والتراجم مليئة بالأدلة والشواهد التي تبين أن المسلمين كانوا يولون التعبئة المعنوية لجيوشهم عناية خاصة، بل إنهم كانوا يقدمونها علىٰ الإعداد المادي، وذلك استناداً إلىٰ كثير من الآيات والأحاديث التي تؤكد علىٰ أن الاستعداد النفسي والقوة الإيمانية لا تقل أهمية عن الاستعداد المادي بالأسلحة والعتاد.

وفي عصر الولاة (٩٥-١٣٨هـ/ ٧١٤-٧٥٥م) حافظ المسلمون علىٰ هذه الروح المعنوية، فقد كانت جهودهم في ميدان الجهاد في سبيل الله كثيرة، شملت مناطق مختلفة من الرقعة الأندلسية، وفي هذا يقول صاحب (أخبار مجموعة): «وكان مَن وَصَفْنا من الولاة يجاهدون العدو، ويتوسعون في البلاد، حتىٰ بلغوا إفرنجة، وحتىٰ افتتحت عامة الأندلس»[(٢)]، وذلك علىٰ الرغم من بعض مظاهر الضعف المعنوي التي ألـمَّتْ بالمسلمين آنذاك منذ بدء وجودهم علىٰ أرض الأندلس، ومن هذه المظاهر الحروب بين المسلمين من العرب والبربر، والمسلمين من عرب الشمال وعرب الجنوب؛ مما أدىٰ إلىٰ عدم استكمال فتح الأندلس، وإتاحة الفرصة للبذور الأولىٰ للدويلات النصرانية التي استفادت من فرقة المسلمين، فتوسّعتْ علىٰ حسابهم، وثبتتْ أقدامها في بعض الأماكن؛ مما جعل

(١) ابن خلدون، العبر، ٤/ ٢٥٦، المقري، نفح الطيب، ١/ ٢٤٣.
(٢) أخبار مجموعة، ص ٢٥.

المسلمين يخفقون في القضاء عليهم .

وحينما قامت الدولة الأموية هناك (١٣٨ ـ ٤٢٢ هـ/ ٧٥٥ ـ ١٠٣٢ م) كانت الدولة الإسلامية بالأندلس قد بسطت سلطانها على معظم شبه جزيرة أيبيريا ، التي أصبحت خاضعة لحكم المسلمين ؛ حيث صار المسلمون الحكام الحقيقيّين لتلك البقاع ، كما كان جيش المسلمين هو القوة الأولى في تلك الديار ، وقد اعترف المؤرخون النصارى بأن دخول عبد الرحمن الأول إلى الأندلس وقيام الدولة الأموية هناك ، قد وقف سدّاً منيعاً أمام طموحات الدويلات النصرانية ، كما منعها من التوسع في أراضي المسلمين[١] .

ولهذا ظلت الروح المعنوية قوية عند كثير من الناس خاصتهم وعامتهم ، كما أصبح الجهاد في سبيل الله هاجساً ملازماً لكثير من الناس هناك ؛ حيث صاروا يعدُّونه من أهم واجباتهم ، وأشرف مسؤولياتهم ، وقد حاول حكام الدولة الأموية المحافظة على هذا الشعور ، وتنميته بين المسلمين .

هكذا كان واقع المسلمين في بلاد الأندلس خلال العصور السابقة لعصر ملوك الطوائف ، كان الجميع يترسمون أهداف الجهاد في سبيل الله ، ويعملون وفق مبادئه ؛ ولهذا تمكنوا من نشر دينهم الحق ، وإرهاب عدوهم ، وبسط سلطانهم على معظم شبه جزيرة أيبيريا .

ويدرك المتتبع لتاريخ مسلمي الأندلس أن هناك ارتباطاً قوياً ، وصلة وثيقة

(1) Suarez Fernanadez: Luis.
Manual de Historica umirenal Tomo III Edod Media, 20 Edician, Madrid 1972 pp. 159.
Angeles Masia: p. 190.
Introduccion a la historia de Espania. Barcelona, 1943. pp. 101.
Altamira: historia de Espania 30 Edician Tomo I pp. 238 - 239 Barcelona,1913.

بين قوة المسلمين والتزامهم بدينهم؛ ففي الفترات التي كان المسلمون يحافظون فيها على أصالتهم وروحهم المعنوية حينما يتمسكون بأواصر دينهم، كانت تدين لهم السيادة في معظم أجزاء شبه الجزيرة الأندلسية، لكنهم في الفترات التي نكبوا فيها بالفرقة والخلاف وأسباب الفتنة كانت القوة النصرانية تستأسد عليهم، وتتوسع على حسابهم كما تزيد من بأسها ضدهم.

وبعد أن انهارت الخلافة الأموية بالأندلس، وانفرط عقد المسلمين بانهيارها، وقام على أنقاضها العديد من الدويلات الإسلامية[1] - تغير واقع

(١) بلغ عدد هذه الدول زهاء ثلاث وعشرين دولة، ولها ثلاثة اتجاهات عصبية هي: البربر في الجزء الجنوبي، والصقالبة في القسم الشرقي، أما باقي الأندلس فكان تحت حكم العرب، وهذه الدول هي:

١ - منطقة قرطبة، ويحكمها بنوجهور: (٤٢٢ - ٤٦٠ هـ/ ١٠٣٠ - ١٠٦٨م).
٢ - منطقة طليطلة، ويحكمها بنوذي النون: (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ/ ١٠٣٥ - ١٠٧٥م).
٣ - إشبيلية، ويحكمها بنو عباد: (٤١٤ - ٤٨٤ هـ/ ١٠٢٣ - ١٠٩١م).
٤ - غرناطة، ويحكمها بنو زيري: (٤٠٣ - ٤٨٣هـ/ ١٠١٢ - ١٠٩٠م).
٥ - بلنسية، ويحكمها العامريون: (٤١٢ - ٤٧٨ هـ/ ١٠٢١ - ١٠٨٥م).
٦ - سرقسطة، ويحكمها بنو هود: (٤١٠ - ٥٣٦ هـ/ ١٠١٩ - ١١٤١م).
٧ - بطليوس، ويحكمها بنو الأفطس: (٤٢١ - ٤٨٧هـ/ ١٠٣٠ - ١٠٩٤م).

بالإضافة إلى هذه الدول الرئيسة فقد كان هناك العديد من المدن والأقاليم التي أعلنت استقلالها وهي:

٨ - دولة بني يحيى، في لبلة: (٤١٤ - ٤٨٧هـ/ ١٠٣٠ - ١٠٩٤م).
٩ - دولة بني البكري، في جزيرة شلطيش: (٤٠٣ - ٤٤٣هـ/ ١٠٢٦ - ١٠٥١م).
١٠ - دولة هارون، في شنت مرية الغرب: (٤١٧ - ٤٤٣هـ/ ١٠٢٦ - ١٠٥١م).
١١ - دولة بني مزين، في باحة وشلب.
١٢ - دولة بني برزال، في قرمونة: (٤٠٤ - ٤٥٩هـ/ ١٠١٣ - ١٠٦٧م).

وقد سمى ابنُ عذارى عبدَ الله البرزالي زعيم هذه الدولة بـ (قطب رحى الفتنة). انظر: البيان المغرب، لابن عذارى، ج ٣، ص ٢٠٢.

١٣ - دولة بني خزرون، في أركش: (٤٠٢ - ٤٦١هـ/ ١٠١١ - ١٠٦٨ م). =

المسلمين هناك، سنة الله في خلقه؛ فقد تخلىٰ هذا المجتمع عن كثير من المبادئ والأسس التي كان المسلمون قد تربوا عليها قبل ذلك العصر؛ إذ تحولت الوحدة إلىٰ فرقة، والاجتماع إلىٰ تشتت، والقوة بكل معانيها إلىٰ ضعف وخور، والغايات النبيلة إلىٰ أهداف ومطامح رخيصة، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [**الرعد**: ١١].

وبهذا أصبح واقع المسلمين يختلف كثيراً عن واقعهم السابق، كما أن المجتمع بكل شرائحه وفئاته قد تأثر بذلك الواقع؛ ولهذا اصطلح المؤرخون علىٰ تسمية هذا العصر بعصر ملوك الطوائف(١) أو عصر الفتنة(٢)، أو الفرق(٣).

وقد أدرك ابن حيان - شيخ مؤرخي الأندلس - هذا الأمر؛ حيث قال في وصفهم: «دهرنا هذا قد غربل أهليه أشد غربلة فسفسف أخلاقهم، واجتث أعراقهم، وسفه أحلامهم، وخبث ضمائرهم، فاحتوىٰ عليهم الجهل،

= ١٤ - دولة بني دمر، في مورو: (٤٠٣ - ٤٥٨هـ/ ١٠١٣ - ١٠٦٦م).
١٥ - دولة بني يفرن، في رُندة: (٤٠٦ - ٤٥٧هـ/ ١٠١٥ - ١٠٦٥م).
١٦ - دولة العامريين، في المرية: (٤٠٥ - ٤٨٤ هـ/ ١٠١٤ - ١٠٩١م).
١٧ - مملكة مرسية: (٤٠٣ - ٤٧١هـ/ ١٠١٢ - ١٠٧٨م).
١٨ - مملكة دانية والجزائر: (٤٠٠ - ٤٦٨ هـ / ١٠٠٩ - ١٠٧٦م).
١٩ - إمارة شنت مرية الشرق: (٤٠٣ - ٤٩٧ هـ/ ١٠١٢ - ١١٠٤م).
انظر: محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ط ٢، ص ٤٦٠ - ٤٦٤، أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٨٩ - ٩٦، عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، ص ٢٤، لين بول، الدول الإسلامية، القسم الأول، ص ٦٢ - ٧٤.

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ٣/ ٢١٩، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ٢٢٤.
(٢) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق ٣، ج ١، ص ٢٥، عبد الله بن بلقين، التبيان: ص ٥٦، ٥٨، ٦٩، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٩٤.
(٣) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٧٨.

واقتطعهم الزيف، وأركستهم الذنوب، ووصمتهم العيوب، فليسوا في سبيل الرشد بأتقياء. . . يعللون نفوسهم بالباطل. ومن أدل الدلائل علىٰ فرط جهلهم بشأنهم، واغترارهم بزمانهم، بعادهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية نبيهم عليه السلام، وذهولهم عن النظر في عاقبة أمرهم»[١].

كما تنبه كثير من عقلاء الأندلس إلىٰ هذا الواقع المؤلم، والمستقبل المحزن، وخطريهما؛ فبينوا ذلك للناس، وحذروهم من مغبة التمادي في هذا الطريق. وممن تكلم في هذا الأمر ابن حزم؛ حيث ذكر أن ملوك الطوائف لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية لأمرهم لبادروا إليها[٢]، وأن ما يعانيه المسلمون في عصر ملوك الطوائف، من واقع سياسي واجتماعي ممزق، إنما هو من الفضائح التي لم تمر بها البشرية علىٰ مدىٰ تاريخها حتىٰ يومهم[٣].

وقد لاحظ المؤرخون النصارىٰ هذه الأوضاع وسجّلوها في كتاباتهم القديمة والحديثة؛ حيث سجّل ألفونسو العاشر فصلاً كاملاً عن تدخل ألفونسو السادس ملك قشتالة في الصراع بين حكام طليطلة وقرطبة في عصر ملوك الطوائف[٤].

وممن أدرك هذا الأمر الشاعر الأندلسي ابن العسال[٥]؛ فقد نظم قصيدة

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ (نقلاً عن ابن حيان)، كما ذكر المقري هذا النص ونسبه إلىٰ ابن حيان، انظر: نفح الطيب، ج ٤، ص ٤٥٢.

(٢) ابن حزم، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، ج ٣، ص ١٧٦.

(٣) ابن حزم، نقط العروس، ص ٨٣ ـ ٨٤.

(4) Alfonzo x: Primara C rimica general de Espania, Madrid 1977. pp 521.

(٥) هو أبو محمد عبد الله بن فرج بن العسال الطليطلي زاهد طليطلة المشهور، كان فصيح اللسان، متفنناً في شعره، كما كان يحفظ الأحاديث، قال العديد من القصائد التي يبيّن فيها أسباب ضعف المسلمين، كما دعا في قصائده إلىٰ الوحدة والجهاد. توفي سنة ٤٨٧ هـ، وقد نيف عمره علىٰ الثمانين (ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٢١ رايات المبرزين، ص ٨١، الحميري، الروض المعطار، ص ٩٠ ـ ٩١، المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٣٥٢).

حذَّر فيها المسلمين من واقعهم السيئ، كما نبههم إلىٰ مخاطر الإقامة بالأندلس في ظل ذلك الواقع . ومما جاء فيها :

يا أهل الأندلس حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلطِ

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسطِ

ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سفطِ ؟ !(١)

وقد ساء هذا الوضع ابن بسام، حتىٰ رأىٰ أن الكتابة عنه أو تدوين تاريخه فيه شيء من المرارة والحرج، فكيف عن العيش في خضم أحداثه؟! وقد أبان هذا الشعور، وتلك المعاناة النفسية في مقدمة ذخيرته حيث قال : «وعلم الله ـ تعالىٰ ـ أن هذا الكتاب لم يصدر إلا من صدر مكلوم الأحناء، وفكر خامد الذكاء، بين دهر متلون تلون الحرباء، بتواتر الروم علينا في عقر ذلك الإقليم»(٢) .

هكذا كانت حالة المسلمين في عصر ملوك الطوائف بالأندلس، فالالتزام بالدين قد قلّ، وعقد الوحدة قد انفرط، والجهاد ومقاومة العدو قد ضعف عند أكثر الناس، كما أصبح العدو علىٰ الأبواب يجوس خلال الديار فساداً، ويلقي الخوف والفزع في نفوس الناس، أما الحكام فهم مشغولون بأمور تافهة؛ حيث هانت عليهم مصالح المسلمين فتركوها دون مصالحهم الذاتية، كما انحرف بعض ملوك الطوائف في كثير من تصرفاتهم عن النهج السليم، فاستنصروا بأعداء الأمة ضد إخوانهم المسلمين، ولم يحاولوا أن يكونوا يداً واحدة، في ظل كيان سياسي موحّد ضد مطامع النصارىٰ ومخططاتهم(٣) .

---

(١) ابن سعيد، المغرب، ج ٢ ، ص ٢١، المقري، نفح الطيب، ج ٤ ، ٣٥٢ .

(٢) الذخيرة، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٧ .

(٣) عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٢٥، Alfonso Primera: pp 547. Primera: llid, pp. 547.

ومما لا شك فيه أن هذا التحول الذي مُني به مجتمع ملوك الطوائف بكل فئاته لم ينشأ من فراغ، كما لم يكن وليد يومه أو ليلته، وإنما تمخّض نتيجة لعدد من العوامل والأسباب التي توافرت فتضافرت علىٰ وجوده.

كما أن هذا الضعف كانت له صور ومظاهر متعددة انتشرت بين الناس، فأثرت في معظم شؤون حياتهم، وقد كان ضعف الإيمان وانهزام النفوس من داخلها، من أوضح وأبرز صور ذلك الضعف الذي نزل بالمسلمين في ذلك العصر؛ حيث إن تلك الظاهرة المرضية التي أصابت الناس كانت لها أسباب قوية أدت إلىٰ ظهورها، كما كان لها تأثيرها القوي في كثير من شؤون الناس، ولا سيما ما يتعلق بالجهاد، ومقاومة العدو؛ فما أسبابها وعواملها، وما صورها ومظاهرها، وكيف كان تأثيرها، وما آثارها ونتائجها؟

هذا ما سوف تسعىٰ هذه الدراسة ـ بعون الله ـ للإجابة عنه وبيانه، من خلال استقراء المادة العلمية التي عالجت هذا الموضوع، واستنباط الأفكار التي تصور حياة المسلمين في الأندلس في ظل ذلك الواقع المؤلم، وهذه المادة متناثرة في أثناء المصادر التي عُنيت بالتاريخ والفكر الأندلسي، والمؤمَّل أن يكون جمعها واستنباط الأفكار منها رصيداً علمياً يوضح جانباً من جوانب حياة مسلمي الأندلس في هذا العصر، توصلاً بها إلىٰ حقيقة تاريخية، هي أن عوامل سقوط الأندلس قد ظلت تنخر في المجتمع الإسلامي الأندلسي منذ زمن متقدم عن تاريخ السقوط الفعلي، والمؤمل ـ أيضاً ـ أن تكون هذه الدراسة إسهاماً جاداً في بيان عوامل ضعف المسلمين، وهوانهم علىٰ الناس في كل زمان ومكان، وخصوصاً في هذا العصر الذي هان فيه المسلمون علىٰ أنفسهم ـ بترك الالتزام بدين الله تعالىٰ ـ؛ فهانوا في أعين أعدائهم، فتداعوا عليهم كما تداعىٰ الأكلة إلىٰ قصعتها، والله المستعان وهو القادر علىٰ إصلاح الأحوال.

خطة البحث ومنهجه

أولاً: خطة البحث:

جاء هيكل هذا البحث مقسماً على ثلاثة فصول بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة، وقائمة المصادر والمراجع.

أما المقدمة فقد بينت فيها أهمية القوة المعنوية، وأن الإسلام سعى لتأصيلها في نفوس أتباعه ومعتنقيه ثم كيف أدرك السلف الصالح من المسلمين أهميتها؛ مما جعلهم يحرصون دائماً على بقائها عالية خفاقة لدى عامتهم وخاصتهم، كما بينت المقدمة أن المسلمين في بلاد الأندلس بقوا محافظين على القوة المعنوية، وأن تفوقهم السياسي والعسكري ظلّ ملازماً لقوتهم المعنوية قوة وضعفاً، كذلك حوت المقدمة التساؤلات والإشكالات التي أجابت عنها فصول هذا البحث.

وقد جاء الفصل الأول بعنوان: «**عوامل الضعف المعنوي عند المسلمين في عصر ملوك الطوائف بالأندلس**»، حيث عالج هذا الفصل أهم عوامل ضعف المسلمين المعنوي هناك، وكان من أهم تلك العوامل العامل الديني الذي بدا واضحاً حينما تخلى أولئك القوم عن قيمهم الدينية والحضارية؛ مما أبقاهم بعيدين عن أصالتهم التي دخلوا بها تلك الديار، كما أن انفراط عقد الوحدة السياسية عند المسلمين هناك يعد جانباً مهماً، وعاملاً مباشراً للضعف المعنوي الذي انتاب المسلمين هناك؛ حيث أدى ذلك الانفراط إلى فوضى سياسية مزقت وحدة المسلمين مما أضعفهم في جميع شؤون حياتهم. كما ناقش هذا الفصل تخلي كثير من مسلمي الأندلس في عصر ملوك الطوائف عن الجهاد في سبيل

الله، وما أفضى إليه ذلك التخلي من هوان وضعف أدى إلى تكالب القوى النصرانية ضد مسلمي الأندلس. وفي نهاية هذا الفصل جاء الحديث عن العصبية القبلية - التي انتشرت بين المسلمين هناك - وأثرها في تمزيق المسلمين إلى شعوب وقبائل؛ حيث إن هذا الخلق الجاهلي الذي انتشر بين المسلمين هناك أدى إلى إضعافهم بسبب تخليهم عن أصالتهم وأخلاقهم الإسلامية، وتشبثهم بروابط الأنساب والأحساب بديلاً عن روابط الإيمان والتقوى.

أما الفصل الثاني فعنوانه: «**مظاهر الضعف المعنوي**»، وقد تم فيه رصد أهم مظاهر ذلك الضعف؛ حيث كانت الفوضى السياسية من الظواهر البارزة التي أفرزها ضعف المسلمين المعنوي هناك؛ إذ غرق القوم في أوحال ذلك الضياع ومستنقعاته التي خلفها الفراغ السياسي هناك، كما تحدث هذا الفصل عن ظاهرة التكالب على المصالح الدنيوية والتناحر من أجلها، والتي بدت ظاهرة واضحة وسمة ملحوظة من السمات التي يتسم بها مجتمع المسلمين هناك على اختلاف شرائحه وتنوع طبقاته، كما عالج هذا الفصل ظاهرة النزاع الداخلي بين الأسر الحاكمة؛ حيث كان هذا النزاع من أقوى المؤثرات على واقع المسلمين هناك، كما أنه معول هدم أدى إلى شتات الأمة وانقسامها على نفسها؛ مما أضعفها مادياً ومعنوياً.

ومن الظواهر البارزة في ذلك العصر موالاة ملوك الطوائف للنصارى؛ حيث تم رصد هذه الظاهرة مع بيان ما أدت إليه من تعلق كثير من المسلمين بالنصارى وإذعانهم لتبعيتهم، وهذا - بلا شك - مما أدّى إلى اختراق صفوف المسلمين، واكتساح ثغورهم الداخلية والخارجية.

وكانت ظاهرة الترف وما صاحبها من خلاعة ومجون من الظواهر التي

استشرت بين المسلمين هناك؛ حيث أصبحت خلقاً مألوفاً وسلوكاً غير منكر عند كثير من مسلمي ذلك العصر، وقد تم التعرف على هذا التحول في الطباع والأخلاق وما أفضى إليه ذلك من ضعف حينما أصبح كثير من الناس أسرى لشهواتهم وملذاتهم.

وفي الفصل الثالث جاء الحديث عن «**آثار الضعف المعنوي ونتائجه**»؛ حيث تم خلال هذا الفصل دراسة أهم الآثار التي تمخضت عن الضعف المعنوي الذي انتاب مسلمي الأندلس آنذاك، وقد كان ضعف المسلمين عسكرياً في مقدمتها، ثم جاء الحديث بعد ذلك عن ازدياد المد النصراني ضد المسلمين هناك، وما صاحب ذلك من ضعف للثغور الإسلامية، وعجز عن مقاومة النصارى.

ولم تكن الآثار قاصرة على الجانب العسكري، بل تعدتها إلى جوانب كثيرة من حياة الناس هناك، وكان من أهمها الانهزام الفكري وتدهور الحياة العامة عند كثير من مسلمي الأندلس؛ حيث تم رصد هذين الأمرين وبيان ما انتابهما من خلل وضعف.

وفي نهاية هذا البحث جاءت «**الخاتمة**»؛ وقد تم فيها ذكر أهم ما توصل إليه البحث من نتائج.

ثانياً: منهج البحث:

جرى التعامل مع المادة العلمية لهذا البحث وفق المنهج العلمي المتبع في مثل هذه الدراسة، وهو المنهج الذي يقوم على الرصد والجمع، ثم المناقشة والتحليل للمادة العلمية.

وقد قمت بجمع المادة العلمية من مصادر متعددة، ولعل مما يميّز عصر ملوك الطوائف، ويشجع على الكتابة فيه وفي أحداثه، أنه حظي بعدد من المؤرخين

والكتَّاب الذين عاشوا في ظله، ومن ثَمَّ عنوا بأحداثه وتدوينها، ثم بينوا موقفهم منها بكل جرأة وتجرد؛ ذلك أن هؤلاء المؤرخين لم يعيشوا في كنف دولة واحدة كي يخضعوا لتأثيرها، بل إنهم كانوا يتنقلون في أرجاء الأندلس؛ مما ساعدهم على حرية التعبير، فضلاً على الاطلاع عن كثب على الأوضاع والمستجدات في كل دولة، وهذا - بلا شك - مما أعطى كتاباتهم قيمة علمية، فهم شهود عيان لما دوّنوا، إلى جانب تجردهم حينما دوّنوا التاريخ من أي تأثير أو نزعة إقليمية أو عصبية.

ويأتي في مقدمة هؤلاء؛ شيخ مؤرخي الأندلس، وصاحب لواء التاريخ في ذروة عصر ملوك الطوائف: (ابن حيان)؛ حيث رأى بعينيه، وسمع بأذنيه ما حلّ بالمسلمين آنذاك، ومما يزيد في أهمية ما كتبه أنه كان لا يعتمد كذباً فيما يحكيه في تاريخه[1]، كما أنه أعلن رأيه وموقفه من ملوك الطوائف بكل شجاعة وجرأة وتجرد؛ حيث حوى ذلك كتابه: (المقتبس)، وفيما نقله عنه الآخرون من كتبه التي لم تصل إلينا من أمثال: ابن بسام، وابن عذارى، وابن الخطيب، وابن الأبار، وابن سعيد، والمقري، وغيرهم.

وقد كان أبو الحسن ابن بسام الشنتريني (٥٤٢ هـ) من الذين عايشوا تلك الأحداث؛ فقد ضمن كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» الكثير من المادة العلمية، ومما زاد من قيمة ما دوَّنه ابن بسام؛ ما يتمتع به قلمه من حاسة نقدية مرهفة، إلى جانب صراحته وتجرده، وكونه شاهد عيان لمعظم ما كتب، فضلاً عما يتمتع به من أسلوب بلاغي جميل.

وممن اهتموا بتلك الأحداث أبو محمد علي بن أحمد بن حزم (ت ٤٥٦ هـ)؛ فقد رأى أولاً سقوط الدولة الأموية بالأندلس، وما تمخض عن ذلك من مآس وفتن، ثم عايش واقع المسلمين في عصر ملوك الطوائف؛ حيث اكتوى مع غيره

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢١٨ - ٢١٩، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١، ص ١٦١.

من المسلمين بنار الفرقة، وذاق طعم الشتات والتمزق وذلة المسلمين، وهو يؤمن بأن العزة والقوة يجب أن تكون لله ولرسوله وللمؤمنين[١]، وقد سجل تلك المشاهد والانطباعات والقناعات في كتبه الكثيرة، ومما يزيد من أهمية ما كتبه الإمام ابن حزم عن هذا الموضوع كونه من علماء الدين الذين يبرزون رأي الشرع في مثل تلك القضايا، وقد جاءت كتابات ابن حزم متفرقة في كتبه المختلفة، لكن من أهم ما تركه لنا من تراث علمي في هذا المجال تلك الرسائل التي كتبها في وصف الحال، أو من أجل الإجابة عن سؤال، أو لغرض آخر؛ إذ تعد تلك الرسائل وثائق مهمة في تاريخ ذلك العصر.

ويُعد مؤلَّف الأمير عبد الله بن بلقين بن زيري حاكم غرناطة (٤٦٥ ـ ٤٨٣ هـ/ ١٠٧٣ ـ ١٠٩٠م) المسمىٰ بـ «التبيان[٢] عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة»، وثيقة تاريخية مهمة؛ فقد كتب لنا المؤلف ـ وهو من ملوك الطوائف ـ مذكرات معاصرة، ووجهة نظر تجاه حوادث عايشها بنفسه، ليس عن دولته فحسب، بل تحكي تصوراً عاماً عن أحوال الأندلس كافة، ومما لا شك فيه أن المادة العلمية التي حواها هذا الكتاب قد أفادت هذا البحث؛ إذ إن محررها يُعد من الأطراف المباشرة في موضوعنا.

أما ابن عذارىٰ المراكشي (ت. ق ٨ هـ) في كتابه: «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب»، فقد أمدّ هذا البحث بمادة علمية جيدة، ولا سيما أنه قد أكثر الاقتباس والنقول من مؤرخين معاصرين لملوك الطوائف كابن حيان، وابن بسام وغيرهما.

كذلك اعتمد هذا البحث علىٰ كل من ابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ)، وعبد الواحد المراكشي (٦٤٧ هـ)، وابن الكردبوس (٦٨١ هـ)، وابن سعيد

(١) ابن حزم حياته وأدبه، عبد الكريم خليفة، ص ٥٢.

(٢) نشر هذا الكتاب: «ليفي بروفنسال» بعنوان: «مذكرات الأمير عبد الله» بالقاهرة سنة ١٩٥٦م، وقد اهتم المستشرقون بهذا الكتاب باعتباره اعترافاً صريحاً في أول سيرة ذاتية لبعض العيوب التي كان يعاني منها ملوك الطوائف عامة، ومملكة بني زيري في غرناطة خاصة، انظر: Garcia Gomrez.

(٦٨٥ هـ)، والمقري (١٠٤١ هـ) وغيرهم من مؤرخي الأندلس وكتَّابها.

وبالإضافة إلىٰ ما سبق فقد كان لكتب علماء الدين أثر واضح في كشف كثير من الغموض الذي اكتنف بعض القضايا التاريخية ولاسيما الاجتماعية منها، ويأتي في مقدمة هذه الكتب مؤلفات أبي محمد عبد الله بن يوسف[1] بن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ)، وابن سهل (٤٨٦ هـ)، والذهبي (٧٤٨ هـ) وغيرهم.

كذلك استفاد البحث من كتب الأدب، ودواوين الشعر؛ ذلك أن هذا النوع من التراث العلمي يعد مرآة مهمة في تصوير الواقع، ووصف الحال، وإيضاح ما يحل بالمجتمع من ظواهر سلبية أو إيجابية، وكان حظ عصر ملوك الطوائف وافراً من هذا الصنف من العلماء؛ حيث عاش فيه ثلة لا بأس بها من الأدباء والشعراء الذين تركوا بصمات واضحة في تصوير ذلك العصر. ويأتي في مقدمة هذه الفئة أبو حفص عمر الهوزني (ت ٤٦٠ هـ)، وأبو الحسين يوسف بن الجد، وأبو محمد عبد الله العسال (٤٨٧ هـ)، وأبو القاسم خلف بن فرح السمير، وأبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة (ت ٥٣٣ هـ) وغيرهم.

وبالإضافة إلىٰ ما سبق فقد رجعتُ إلىٰ بعض المصادر والمراجع النصرانية؛ وذلك للتعرف علىٰ وجهة النظر النصرانية في بعض القضايا التي كانوا فيها طرفاً مباشراً، ومن صانعي أحداثها.

---

(١) ومن أهم ما تركه لنا هذا العالم الجليل في هذا الميدان رسالته التي كتبها علىٰ لسان أهل بربشتر بعد نكسة المسلمين فيها سنة ٤٥٦ هـ وعنوانها: «من الثغور القاصية، الأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد، المتمسكين بعروة الدين، المستهلكين في حماية المسلمين، المعتصمين بعصمة الإسلام، المتآلفين علىٰ الصلاة والصيام، المؤمنين بالتنزيل، المقيمين علىٰ سنة الرسول محمد ﷺ نبي الرحمة، وشفيع الأمة، إلىٰ من بالأمصار الجامعة، والأقطار الشاسعة بجزيرة الأندلس من ولاة المؤمنين، وحماة المسلمين، ورعاة الدين من الرؤساء والمرؤوسين».
وهذه الرسالة وثيقة مهمة لما أشارت إليه من قضايا في موضوع جهاد النصارىٰ، والضعف الذي انتاب المسلمين، ومن ثم عجزهم عن مقاومة النصارىٰ والتصدي لهم. (انظر الرسالة في: ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٧٣ ـ ١٧٩).

خطة البحث

الفصل الأول: عوامل الضعف المعنوي عند المسلمين في عصر ملوك الطوائف بالأندلس:

١ ـ ضعف الالتزام بمبادئ الدين وأحكامه.

٢ ـ انعدام الوحدة السياسية بين مسلمي الأندلس.

٣ ـ تخلي كثير من المسلمين عن الجهاد في سبيل الله.

ـ عوامل ضعف الجهاد.

أ ـ ضعف الوازع الديني عند كثير من ملوك الطوائف.

ب ـ الأنانية وحب الذات.

ج ـ الجبن والخور الذي أصاب كثيراً من الناس.

٤ ـ العصبية القبلية التي انتشرت بين مسلمي الأندلس، وأثرها في تمزيق المسلمين إلى شعوب وقبائل متناحرة.

الفصل الثاني: مظاهر الضعف المعنوي:

١ ـ الفوضى السياسية.

٢ ـ التكالب على المصالح الدنيوية والتطاحن من أجلها.

٣ ـ النزاع الداخلي بين الأسر الحاكمة.



١ ـ ضعف الالتزام بمبادئ الدين وأحكامه.

٢ ـ انعدام الوحدة السياسية بين مسلمي الأندلس.

٣ ـ تخلي كثير من المسلمين عن الجهاد في سبيل الله.

٤ ـ العصبية القبلية التي انتشرت بين المسلمين هناك، وأثرها في تمزيق المسلمين إلى شعوب وقبائل متناحرة.

عوامل الضعف المعنوي عند المسلمين في عصر ملوك الطوائف بالأندلس

أولاً: ضعف الالتزام بمبادئ الدين وأحكامه:

حينما دخل المسلمون الفاتحون بلاد الأندلس أخذوا يسعون لنشر الإسلام، وتأصيل مبادئه في نفوس المسلمين هناك؛ حيث دعوا إليه بأفعالهم، ثم عرضوه على الناس بأقوالهم؛ موضّحين ما فيه من خير وسعادة للبشرية، ولما كان هذا الدين يتَّسم بقوة ذاتية حققت المثل الإنسانية الفريدة لمعتنقيه، فقد أقبل الكثير من سكان تلك الديار على الدخول في الإسلام برغبة ذاتية ودون إكراه، بل عن طواعية واختيار، وهكذا لم تمض مدة وجيزة إلا وقد انصهر معظم سكان الأندلس في بوتقة الإسلام على مختلف طبقاتهم وفئاتهم(١)؛ ولهذا أصبح شعارهم قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [**الحجرات**: ١٠]، كما استشعروا قوله ﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»(٢).

ومما لا شك فيه أن هذا النجاح الباهر الذي حققه الجنود الفاتحون لبلاد الأندلس هو الذي دفعهم إلى مواصلة المسيرة الجهادية في شمال الأندلس وخلف جبال البرتات؛ حيث أصبح هذا الأمر هاجساً ملازماً لكثير من الجند الفاتحين، فقد ذكر الحميدي أن محمد بن حبيب المعافري قدم مع النعمان بن عبد

---

(١) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص ١٣١.
(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١١٩)، وانظر: جامع الأصول، ج ٨، ص ٢٧ ـ ٢٨.

الله الحضرمي على سليمان بن عبد الملك في بلاد الشام: فقال سلمان: «ارفعا حوائجكما؛ فأما المعافري فرفع حوائجه فقُضيت، وأما النعمان [١] فقال: حاجتي أن تردني إلى ثغري، ولا تسألني عن شيء. فأذن له فرجع، واستشهد في أقصى الثغور بالأندلس»[٢].

وقد سار مسلمو الأندلس على هذا المنهج، في عهدي الفتح والوُلاة، حيث التزم الناس بأحكام الدين وأوامره، حتى غدت الجزيرة الأندلسية رباط جهاد، وموئل حضارة، ومنبت إنسانية كريمة؛ إذ حافظ الجميع على الفضائل التي دخلوا بها، كما أدرك كل واحد منهم مسؤوليته أينما كان موقعه[٣].

ولما قامت الدولة الأموية بالأندلس (١٣٨ ـ ٤٢٢ هـ/ ٧٥٥ ـ ١٠٣٢م) بقي المسلمون محافظين على ذلك المستوى، كما التزم معظم الحكام الأمويين هناك بالشرع الإسلامي منهجاً للحكم وسلوكاً شخصياً لهم، فضلاً عن أخذهم الرعية على ذلك، فقد كانوا يحكمون بالكتاب والسنَّة[٤]، يقيمون الصلاة[٥]، ويؤدون الزكاة وفق ما جاء في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ[٦].

والمتتبع لتاريخ أولئك القوم يدرك أنهم قد ساروا وفق ذلك المنهج، فقد التزم

(١) هو النعمان بن عبد الله بن النعمان الحضرمي من آل الرأسين، كان رجلاً صالحاً زاهداً كثير الصدقة، حيث كان يتصدق بعطائه كله، كان في أول أمره يسكن مدينة برقة، ثم دخل الأندلس مع طلائع الجيش الإسلامي الفاتح. (الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٣٥٨، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ٢، ص ١٥٩).
(٢) جذوة المقتبس، ص ٣٥٨.
(٣) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٢١١.
(٤) المقري، نفح الطيب، ج ٣، ص ٣٧ (نقلاً عن ابن حيان).
(٥) ابن حزم، نقط العروس في تواريخ الخلفاء، ص ٧٣، النويري، نهاية الأرب، ج ٢٢، ص ٣٥٨.
(٦) النويري، نهاية الأرب، ج ٢٢، ص ٣٥٨.

كثير من الحكام الأمويين بأحكام الإسلام، والدعوة إلىٰ تطبيقها، والعمل بها، وليس هنا مكان عرضها وبسط القول فيها، ولكن من المناسب في هذا المقام أن نذكر كتاب الخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) الذي وجهه إلىٰ شيخ قبيلة كتامة أبي العيش[1] ابن أيوب، ومما جاء فيه دعوته إياه بأن تكون أحكامه «علىٰ كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنَّة محمد ﷺ المرسل بهما، وأن يأخذ نفسه بمراعاتهما والاهتداء بهما؛ فإنهما مفتاح جنته والنور الذي لا يضل من استضاء به، ومراعاة الصلاة لأوقاتها وإقامتها علىٰ كمالها. . . »[2].

ويدرك المتمعن لما جاء في الكتاب أن الخليفة الحكم المستنصر قد وضَّح المنهج الذي تسير عليه الدولة الأموية في شؤون حكمها بل في جميع أمور حياتها، ولم يكن هذا الكتاب وما يماثله من وثائق هي وحدها الشاهد علىٰ ترسُّم الأمويين خطا المنهج الإسلامي، بل إن واقع تلك الدولة وتصرفات كثير من حكامها دليل آخر علىٰ السير وفق المنهج الإسلامي في معظم شؤون حياتها، ولم يضعف الناس في هذا إلا في آخر عمر الدولة، وهذا مما غير واقع المجتمع الإسلامي هناك، كما عجل بنهاية حكم الأمويين، ولما جاء عصر ملوك الطوائف (٤٢٢ ـ ٤٨٢ هـ) كان واقع مسلمي الأندلس قد تغير نتيجة للضعف الإداري، والفوضىٰ السياسية التي مُني بها المسلمون هناك، فسلطة السلطان قد ضعفت، وأحوال الناس قد تغيرت، وأهدافهم السامية قد تهاوت.

(١) كتامة: قبيلة بربرية، تقطن شمال بلاد المغرب، وهي إحدىٰ قبائل البرنس، وهم أصحاب عمارة وضرع. انظر: (ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٨٩، ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص ٣٥٢، عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ج ١، ص ٢٩٢).

(٢) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، ص ١١١ ـ ١١٢، وللاطلاع علىٰ الرسالة كاملة، انظر: المصدر السابق، ص ١١١ ـ ١١٥.

ولعل من المناسب ـ وقبل أن نخوض في تفصيلات ضعف الالتزام بمبادئ الدين ـ أن نذكر تصوير بعض مؤرخي الأندلس وكتَّابها لهذا الزمن، فابن حيان ـ شيخ مؤرخي الأندلس ـ قال واصفاً ذلك العصر: «دهرنا هذا قد غربل أهليه أشد غربلة، فسفسف أخلاقهم، واجتث أعراقهم، وسفَّه أحلامهم، وخبَّث ضمائرهم، فاحتوىٰ عليهم الجهل، . . . يعلِّلون نفوسهم بالباطل»[١].

أما ابن حزم فقد وصف تلكم الحالة بقوله: «اللهم إننا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب، عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وبجمع أموال ربما كانت سبباً في انقراض أعمارهم، وعوناً لأعدائنا عليهم عن حاجة ملتهم، حتىٰ استشرف لذلك أهل القلة والذمة، وانطلقت ألسِنة أهل الكفر والشرك»[٢].

كما ذكر في موضع آخر أن ملوك الطوائف لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها[٣]، وقد ذكر ابن عذارىٰ أنه في سنة ٤٣٥ هـ تميز ملوك الطوائف، وعمتهم الفرقة، ما منهم من يحذر الآخرة[٤].

أما ابن الكردبوس فقد ترك لنا وصفاً أدق حيث بيّن أنهم «مشتغلون بشرب الخمر، واقتناء القيان، وركوب المعاصي، وسماع العيدان، وكل واحد منهم يتنافس في شراء الذخائر الملكية، . . . إلىٰ أن ضعف. . . الطالب والمطلوب،

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٨٨ ـ ١٨٩، (نقلاً عن ابن حيان)، المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٤٥٢.
(٢) ابن حزم، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، ج ٣، ص ٤١.
(٣) المصدر السابق، ص ١٧٦.
(٤) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٩٠.

وذل الرئيس والمرؤوس، وافتقرت الرعية، وفسدت أحوال الجميع بالكلية، وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية»[(١)].

ويبدو أن الانشغال بالقيان، وما يصاحب ذلك من لهو، كان من الأمور المسلَّم بها عند ملوك الطوائف، بل إنها قد تأصلت في نفوس الكثيرين منهم، فربما عدُّوها من مظاهر الملك، وعلامات النصر والسعادة؛ حيث يذكر ابن عذارىٰ أن ابن الأفطس حينما انهزم أمام جيش خصمه ابن عباد بعد حروب طويلة؛ أرسل رسوله إلىٰ قرطبة يلتمس شراء وصائف ملهيات نافياً بذلك الشماتة عن نفسه، وقد علم العالم أنه لفي شغل عنهن[(٢)].

وبالإضافة إلىٰ ذلك، فقد أدرك الشعراء والأدباء هذا الضعف، فصوروه، وقد أجادوا في ذلك، ومن هؤلاء أبو الحسن بن الجدّ، وكان مما قاله[(٣)]:

أرى الملوك أصابتهم بأندلسٍ ... دوائرُ السَّوء لا تُبقي ولا تذرُ

ناموا وأسرى تحت الدُّجى قدرٌ ... هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا

وكيف يشعرُ من في كفِّه قدحٌ ... تحدو به مُذْهلاتُ النأي والوترُ؟!

كأنني بكم قد صرتم سمراً ... وما لكم في الورى عين ولا أثرُ

أماتكم قبل موتٍ سوءُ فعلكُمُ ... وكيف بالذكر إذ لم تُحْسَن السِّيَرُ؟!

كما ذكر المقري قصيدة لأحد شعراء الأندلس، بيَّن فيها واقع المسلمين آنذاك، وكيف تغير حينما ابتعدوا عن دينهم، وتخلوْا عن أصالتهم وقيمهم التي دخلوا بها، ومما جاء في تلك القصيدة[(٤)]:

---

(١) تاريخ الأندلس، ص ٧٧ - ٧٨.

(٢) البيان المغرب، ج٣، ص ٢١٢.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٤) المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٤٨٤ - ٤٨٦، وهذه القصيدة تبلغ اثنين وسبعين بيتاً، وقد قام الدكتور الطاهر أحمد مكي بتحليلها والتعرف علىٰ هوية قائلها، انظر كتابه: (دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة)، ج ١، ص ٢٢٩.

فإن قلنا العقوبة أدركتهم — وجاءهم من الله النكيرُ
فإنَّا مثلهم وأشد منهم — نجور وكيف يسلم من يجورُ؟!
أنأمن أن يحل بنا انتقام — وفينا الفسق أجمع والفجورُ
وأكل للحرام ولا اضطرار — إليه فيسهل الأمر العسيرُ؟!
ولكن جرأة في عقر دار — كذلك يفعل الكلب العقورُ
يزول الستر عن قوم إذا ما — على العصيان أُرخيت الستورُ

هكذا وصف المؤرخون حالة أولئك القوم، فالبعد عن الالتزام بأحكام الدين ومبادئه أصبح سمة غالبة، لها مظاهرها الواضحة في المجتمع الإسلامي، وقد وصف المراكشي بعض تلك المظاهر بقوله: «وأخذ الله أكثر هؤلاء الرؤساء... بسوء فعلهم... من ظلم المسلمين، وأخذ أموالهم بغير حق، وتغييرهم لنعمهم، وقطعهم لثمارهم»(١).

كما وصف أحد الباحثين المعاصرين ذلك الوضع حينما قال: «انتشر الربا بين الناس الذين تحايلوا على منع الزكاة، وقاموا باحتكار السلع والمواد الغذائية، حتى يثروا على حساب الغير، كما أثرى غيرهم من الحكام، وجرَّهم هذا إلى إتقان تزييف العملة...، أما الرشوة وأكل أموال اليتامى، والتجسس، والجبن، والجهل، والكذب، وغش الأطعمة والأغذية، وانتشار السرقات، واللصوصية، وغير ذلك من الرذائل، والعيوب الاجتماعية، فقد انتشرت بين الناس انتشاراً واسعاً حتى قال بعض المعاصرين إن تلك الحال لايصلحها إلا نبي»(٢).

وبالإضافة إلى ما سبق؛ فقد انعكس هذا الضعف في التمسك بمبادئ الدين

(١) البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٣٠.
(٢) رجب محمد عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية، وملوك الطوائف، ص ٣٠١.

وأحكامه على واقع المجتمع الإسلامي هناك؛ حيث أدى غياب الوازع الديني من النفوس ـ حكاماً ومحكومين ـ إلى حدوث خلل عام، بدت صوره ومظاهره واضحة للعيان، ولعل من أهمها: سوء علاقات ملوك الطوائف بمن ولاّهم الله أمرهم من المسلمين؛ حيث كانت تلك العلاقة تقوم في الأعم الغالب على التسلط والقهر، والظلم، والاستعلاء(١)، كما كانوا مطلقي الأيدي مستبدين متساهلين في سفك الدماء، يثقلون كواهل رعاياهم بجمع الأموال والضرائب منهم؛ لإنفاقها على مصالحهم الذاتية، أو لدفعها للنصارى إتاوة كي يضمنوا بقاءهم في الحكم(٢).

ولو حاولنا استقصاء هذا الأمر لطال بنا المقام، ولكن نكتفي بذكر نماذج من ظلمهم لرعاياهم، ومن أهمها: ما فعله المعتضد بالله العبادي (٤٦١ ـ ٤٨٤ هـ / ١٠٦٨ ـ ١٠٩١م)، فقد ذكر المراكشي أنه قتل ابنه إسماعيل، كما اغتصب مال رجل أعمى، ثم قتله بعد ذلك، وقتل رجلاً من المؤذنين من أهل إشبيلية فر منه إلى طليطلة(٣).

على هذا النحو كانت سيرة المعتضد ابن عباد ومنهجه في التعامل مع الناس، وهي ـ بلا شك ـ أخلاق وتصرفات بعيدة كل البعد عن المنهج الإسلامي الذي يأمر بالقسط والعدل والإحسان والرحمة؛ ولهذا وصف المراكشي تعامله مع وزرائه

---

(١) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي في عصر ملوك الطوائف المرابطين، ص ١٧.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٧١ ـ ١٧٢، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٧٧.

(٣) انظر في تفصيلات هذه الحوادث: المراكشي، المعجب، ص ١٤١ ـ ١٤٥، ولقد غدا ظلم ملوك الطوائف وقسوتهم في فرض الضرائب، ونهب أموال الناس مادة أدبية حتى في كتابات النصارى، انظر على سبيل المثال: ما ورد عن ابن عباد ووزيره ابن عمار في:
Sanchez Alfornoz: Ibn Ammar de Seuilla Buenas Aris 1955.

المقربين إليه بأنه تعامل جائر؛ حيث قال: «لم يزل في قطع هؤلاء الوزراء واحداً واحداً، فمنهم من قتله صبراً، ومنهم من نفاه عن البلاد، ومنهم من أماته خمولاً وفقراً»[١]، كما لم يسلم من أذاه المخلصون له الناصحون للمسلمين الذين أهمَّهم وضع إخوانهم المسلمين بالأندلس في ذلك العصر، ومن هؤلاء العالم أبو حفص عمر الهوزني[٢] الذي دعاه إلىٰ الإصلاح، وجهاد العدو النصراني، وإلىٰ الوحدة بين مسلمي الأندلس في ذلك الوقت؛ إذ كان يقوم بهذا العمل بواسطة رسائله وقصائده التي يوجهها للناس، عامتهم وخاصتهم، يدعوهم فيها إلىٰ الجهاد، وإصلاح الواقع، ومما قاله في هذا الغرض تلك الرسالة التي وجهها إلىٰ المعتضد ابن عباد وجاء فيها:

«أَعَبادُ جلَّ الرزءُ والقومُ هُجّع — على حالةٍ من مثلها يُتوقَّع

فلق كتابي من فراغك ساعةً — وإن طال فالموصوفُ للطول موضّح

إذا لم أبثَّ الداء ربَّ دوائه — أضَعْتُ وأهلٌ للملامِ المضيّع

وكتابي عن حالة يشيبُ لشهودها مَفرِقُ الوليد... فانتهز فرصتها فقد بان

(١) المعجب، ص ١٤١.

(٢) هو أبو حفص عمر بن حسن الهوزني، ولد سنة ٣٩٢ هـ، وقد اهتم بطلب العلم منذ صغره، ولهذا عُدَّ من علماء الأندلس ومحدثيها، عاش في أول أمره بمدينة إشبيلية بجوار صديقه المعتضد ابن عباد، فلما آلت السلطة إلىٰ المعتضد، تنكر له، وأعرض عنه، فاستأذنه الهوزني بالتوجه إلىٰ المشرق سنة ٤٤٠ هـ، فأذن له، وفي بلاد المشرق تنقل الهوزني بين مصر ومكة لطلب العلم، ثم رجع إلىٰ الأندلس حيث سكن مرسية، وقد اهتم الهوزني بواقع المسلمين في الأندلس، وهذا ما دفعه إلىٰ محاولة الإصلاح، وكان آخر محاولاته تلك الرسالة التي بعث بها إلىٰ المعتضد، وبالرغم من تقبل المعتضد الظاهري لها فإنه دعاه إلىٰ الرجوع إلىٰ إشبيلية، فلما كان يوم الجمعة لإحدىٰ عشرة ليلة لربيع الأول من سنة ستين... أمر خادمين من فتيانه بقتله، فكلاهما أشفق من سوء فعله، فقام إليه هو بنفسه وباشر قتله بيده، كما يقول ابن بسام، (ابن بشكوال، الصلة، ج ٢، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣، ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص٨٣، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٥٣٤، المقري، نفح الطيب، ج ٢، ص ٩٣).

من غيرك العجز»[١].

كانت هذه نماذج من الرسالة الطويلة التي وجهها الهوزني إلى المعتضد ابن عباد، وهي - بحق - رسالة صادقة تدل على إخلاص الهوزني، واهتمامه بأمر المسلمين، وإصلاح واقعهم؛ فماذا كان موقف ابن عباد منها؟

يذكر المؤرخون أن موقف المعتضد من تلك الرسالة كان سيئاً فما أن تلقاها حتى أرسل إلى الهوزني يستدعيه للقدوم إلى إشبيلية، فما أن وصل إليها واستقر بها سنة ٤٥٨ هـ حتى بدأ المعتضد يسعى للقضاء عليه فتمكّن من قتله سنة ٤٦٠ هـ[٢]، وهكذا كان موقف المعتضد من تلك الدعوة الإصلاحية، وهو - بلا شك - موقف مشين، يدل دلالة واضحة على خبث الطوية وضيق الأفق عند ملوك الطوائف، وأنهم كانوا يسعون لمصالحهم الذاتية دون مصلحة المسلمين، وهذا ما جعل ابن عباد يعدُّ دعوة الهوزني له بالرجوع إلى الكتاب والسنَّة وتحكيمهما، وكذا الرجوع بالأمة إلى ماضيها الحميد - وهو جهاد العدو - جريمة يستحق فاعلها القتل؛ ولهذا استحل دمه! وقد «أفاضت كتب التاريخ في وصف حديقة الرؤوس المحنطة التي أودعها هام الملوك والرؤساء الذين أبادهم بسيفه»[٣].

هكذا كان منهج المعتضد ابن عباد في التعامل مع الرعية، ومما لا شك فيه أن هذه التصرفات لم تنشأ من فراغ، بل كانت نتيجة طبيعية للبعد عن منهج الله، وتحكيمه في كل شؤون الحياة، ولهذا وصفه ابن بسام بأنه «قطب رحى الفتنة ومنتهى غاية المحنة»[٤]؛ إذ كان لا يتورع عن أي وسيلة «لتحقيق غاياته، مهما

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٨٣-٨٦.
(٢) انظر في تفصيلات هذه الحادثة كلاً من ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٨٣-٨٧، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٥٣٤-٥٣٥، المقري، نفح الطيب، ج ٢، ص ٩٣-٩٤.
(٣) سعيد إعراب، مع القاضي أبي بكر ابن العربي، ص ١٠-١١.
(٤) الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٢٤.

كانت مجافية لمبادئ الأخلاق والشهامة»[١].

ولم يكن هذا السلوك خاصاً بالمعتضد بالله، أو بدولة بني عباد، بل كان مستشرياً بين معظم ملوك الطوائف، ولم تسلم منه دولة بني جهور التي وُصف مؤسسها أبو حزم جهور بن محمد بن جهور (٤٢٢ ـ ٤٦١ هـ) بأنه كان جارياً على طريقة الصالحين[٢]، وأنه كان من رجال الدهر حزماً وعزماً ودهاء ورأياً[٣]، كما وصفه ابن حيان بأنه كان «حَلِس كتاب منذ درج، ونجيّ نظر منذ فهم، شاهداً للجماعة في مسجده، خليفة الأئمة متى تخلفوا عنه، حافظاً لكتاب الله، قائماً به في سره وجهره، منتفياً للتلاوة، لم يعثر له قط على حال يدل على ريبة»[٤]؛ فقد كان هذا السلوك خاصاً بصاحبه أبي الحزم، حيث يذكر المؤرخون أن هذا المنهج قد تغير، ولا سيما في عهد حفيده عبد الملك بن محمد بن جهور (٤٥٨ ـ ٤٦٢ هـ) الذي كانت بطانته من السفلة وسقاط الناس الذين تسلطوا على الرعية بالأذى حتى ضجرت من جوره وتعديه هو وحاشيته، فثار الناس ضده فخلعوه وأقاموا ابن عباد مكانه[٥]، وهكذا سقطت دولة بني جهور نتيجة للضعف الذي انتابها حينما تخلى حكامها عن ترسُّم الخط الإسلامي، ووقعوا أسرى لشهواتهم وملذاتهم.

وقد كان حكم دولة بني هود كسابقيهم في عدم الالتزام بتعاليم الدين، فمؤسس هذه الدولة سليمان بن محمد بن هود أقام دولته حين عمَّت الفتنة بلاد

---

(١) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٣٨٩.
(٢) المراكشي، المعجب، ص ٩١.
(٣) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج ٣، ص ١٨٣.
(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٠٣، (نقلاً عن ابن حيان).
(٥) انظر في تفصيلات هذه الأحداث: ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٥٩، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٤٩.

الأندلس بعد أن قتل والي مدينة لاردة[١] واسمه أبو المطرّف يحيىٰ بن المنذر التجيبي[٢].

أما ابنه أحمد بن سليمان فقد تمادىٰ في الظلم حيث كمن لقافلة أرسلها أخوه يوسف والي مدينة لاردة نجدةً لأهل مدينة تطيلة[٣] التي أصابها غلاء شديد، فاستغاثوا بيوسف الذي أهمه أمرهم؛ فدعا أهل الحواضر والثغور لمساعدتهم بالمير والأرزاق، فاجتمع إليه طعام كثير، فهمَّ في توصيله إليهم، وانتدب لهذه المهمة بضعة آلاف من الجند؛ معهم عدد من الخيل والدواب، لكن أخاه أحمد كمن لهم في الطريق فلم ينج منهم إلا اليسير[٤].

كما يذكر ابن عذارىٰ أن أحمد بن هود أثقل كواهل رعيته بجمع الإتاوات والضرائب فاضطر أهل إحدىٰ القرىٰ إلىٰ الشكوىٰ إلىٰ أحد العابدين المعروفين بالخير والصلاح؛ حيث «أعلموه بما يجب عليهم من مال الجزية[٥]، فقال لهم: معاذ الله! هذا لا يكون وأنا حي في الدنيا أبداً، ثم ركب ومعه جماعة من أهل القرية، حتىٰ وصل سرقسطة، فدخل علىٰ المقتدر، ووعظه بما جاء في الشرع، فاغتاظ ابن هود لقوله وقال في نفسه: احتقَرَنا هذا حتىٰ خاطبنا بمثل هذه

---

(١) (لاردة) تقع في ثغر الأندلس الشرقي، وهي مدينة قديمة بنيت علىٰ نهر يخرج من أرض حليقة يعرف بنهر شيقر، وهي خصبة التربة، وتشتهر بكتانها الجيد. (الحميري، الروض المعطار، ص ٥٠٧).

(٢) ابن عذارىٰ: البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢١، ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٣٥١.

(٣) (تطيلة): مدينة أندلسية تقع شرق مدينة سرقسطة، وتتبعها عدة مدن وقرىٰ من أهمها مدينة طرسونة. (البكري: جغرافية الأندلس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، ص ٩٠-٩١، ابن غالب: فرحة الأنفس، ص ١٨، الحميري، الروض المعطار، ص ١٣٢ - ١٣٣).

(٤) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٣، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٧٣.

(٥) «الجزية» هكذا ورد عند ابن عذارىٰ، والتزاماً بالأمانة العلمية أبقيتها كما جاءت، علماً بأن لي تحفظاً علىٰ إطلاق هذا المصطلح علىٰ المسلمين؛ لأنه إنما يطلق علىٰ ما يدفعه أهل الكتاب للمسلمين مقابل حمايتهم، وهذا هو مدلوله الشرعي.

المخاطبة، فإن تركناه ولم نعاقبه تجاسر علينا غيره. فأمر بقتله، فقُتل هذا الرجل الصالح ـ رحمه الله ـ، واستمرت الجزية على سائر مدن الثغر وأعماله»[(١)].

ولم يقتصر ظلم أحمد بن هود على الرعية وعامة الناس، بل تجاوزهم إلى المقربين من أهل بيته، حيث يذكر المؤرخون أن سليمان بن هود قبيل وفاته سنة ٤٣٨ هـ قسم أعمال مملكة الثغر الأعلى التي كان يحكمها على أولاده الخمسة؛ حيث أعطى أحمد سرقسطة، ويوسف لاردة ولب ووشقة، والمنذر تطيلة، ومحمداً قلعة أيوب، وقد حاول ابنه أحمد أن ينتزع ما في أيدي إخوانه ويضمه إلى حوزته، فتمكن من ذلك ما عدا لاردة التي كانت لأخيه يوسف، فقد وقف في وجهه[(٢)]، ويضيف ابن عذارى أن أحمد لم يكتف بهذا العمل المشين، بل إنه احتال على إخوانه فسجنهم وكحل بالنار بعضهم[(٣)].

كانت هذه صوراً لبعض مظاهر الظلم الذي وقع في دولة بني هود في منطقة الثغر الأعلى الأندلسي، وهي ـ بلا شك ـ تدل دلالة واضحة على أن من زاولها أو رضي بها كان بعيداً عن المنهج الإسلامي، وغير مهتمٍّ بأحكام الدين ومُثله السامية.

أما دولة بني حمود، فلم يكن حكامها بأحسن من سابقيهم في تطبيق تعاليم الدين، والسير على منهجه، وقد بدا هذا الأمر واضحاً في كثير من شؤون

---

(١) البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٩، وقد ذكر ابن عذارى أن ذلك الرجل قد دعا عليه فرماه الله بعلّة في جسده أذهبت حسه وعقله، فما مات حتى كان ينبح نبح الكلاب، نعوذ بالله من سوء العاقبة. (البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٩).

(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٤٢٣، ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ٢٤٧، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٧١، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٢.

(٣) البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٢.

حياتهم، ولعل من أوضحها تلك النزعة العنصرية التي بدت واضحة عندهم حيث ميّزوا في تعاملهم مع الرعية بين جنس وآخر، كما والوا بعضهم على حساب الآخرين، وهذا التصرف يُعدُّ في نظر الإسلام من أخلاق الجاهلية، وتصرفات الظالمين، ومما يذكر في هذا ما قاله ابن عذارى عن علي بن حمود لما صار الأمر إليه؛ فقد «قهر البرابرة، حتى صار أقل الرعية يرفع أعيانهم إلى الحكام بما شاء من وجوه الدعاوى فيجري عليهم الأحكام، . . . وضرب عنق أحد البرابرة على حمل عنب قال أخذته كما يأخذ الناس»[(١)].

وكان هذا التصرف في نظر المؤرخين لصالح العنصر العربي، ولكنه ما لبث أن قلب للعرب ظهر المِجنّ، حينما أحس أن مصالحه في خطر، وأن البربر أصبحوا أكثر ثقلاً من العرب؛ ولهذا صبّ عليهم ضروباً من المغارم، كما جردهم من سلاحهم، «وأُخذت على الناس الأقطار، وأظلمت الدنيا، وأبلس أهلها، وغشيهم من الله ما غشيهم، فلزموا البيوت، وانطمروا في بطون الأرض، حتى قلَّ بالنهار ظهورهم، وخلت أسواقهم، فإذا دنا المساء وكف الطلب عنهم انكشفوا إلى وقت الظلام لقضاء حاجتهم»[(٢)].

ولم يقتصر ظلم هذا الرجل على الأحياء بل تجاوزهم إلى الأموات حيث كان يمثِّل برؤوس قتلاه[(٣)]، كما ذكر المقري أنه قد أخذ الناس بالإرهاب، والسطوة، كما كان بعيداً عن الفضائل[(٤)].

ويذكر ابن عذارى أن يحيى بن علي بن حمود الذي تولى الأمر بعد أبيه

(١، ٢) البيان المغرب، ج ٣، ص ١٢١.
(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٢١.
(٤) نفح الطيب، ج ١، ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣، وقد تولى الحكم مرة ثانية من (٤١٦ هـ) إلى (٤٢٧ هـ).

(٤٠٨ ـ ٤١٣ هـ) كان العجب والكبر من أهم صفاته[١]، كما كان متساهلاً في سفك الدماء، ومن أهم ما يذكر في هذا المجال، أنه حاصر عمه القاسم بن حمود في شريش، ثم أخذه أسيراً عنده مع بنيه، وسجنهم، ثم قتل عمه خنقاً[٢]، وكان يحيىٰ بن علي معاقراً للخمر، مدمناً علىٰ اللهو مما أشغله عن الرعية، ومكّن الخصوم منه[٣]؛ حيث كان يخرج للقاء العدو وهو سكران[٤].

ويذكر ابن حيان أن محمد بن إدريس الحمودي (٤٣٨ ـ ٤٤٤ هـ) من زعماء دولة بني حمود المتأخرين، كان سفاكاً للدماء؛ حيث أطلق يده في قتل البربر الأمر الذي دفع أمراء القبائل إلىٰ العمل علىٰ التخلص منه حيث سمُّوه فمات[٥].

أما إدريس بن يحيىٰ (٤٤٤ هـ) المتسمّىٰ بـ(السامي) فكان لا يصحب ولا يُؤثر إلا كل ساقط، كما كان لا يحجب حرمه عنهم[٦].

هكذا كانت حالة أولئك القوم، فقد ابتعد حكامهم في كثير من تصرفاتهم عن أخلاقيات الإسلام وتعاليمه، حتىٰ عمت الفوضىٰ وزادت الفرقة، وتأصل حب الذات[٧]، كما اشتهر بعضهم بالكبرياء، وحب المدح، والتعالي علىٰ الناس، وفي هذا يقول المقري: «وكان بنو حمود. . . إذا حضرهم منشد لمدح،

(١) البيان المغرب، ج ٣، ص ١٣٢.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٤.
(٣) انظر في تفصيلات ذلك: ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٨ ـ ١٨٩.
(٤) المراكشي، المعجب، ص ٨٢.
(٥) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢١٨، (نقلاً عن ابن حيان).
(٦) المراكشي، المعجب، ص ٩٩.
(٧) مما يدل علىٰ حب الذات تنافسهم علىٰ السلطة والسلطان، حتىٰ تقاتلوا من أجلها فمات الكثير من زعمائهم بسبب هذا التناحر، (انظر في تفصيلات ذلك: المراكشي، المعجب، ص ٧٧، ٨٠، ٩٦، ١٠٣).

أو من يحتاج إلىٰ الكلام بين أيديهم يتكلم من وراء حجاب، والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة»[١].

وقد سارت علىٰ ذلك النهج دولة بني خزرون (٤٠٢ ـ ٤٦١ هـ)؛ حيث كان مؤسسها أبو عبد الله محمد بن خزرون بن عبدون الخزري (٤٠٢ ـ ٤٢٠ هـ) فتاكاً هتاكاً قتالاً سفاكاً، كما كان ابنه القائم (٤٢٠ ـ ٤٦١ هـ) جائراً حادقاً»[٢].

وقد ذكر ابن عذارىٰ أن هذا الظلم، كان سبباً قوياً من أسباب سقوط دولتهم، حينما حاصرهم المعتضد ابن عباد؛ حيث تخلىٰ عنه أصحابه فافتض ملكه، وعجل هلاكه، وذلك سنة إحدىٰ وستين وأربعمائة[٣].

كما ذكر ابن حيان أن عبد الملك بن عبد العزيز بن الناصر بن عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر صاحب شاطبة كان «منهمكاً في الشراب، عارياً عن الخصال المحمودة، مع رقة الديانة، ونقص المروءة، وكثرة الاستهمال، والانحطاط في مهاوي اللذات، لا يصغي لوعظ واعظ، ولا يقبل نصح ناصح، أداه ذلك إلىٰ خلعه وزوال ملكه»[٤].

---

(١) نفح الطيب، ج ١، ص ٢١٤، ومما يذكر في هذا المجال، ما ذكره المؤرخون أن أبا زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني، أحد شعراء الأندلس المشهورين، حضر يوماً أمام حاجب إدريس بن يحيىٰ الحمودي، وأنشده قصيدته النونية المشهورة، والتي منها:

وكأن الشمس لما أشرقت ... فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه إدريس بن يحيىٰ بن علي ... بن حمود أمير المؤمنين

فلما بلغ منها قوله:

انظرونا نقتبس من نوركم ... إنه من نور رب العالمين

رفع إدريس الستر بنفسه وقال: انظر كيف شئت. (ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ٤، ص ٧٩٣، المراكشي، المعجب، ص ٩٩، المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٢١٤).

(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٩٤.

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٩٤.

(٤) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٣٠٣، (نقلاً عن ابن حيان).

أما عبد الملك بن هذيل (٤٣٦ ـ ٤٩٦ هـ) فقد وصفه ابن حيان بأنه سيئة الدهر، وعار العصر، جاهلاً لا متجاهلاً، وخاملاً لا متخاملاً، قليل النباهة، شديد الإعجاب بنفسه(١).

وقد انتقد ابن عذارىٰ الفتح بن خاقان حينما أثنىٰ عليه في كتابه: (قلائد العقيان)؛ قال ابن عذارىٰ: «فأثنىٰ عليه بما ليس فيه من المحاسن، ووصفه بصفات ليس هو بأهل لها»(٢).

وحينما توفي، خلفه ابنه حسام الدولة يحيىٰ بن عبد الملك (٤٩٦ ـ ٤٩٧ هـ)، وقد سلك مسلك أبيه؛ فأساء معاملة الناس، كما كان مدمناً علىٰ الخمر، ضعيف العقل، وهذا مما عجل بنهايته وأدىٰ إلىٰ خذلانه(٣).

أما باديس بن هلال بن أبي قرة الذي بايعه أهل رُندة حينما أسر المعتضدُ ابن عباد والدَ هلال وأودعه السجن؛ فقد كان فاسقاً مجرماً، سام الناس سوء العذاب ونهب أموالهم، كما اعتدىٰ علىٰ أعراض نسائهم وبناتهم حيث أباح لرجاله الحرم، فكانوا يأخذون النساء من أزواجهن، والبنات من آبائهن(٤).

وكان بنو ذي النون حكَّام طليطلة كسابقيهم في السير حسب أهوائهم دون وازع ديني أو خُلقي، حيث لجوا في الفتنة، وجنحوا إلىٰ خذلان المسلمين في الأوقات الصعبة والساعات الحرجة(٥)، فإن يحيىٰ بن إسماعيل بن ذي

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٣٠٩، (نقلاً عن ابن حيان).
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣١٠.
(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣١٠ ـ ٣١١، وقد استدل ابن عذارىٰ علىٰ ضعف عقله أنه أهدىٰ إليه أحد ملوك النصارىٰ قرداً، فكان يفخر بذلك القرد علىٰ أقرانه من ملوك الطوائف. (البيان المغرب، ج ٣، ص ٣١١).
(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣١٣.
(٥) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٧٨.

النون (٤٢٩ ـ ٤٦٧ هـ) «ذهب به الطمع الخائب كل مذهب، وغره الأمل، واتبع الباطل»[١].

حتىٰ بنو الأفطس الذين وُصفوا بالشهامة والشجاعة والاهتمام بالقضايا العلمية[٢]، لم يتخلصوا من هذا الضعف؛ إذ كان محمد المظفر بن الأفطس (٤٣٧ ـ ٤٦٠ هـ) من المتهمين باقتناء الوصائف الملهيات، حيث كان يسعىٰ لجلبهن مهما كانت قيمتهن، حتىٰ اشتهر بين الناس بالبطالة والانشغال بهن علىٰ الرغم من كون الأعداء والخصوم يحيطون به من كل جهة[٣].

ومن صور ضعف الالتزام بمبادئ الدين: الخلاعة والمجون الذي استشرىٰ بين ملوك الطوائف حتىٰ أصبح خلقاً مألوفاً عند الكثيرين، وهو ـ بلا شك ـ معول هدم ونذير نهاية؛ يقول ابن خلدون: «إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة، حملهم علىٰ ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل، وسلوك طريقها، وهذا ما حدث في الأندلس وأدىٰ فيما أدىٰ إلىٰ ضياعه»[٤].

هكذا كانت حالة أولئك القوم، فقد تخلىٰ الكثير منهم عن تعاليم دينه التي حكم بها أسلافُهم الأندلس؛ حيث صغرت في نفوسهم تلك المبادئ فقلّ اهتمامهم بها، وقد أدرك هذا التقصير ملوك الطوائف أنفسهم؛ فقد اعترف بعضهم بأن ما حل بهم من ضعف وفرقة وتنازع إنما كان بسبب عدم تمسكهم

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٧٩.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٨٥، عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٣٣.

(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٤) المقدمة، ج ٢، ص ٤٤٦. وسوف نفصّل القول في هذا الموضوع ـ إن شاء الله ـ في نهاية الفصل الثاني من هذا الكتاب.

بتعاليم الدين، وممن اعترف بهذا صراحة المتوكل ابن الأفطس (٤٦٠ ـ ٤٨٧ هـ) في رسالته التي بعث بها إلىٰ ملك قشتالة ألفونسو السادس (٤٦٥ ـ ٥٠٢ هـ/ ١٠٧٢ ـ ١١٠٩م)، ومما جاء فيها: «أما تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم؛ فبالذنوب المركوبة»[١].

كما أقر بهذا الأمر المعتمد ابن عباد (٤٦١ ـ ٤٨٤ هـ) في الرسالة التي أرسلها للملك القشتالي، وجاء فيها: «ومتىٰ كانت لأسلافك الأقدمين مع أسلافنا الأكرمين يد صاعدة أو وقفة متساعدة إلا ذلاً تعلم مقداره، وتتحقق مناره، والذي جرَّأك علىٰ طلب ما لا تدركه قوم كالحمر، لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرىٰ محصنة أو من وراء جدر، ظنوا المعاقل تعقل، والدول لا تنتقل، وكان بيننا وبينك من المسالمة ما أوجب القعود عن نصرتهم وتدبير أمرهم، ونسأل الله ـ سبحانه ـ المغفرة فيما أتيناه في أنفسنا وفيهم من ترك الحزم وإسلامهم لأعدائهم، والحمد لله الذي جعل عقوبتنا توبيخك وتقريعك»[٢].

وقد تنّبه لهذا الأمر الشعراء والكتَّاب، فبيّنوا أن حقيقة ما أصابهم إنما كان بسبب بعدهم عن منهج الله سبحانه وتعالىٰ، وفي هذا يقول ابن العسال[٣]:

ولقد رمانا المشركون بِأَسْهُمٍ ... لم تُخط لكن شأنها الإصماءُ

هتكوا بخيلهم قصور حريمها ... لم يبق لا جبل ولا بطحاءُ

ماتت قلوب المسلمين برعبهم ... فحُماتنا في حربهم جبناءُ

---

(١) مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، (تحقيق سهيل زكار، وعبد القادر زمامة)، ص ٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٤١.

(٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٩٠ ـ ٩١.

لولا ذنوب المسلمين وأنهم ركبوا الكبائر ما لهن خفاءُ
ما كان يُنصر للنصارى فارس أبداً عليهم فالذنوب الداءُ
فشرارها لا يختفون بشرهم وصلاح مُنْتَحلي الصلاح رياءُ

وقد أدرك هذا الأمر العدو النصراني المتربص؛ إذ قال أحد قادتهم: «إن القوم لا دين لهم، ولا شجاعة، ولا عقول معهم»(١).

إن هذا الواقع قد تمخض عنه الفساد، وكثرة الضغائن والأحقاد عند الناس جميعهم، فضلاً عن ملوك الطوائف، وهذا مما أثر في واقع حياة الناس(٢)، وقد وصف ابن حيان سنوات الفتنة في عصر ملوك الطوائف بأنها كانت «شداداً نكدات، صعاباً مشؤومات، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى والخاتمة، لم يعدم فيها حيف، ولا فورق فيها خوف، ولا تم سرور، ولا فقد محذور، مع تغير السيرة وخرق الهيبة، واشتعال الفتنة، واعتلاء العصبية، وظعن الأمن، وحلول المخافة»(٣).

وبعد هذا العرض السريع، فإنه بوسعنا أن نقول: إن ضعف الالتزام بمبادئ الدين وتعاليمه، عند كثير من المسلمين «حكاماً ومحكومين» في عصر ملوك الطوائف، كان من العوامل القوية والمباشرة التي أدت إلى ضعف المسلمين هناك، ويتأكد هذا الأمر إذا تذكرنا أن المسلمين لم يدخلوا تلك الديار ولم يحكموها وهم أقوياء أعزاء إلا حينما كان شرع الله مهيمناً عليهم، ومحكماً في كل شؤون حياتهم.

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٩٠.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٩٥.
(٣) المصدر السابق، ق ١، ج ١، ص ٣٦.

وقد أدرك هذا الأمر النصارىٰ قديماً وحديثاً؛ قال أحد قادة لذريق حينما وصف الجيش الإسلامي الفاتح: «إنه نزل بأرضنا قوم لا ندري أَمِنَ السماء نزلوا، أم من الأرض خرجوا؟!»(١)، وهذه المقولة تدل ـ بلا شك ـ علىٰ أن المسلمين كانوا ملتزمين بتعاليم الدين؛ مما جعلهم يتمتعون بروح معنوية عالية جعلت العدو النصراني يشك في حقيقتهم، والحق ما شهدت به الأعداء!

أما المحدثون من النصارىٰ، فقد أكثروا الحديث عن قوة المسلمين في بلاد الأندلس، وربطوا ذلك ـ قوة وضعفاً ـ بقرب المسلمين أو بعدهم عن منهج الله، ولعل مقولة كوندي تغنينا عن بسط القول حيث يقول: «العرب هوَوْا من بلاد الأندلس حينما نسوا فضائلهم التي دخلوا بها، وأصبحوا علىٰ قلب متقلب يميل إلىٰ الخفة والاسترسال في الشهوات»(٢).

ثانياً: انعدام الوحدة السياسية بين مسلمي الأندلس:

حينما دخل المسلمون بلاد الأندلس في سنة (٩٢ هـ/ ٧١١ م) كانوا يهدفون إلىٰ فتح تلك الديار ونشر دين الله فيها، ثم ضمها إلىٰ الدولة الإسلامية؛ لتكون إحدىٰ ولاياتها، وقد تم لهم ذلك؛ فأصبحت بلاد الأندلس مع بلاد المغرب تمثل الجناح الغربي للدولة الإسلامية الكبرىٰ.

وبعد سقوط الدولة الأموية بالمشرق، وضعف قبضة الخلافة العباسية علىٰ بلاد الأندلس، استطاع عبد الرحمن الداخل (١٣٨ ـ ١٧٢ هـ) أن يفرّ من المشرق ويقيم دولة مستقلة عن الخلافة في تلك البلاد، ومع مضي الزمن أحكم الأمويون

(١) ابن هذيل، تحفة الأنفس، ص ٧٠، المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٢٤٠، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٢، ص ٨.
(٢) شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، ص ١٢٢.

في بلاد الأندلس قبضتهم على تلك البلاد؛ إذ أخضعوها لحكم دولة واحدة زهاء قرنين ونصف، وفي آخر عمر تلك الدولة ومع نهاية القرن الرابع الهجري اعتراها الضعف - سنَّة الله في خلقه -؛ حيث بدأ بعض قادتها وولاتها يعلنون استقلالهم فيما يحكمون من بلاد.

وحينما تردّت الحالة السياسية في بلاد الأندلس، وعجزت دولة بني أمية عن السيطرة على الوضع هناك أُعلن في ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ إلغاء الخلافة الأموية، وقيام دولة بني جهور مكانها؛ لتحكم مدينة قرطبة وما حولها[١]، أما بقية أجزاء بلاد الأندلس فقد قامت فيها دول أخرى.

هكذا انفرط عقد الوحدة بين مسلمي الأندلس، فبعد أن كانوا يخضعون لمظلة دولة إسلامية واحدة، وكيان سياسي موحّد، تمتد من نهر دويرة شمالاً إلى مضيق جبل طارق جنوباً، ومن البحر المتوسط شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، تناثر هذا الكيان إلى أشلاء ممزقة، ورقاع متناثرة[٢]، وقد بلغت في مجموعها ستاً وعشرين دولة[٣]، وفي هذا يقول المراكشي: «وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بني أمية: إن أهلها تفرقوا فرقاً، وتغلب في كل جهة منها متغلب، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه، وتقسموا ألقاب الخلافة، فمنهم من تسمَّى بالمعتضد، وبعضهم تسمَّى بالمأمون، وآخر تسمَّى بالمستعين، والمقتدر، والمعتصم، والمعتمد، والمتوكل»[٤].

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٦، ج ٢، ص ٦٠٢.
(٢) محمد عبد الله عنان، الدولة العامرية، ص ١٨٦، عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي، ص ٢٣.
(٣) رجب عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، ص ٢٧٢.
(٤) المعجب، ص ١٠٥.

وكانت النزعة الاستقلالية قد تأصلت في نفوس أولئك القوم، يقول ابن حيان عن إسماعيل بن ذي النون: «وهو كان فرط الملوك في إيثار الفرقة، فاقتدىٰ به مَنْ بعده، وأمّوا في الخلافة نهجه؛ فصار جرثومة النفاق، ومنه تفجر ينبوع الفتن والمحن»[١].

وقد كان لهذه الدول ثلاثة اتجاهات عصبية هي البربر في الجزء الجنوبي، والصقالبة في شرق الأندلس، أما باقي الأندلس فكان تحت حكم العرب[٢]، وبالرغم من ضعف هذه الكيانات فلم تكن متعاونة مع بعضها، أو ساعية لتحقيق مصلحة المسلمين، بل كانت المنافسة والأطماع الشخصية هي السمَة المميزة في علاقاتها فيما بينها، وقد صور ابن الخطيب تلك الحالة بقوله: «وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد، والتنافس، والغيرة، ما لم يجعله بين الضرائر المترفات، والعشائر المتغايرات، فلم تتصل لهم في الله يد ولا نشأ علىٰ التعاضد عزم، ولا توجه إلىٰ الاستكثار قصد»[٣].

كما قال عنهم ابن أبي دينار: «إنما أهلكهم التحاسد، واختلاف الكلمة»[٤] أما ابن حزم، فقد عدَّ واقعهم بأنه من الفضائح التي لم يسبق مثلها، والتي دلَّت علىٰ ضعف دولة المسلمين هناك[٥].

وهكذا تبدو لنا معالم سياسة ملوك الطوائف الداخلية والخارجية علىٰ حد

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١١٠ ـ ١١١، (نقلاً عن ابن حيان).
(٢) انظر في تفصيلات ذلك: محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٤٦ ـ ٤٦٤، أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٨٩ ـ ٩٦، لين بول، الدول الإسلامية، القسم الأول، ص ٦٢ ـ ٧٤.
(٣) أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٤٤.
(٤) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص ١٠١.
(٥) نقط العروس، ص ٨٣ ـ ٨٤.

سواء؛ حيث لم تسترشد النهج الإسلامي الذي يقوم على رفع شأن الإسلام والمسلمين، ومقاومة الخطر النصراني، بل أصبح وأضحى جلُّ اهتمامهم بالأمور الثانوية التي تتنافى مع الهدف السامي الذي دخل من أجله المسلمون الأندلس[١].

وقد اصطلح المؤرخون على تسمية هذا العصر بـ (عصر ملوك الطوائف[٢] أو عصر الفتنة[٣]، أو الفرق[٤])، كما أطلقوا على مؤسسي هذه الكيانات لقب: (زعماء الفتنة[٥]، أو أمراء الفرقة الهمل[٦]).

أما ملوك الطوائف فكما اقتسموا أراضي الدولة الأموية، فقد أعلنوا استقلالهم عن أي سلطة، وكان شعارهم: «أحق الناس بالملك من استقل به، والله ما أولي غير نفسي، ولا أقوم إلا بسلطاني . . .، والله لو نازعني سلطاني هذا الصدّيق لقاتلته، ولما سلمت له»[٧].

ولم يكتفوا بذلك بل إنهم اقتسموا ألقاب الخلافة، وتوزعوها فتلقبوا

(١) رجب عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، ص ٢٧٤.

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢١٩، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٢٤.

(٣) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق ٣، ج ١، ص ٢٥، عبد الله بن بلقين، التبيان المعروف بمذكرات الأمير عبد الله، ص ٥٦، ٥٨، ٦٩، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٩٤.

(٤) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٧٨.

(٥) وقد سمَّاهم ابن الخطيب بـ (مقتسمي الملك من بعد الجماعة)، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٢٦، ١٨٣)، كما أن ابن حيان سمَّى إسماعيل الظافر بن ذي النون بـ (رئيس الخلاف ورأس الانحراف، وجمهور الجور والانحراف)، ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٤٢، (نقلاً عن ابن حيان).

(٦) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٥٤.

(٧) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٤٣، ١٤٤، هذا القول منسوب إلى إسماعيل بن ذي النون، وقد ذكر ابن الخطيب أنه لو خرج عليهم عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - لما تنازل له. (أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٤٤).

بـ (الناصر، والمنصور، والمعتمد، والمعتضد)[١]، وقد صور ذلك الواقع الشاعرُ الأندلسي ابن رشيق حينما قال:

مما يُزهدني في أرض أندلس سماعُ مقتدر فيها ومعتضد
ألقابُ مملكة في غير موضعها كالهرِّ يحكي انتفاخاً صولة الأسدِ[٢]

كما تحدث عن واقع أولئك القوم ابن حزم، فقال ـ والأسىٰ والحسرة يملآن فؤاده، بسبب ما حل فيه ـ: «فضيحة لم يقع في العالم إلىٰ يومنا مثلها: أربعة رجال في ثلاثة أيام في مثلها، كلهم يتسمَّىٰ بإمرة أمير المؤمنين، ويخطب لهم فيها في زمن واحد!!»[٣].

وتفرقوا شيعاً فكلُّ قبيلة فيها أميرُ المؤمنين ومنبرُ[٤]

وكانت السمة الغالبة في علاقات ملوك الطوائف فيما بينهم هي العداء المستحكم، والخصام الدائم حول المصالح الذاتية، فالكثير منهم لا همَّ لهم إلا السعي لتحقيق مصلحتهم، وإشباعهم أنانيتهم، وتثبيت أقدامهم في السلطة علىٰ حساب مصلحة المسلمين؛ حيث قامت سياستهم الداخلية علىٰ السعي للتوسع علىٰ حساب القوىٰ المجاورة مهما كانت الوسيلة المؤدية إلىٰ ذلك، سواء أكان

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج ٢، ص ٧٥١، وقد ذكر ابن عذارىٰ أن بعض ملوك الطوائف ذهبوا في انتحال الألقاب إلىٰ ما هو أبعد من ذلك، فقد تسمَّىٰ عبد الملك بن جهور بـ (ذي السيادتين، المنصور بالله، الظافر بفضل الله)، كما تسمَّىٰ أحمد بن جراح صاحب شلب بـ (ملك الملوك قاطع الشكوك)، (البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٥٩ـ ٢٦٠، ٢١٥ـ ٢١٦)، لكنه ذكر أن أفعالهم كانت ضد أقوالهم، (العبر، ج ٤، ص ٤٠)، كما ذكر ابن حيان أن يحيىٰ بن إسماعيل بن ذي النون تلقب بـ (القادر بالله)، وذلك جهلاً منه بحقيقته وتهاوناً بالله وخليقته، (ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج١، ص ١٤٢).

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٤٤، المراكشي، المعجب، ص ١٠٥.

(٣) نقط العروس في تواريخ الخلفاء، ص ٨٣ـ ٨٤.

(٤) عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٣٣.

ذلك بالحرب أم بالخيانة أم بالمؤامرات، أم بغيرها.

وهذا - بلا شك - مما أوقع أولئك في حيرة وقلق؛ حيث يدرك المتتبع لتاريخ ملوك الطوائف ما وقع بينهم من مصادمات حربية امتد بعضها إلىٰ عشرات السنين، ولم يكن هدفها نصرة مظلوم، أو إحقاق حق، أو رد معتد ظالم، بل كانت غايتها الرغبة في توسيع رقعة الأرض ومد ظل الملك والسلطان أو القضاء علىٰ ما يرىٰ من الدول المجاورة لضم أشلائها إلىٰ مملكته، ولقد حرصت دويلات النصارىٰ منذ نشأتها علىٰ إشعال الحرب الأهلية بين المسلمين هناك؛ لأن ذلك يحقّق مصلحة كبيرة لتلك الدويلات[1].

بل ربما كان الهدف دون ذلك وهو السعي لتحقيق المصالح الذاتية ولو علىٰ حساب مصلحة الدين والوطن، وكأن الأندلس إنما وجدت له مهما كان قصير العمر، ذليل المكانة، مهزوز القواعد[2]، ولهذا وقع بين أولئك الملوك والأمراء من التحاسد والتنافس والغيرة ما لا يقع بين الضرائر المترفات؛ حيث لم يتعاونوا علىٰ بر أو تقوىٰ، أو يسعوا لمصلحة إسلامية، بل انصبت كل جهودهم علىٰ توفير ما يخدم مصالحهم الخاصة دون مصلحة المسلمين[3]، وهذا مما أظلم الجو بينهم وبين رعاياهم، كما أوجد فجوة كبيرة بين ذينك الطرفين.

كأنَّ بلادَهم كانت نساءً تطالبُها الضرائرُ بالطلاقِ[4]

وقد وُصف أحدهم بأنه جرثومة النفاق، وأول من استن سنة العصيان والشقاق، ومنه تفجر ينبوع الفتن والمحن[5].

(1) Menedez Pidal: Historia de Espania: Tomo IV Madrid ,1957,pp191.

(٢) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٣٢.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٤٤.

(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ٣، ص ٨٢١، المقري، نفح الطيب، ج ٣، ص ٤١٥.

(٥) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٤٣.

وقد قال ابن حزم عنهم: «إن كل مدبّر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها، محارب للـه ـ تعالىٰ ـ ورسوله، وساع في الأرض بالفساد؛ للذي ترونه عياناً، في شنهم الغارات علىٰ أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق علىٰ الجهة التي يقضون علىٰ أهلها، ضاربون للمكوس والجزية علىٰ رقاب المسلمين، مسلطون لليهود علىٰ قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرَّم الله، غرضهم فيها استخدام نفاذ أمرهم ونهيهم»[1].

أما ابن عبد البر عالم الأندلس المشهور، فقال واصفاً تلك الحالة: «فصار كل من غلب منها ـ يعني الجزيرة الأندلسية ـ علىٰ موضع مَلَكَه استعبد أهله، وكثر فيها الأمراء فضعفوا وصاروا خولاً للنصارىٰ»[2].

هكذا كانت الحالة السياسية لبلاد الأندلس، فأشلاء الدولة الأموية تقاسمها العشرات من الأمراء والقادة.

أمورٌ لو تدبَّرها حكيمٌ إذن لنهى وهيّب ما استطاعا[3]

أما علاقة ملوك الطوائف بمن ولاهم الله أمرهم من المسلمين، فكانت تقوم في الأعم الغالب علىٰ التسلط، والظلم، والاستعلاء[4]، كما كانوا مطلقي الأيدي مستبدين، متساهلين في سفك الدماء[5]، يُثقلون كواهلَ رعاياهم بجمع

(١) رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، ج ٣، ص ١٧٣.
(٢) ابن عبد البر، القصد والأمم، ص ٣٥.
(٣) المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٤٥٥.
(٤) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٦٢، ٢٥٩.
(٥) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي في عصر ملوك الطوائف والمرابطين، ص ١٧.

الأموال والإتاوات منهم؛ لإنفاقها على مصالحهم الذاتية أو لدفعها للنصارى، كي يضمنوا بقاءهم على كرسي الحكم[١].

ومما لا شك فيه أن تلك التصرفات الحمقاء التي نهجها ملوك الطوائف سواء في علاقاتهم فيما بينهم، أو مع رعاياهم، أفقدتهم الثقة بقاعدتهم الشعبية، فاتسعت الهوة فيما بينهم؛ مما زاد من تصدع الوحدة السياسية بين المسلمين هناك، بل إنه نتيجة لهذا الأمر أصبح الناس ينقادون لأي صوت يظهر، أو راية ترفع ضد أولئك القادة، والشواهد هنا كثيرة حيث حفلت كتب التاريخ الأندلسي بذكرها، ومنها ما ذكره ابن الكردبوس من أن القادر ابن ذي النون (٤٦٧ ـ ٤٧٨ هـ) حاكم طليطلة، استنجد بالملك القشتالي ألفونسو السادس (٤٦٥ ـ ٥٠٢ هـ / ١٠٧٢ ـ ١١٠٩م) لقمع إحدى الثورات التي ظهرت ضده، فطلب منه الملك القشتالي أن يمده بمال مقابل نجدته، فجمع القادر الرعية وقال لهم: «أقسم لئن لم تحضروني هذا المال الذي طلب في الحين؛ لأجعلن عنده رهناً جميع من عندكم من العيال والبنين»[٢].

ولما سمع أهل طليطلة ما قاله لهم القادر، لم يجبه أحد منهم بحرف غير أبي شجاع ابن لبون[٣]، فقد أنكر عليه هذا العمل وقال له: «لقد خلعت نفسك بما قلت، وبما أزمعت عليه وعولّت»، ففسدت نفوس الجماعة ورأوا أنه لا تجب له عليهم طاعة، وبعد هذا الموقف ثار أهل طليطلة ضد القادر سنة ٤٧٢ هـ حيث كاتبوا ابن الأفطس ففر القادر من تلك المدينة ـ لما أحسّ بالخطر ـ إلى وبذة[٤].

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٧١ ـ ١٧٢.
(٢) تاريخ الأندلس، ص ٨١ ـ ٨٢.
(٣) هو أبو شجاع أرقم بن لبون، تولى قيادة وبذة، ينتمي إلى أسرة بني لبون، من المولدين، توفي شهيداً سنة ٤٨١هـ، (ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٩٩، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٩٨).
(٤) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٢.

ومن الشواهد ـ أيضاً ـ ما فعله أهل قرطبة إزاء حاكمهم عبد الملك بن جهور، حينما قدمت إليهم فرقة من جيش ابن عباد لنصرتهم ضد ابن ذي النون الذي هاجمهم في عقر دارهم، فلما انتهت مهمة الجيش العبادي، وهموا بالخروج من قرطبة بعد رحيل جيش ابن ذي النون عنها، أخذ أهل قرطبة[١] «يناشدونهم الله؛ ألا يبرحوا حتىٰ يقبضوا علىٰ الغوي الظالم أميرهم عبد الملك بن جهور، ويحبسوا البلد علىٰ سلطانهم ابن عباد»[٢].

وقد ذكر المؤرخون أن الجيش العبادي لم يبرح مدينة قرطبة حتىٰ أسقط حكم بني جهور، وأقام علىٰ أنقاضه حكم بني عباد في تلك المدينة وما جاورها[٣].

هكذا كانت حالة أولئك القوم، فالوحدة السياسية بين المسلمين قد انعدمت، والفوضىٰ قد عششت بل فرخت في جميع أوطانهم، كما أن التنازع علىٰ السلطة والسلطان قد هيمن عليهم، فأصبح هو هاجسهم الدائم، كما ادعىٰ كل واحد من قادتهم، أو متغلب عليهم، بأنه هو السلطان الشرعي، وأن من عداه هو خارج عن الجماعة، ونازع للطاعة.

ومما لا شك فيه أن هذا الشعور هو الذي دفع أهل بلنسية بقيادة القاضي ابن جحاف[٤] إلىٰ خلع طاعة القادر بن ذي النون، وفي هذا يقول ابن عذارىٰ: «لما

(١) ابن بسام، الذخيرة، ج ١، ق ٢، ص ٦١٤، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٦٠ـ ٢٦١.

(٢) البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٦٠.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، ج ١، ق ٢، ص ٦١٤، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٦١، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٨.

(٤) القاضي ابن جحاف، هو أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جعفر بن جحاف، من علماء مدينة بلنسية، ومفكري الأندلس المشهورين، طلب العلم في أول الأمر علىٰ أبي عمر بن عبد البر بمدينة شاطبة، وقد تولىٰ القضاء بمدينة بلنسية، فلما ساء واقع ابن ذي النون عزم أهل بلنسية علىٰ التخلص منه، وتعيين ابن جحاف مكانه، وقد تم لهم ذلك، لكن النصارىٰ المتربصين غضبوا =

ملك القادر بلنسية أحدث فيها أحداثاً، وغيّر أحكاماً، وأظهر منكراً كثيراً وصادق الفونش (ألفونسو السادس)، وهاداه وراسله، فخاف أهل بلنسية منه أن يُملكها للفونش كما ملَّكه طليطلة، فاجتمعوا وعزموا علىٰ قتله وتقديم ابن جحاف»[1].

هذه نماذج وصور تدل دلالة واضحة علىٰ واقع أولئك القوم؛ حيث طغت عليهم الفرقة والأنانية المفرطة فضلاً عن الخلافات والتناحر فيما بينهم، ولم يكن هذا الأمر خافياً علىٰ العدو النصراني المتربص، ولا سيما ألفونسو السادس ـ ملك قشتالة ـ الذي كان يدرك حقيقة ذلك الواقع؛ وهذا ما جعله يرسم الخطط، ويضمر النيات للاستفادة من تلك الفوضىٰ السياسية التي حلَّت بجيرانه، وقد أفصح عن هذه الخطط وتلك النيات حينما قال لرسول المعتمد ابن عباد لما قدم إليه: «كيف أترك قوماً مجانين تسمَّىٰ كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم، . . . وكل واحد منهم لا يَسلّ في الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا علىٰ المغاني والعيدان؟! وكيف يحل لبشر أن يقر منهم علىٰ رعيته أحداً، وأن يدعها بين أيديهم سدىٰ؟!»[2].

وهكذا كان واقع الإسلام والمسلمين بالأندلس في عصر ملوك الطوائف، وقد اتضحت هذه الصورة لدىٰ أحد الباحثين المعاصرين؛ مما دفعه إلىٰ القول: إن

= لخلع ابن ذي النون الموالي لهم، فحاصروا بلنسية بقيادة القائد النصراني الكنبيطور حتىٰ تمكنوا من خلعه وأحرقوه بالنار.

انظر في تفصيلات ذلك: ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٩٧، ابن الأبار، التكملة، ج ١، ص ٣٩، ابن عميرة، بغية الملتمس، ص ٢٥٧، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٤، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٣٠٥، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٠٠.

(١) البيان المغرب، ج ٣، ص ٣٠٥.

(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٩.

دول ملوك الطوائف لم تكن دولاً بالمصطلح السياسي المعروف، وإنما كانت أقرب ما يكون إلىٰ وحدات الإقطاع، أو عصبية الأسرة والجماعة القبلية، ولهذا لم تكن بها حكومات منظمة تسعىٰ لصالح من تحت يدها من الشعوب، وإنما كان جُلُّ همِّها السعي لمصلحتها الذاتية، وتدعيم سلطانها، ولا يهمها بعد ذلك أن تسعد الأمة أو أن تشقىٰ، كما لا يهمها أن يسمو شأن الدين أو يذل؛ حيث كانوا[١] «لا يغاورون عدواً ولا تطرقهم نائبة»[٢]. بل إن أحد الكتاب النصارىٰ ذكر أن تناثر بلاد الأندلس بين عدد من الكيانات والإمارات الصغيرة، أدىٰ إلىٰ تراخي السلطة فيها؛ ومن ثم عدم سيطرتها علىٰ البلاد، حيث فقد الحكم فيها هيبته وصرامته[٣].

ثالثاً: تخلي كثير من مسلمي الأندلس عن الجهاد في سبيل الله:

كانت حركة الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس حلقة في سلسلة جهاد المسلمين المتعددة الحلقات والأطوار؛ ذلك أن المد الإسلامي الذي حمله أولئك المجاهدون لم يكن حركة غزو وغنائم أو سيطرة سياسية، بل هو موكب دعوة إصلاحية تدعو إلىٰ الله علىٰ هدىٰ وبصيرة، منهجها كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وميدانها الأرض كلها، أما موضوعها فهم البشر جميعاً[٤].

وقد تأصل هذا المبدأ عند المسلمين جميعهم، وفي الأمكنة والبقاع كافة، حيث سارت الدعوة الإسلامية في الأرض عامرة باهرة[٥]، شعار أولئك المجاهدين قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** ﴾ [**الأنفال**: ٣٩].

---

(١) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٧٥.
(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٠.
(٣) هنري بيرس، الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف، (ترجمة الطاهر أحمد مكي)، ص ٣١٧-٣١٨.
(٤) عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ١٧٢.
(٥) المرجع السابق، ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

ذلك ما سجله التاريخ خلال حركة الفتوحات الإسلامية التي كانت حركة انسياح في الأرض، وتياراً قوياً يسعىٰ للقضاء علىٰ الظلمات لتشرق الأرض كلها بنور ربها[١].

وحينما دخل المسلمون الفاتحون بلاد الأندلس سنة ٩٢ هـ كان الشعور بأهمية الجهاد هاجسهم جميعاً، كيف لا وهم قد تربوا في مدرسة عقبة بن نافع الذي قال ـ حينما أتم فتح بلاد المغرب، وسار بفرسه علىٰ ساحل بحر الظلمات ـ: «يا رب! لولا هذا البحر، لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك مقاتلاً من كفر بك»[٢].

وفي مرحلة الفتح الإسلامي وعصر الولاة، بقيت عند مسلمي الأندلس الرغبة في الجهاد، والسعي من أجله، حيث كانوا جميعاً يهدفون إلىٰ نشر هذا الدين، ودعوة الناس إلىٰ الدخول فيه مهما كانت النتائج والتضحيات، فقد ذكر المقري أن عقبة بن الحجاج السلولي (١١٦ ـ ١٢١هـ) أحد الولاة، كان «مثابراً علىٰ الجهاد مفتتحاً للبلاد، . . . وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتىٰ يعرض عليه الإسلام، ويبين له عيوب دينه، فأسلم علىٰ يده ألفا رجل»[٣]. كما يذكر المؤرخون أنه لما خُيِّر بين ولاية إفريقيا والأندلس «اختار الأندلس، وقال: إني أحب الجهاد، وهي موضع جهاد»[٤].

وقد وصف أحد قادة لذريق أول جيش إسلامي ولج بلاد الأندلس بقوله:

---

(١) عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ١٧٣.
(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ١، ص ٢٧، ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ١٠٦.
(٣) نفح الطيب، ج ٣، ص ١٩.
(٤) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٧، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٩، المقري، نفح الطيب، ج ٣، ص ١٧.

«إن قوماً لا ندري: أمن أهل الأرض، أم من أهل السماء! قد وطئوا بلادنا، وقد لقيتهم فلتنهض إليّ بنفسك»[(١)]، كما قال أحدهم واصفاً جيش المسلمين الفاتح: «لو أن قائداً معه ثلاثمائة ألف مقاتل، ما أحاط بالأندلس وأثخن فيها، ما أحاطه موسىٰ وأثخنه في ذلك الأمد القصير بين أمم أعداء تموج حواليه كالأبحر الزاخرة، وما رأىٰ الأندلس وحدها كفء لهمته، بل حدثته نفسه ـ التي قلّ مثلها في نفوس البشر، في بُعد الهمة ـ أن يوغل في أرض الإفرنج، ويعصف منها إلىٰ الشرق حتىٰ ينفذ من القسطنطينية»[(٢)].

ومما يؤكد تضحية أولئك القوم من أجل هذه الأهداف النبيلة استشهاد أربعة من ولاة الأندلس في ميادين القتال مع النصارىٰ[(٣)].

ويدل علىٰ ذلك أيضاً موقف النعمان بن عبد الله بن النعمان الحضرمي، وهو ممن دخل الأندلس مع طارق بن زياد، ثم وفد إلىٰ الخليفة الأموي سليمان

(١) ابن هذيل: تحفة الأنفس، ص ٧٠.
(٢) لوثروت، تاريخ غزوات العرب، ص ٥٨.
(٣) هؤلاء الأربعة هم:
أ ـ **السمح بن مالك الخولاني** (١٠٠ ـ ١٠٢ هـ)، وقد استشهد جنوب فرنسا، (الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٢٣٦، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ١، ص ١٩٥، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٦، المقري، نفح الطيب، ج ٣، ص ١٤.
ب ـ **عنبسة بن سحيم الكليبي** (١٠٣ ـ ١٠٧ هـ)، وقد استشهد جنوب فرنسا في شعبان سنة ١٠٧ هـ، (الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٣١٩، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ١، ص ٣٤٤، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٧، المقري، نفح الطيب، ج٣، ص ١٦).
ج ـ **عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي** (١١٢ ـ ١١٤ هـ)، وقد استشهد في معركة (بلاط الشهداء) في رمضان سنة ١١٤هـ (الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٢٧٤، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ١، ص ٢٥٦، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٢٩، ابن حيان، المقتبس، ج ٢، ص ١٤٠.
د ـ **عقبة بن الحجاج السلولي** (١١٦ ـ ١٢١ هـ)، وقد استشهد خلف جبال البرتات، (الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٣١٩، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٩).

ابن عبد الملك بخبر الفتح هناك، ومعه محمد بن حبيب المعافري، فقال لهما سليمان: «ارفعا حوائجكما. فأما المعافري فرفع حوائجه فقضيت، وأما النعمان فقال: حاجتي أن تردني إلىٰ ثغري ولا تسألني عن شيء. فأذن له، فرجع، واستشهد في أقصىٰ ثغور الأندلس»[١].

ولم يكن هذا النهج خاصاً بالوالي عقبة بن الحجاج بل كان منهجاً عاماً سلكه غيره من ولاة الأندلس في تلك الفترة حيث ذكر صاحب (أخبار مجموعة) ما يؤكد ذلك حينما قال: «وكان من وَصَفْنا من الولاة يجاهدون العدو ويتوسعون في البلاد حتىٰ بلغوا فرنجة، وحتىٰ افتتحت عامة الأندلس»[٢].

ومما لا شك فيه؛ أن تلك الأهداف السامية إلىٰ جانب الأخلاق النبيلة وحسن المعاملة هي التي جعلت سكان شبه جزيرة أيبيريا، يشعرون بأن دخول المسلمين لبلادهم إنما هو فتح حضاري وأخلاقي قبل أن يكون فتحاً عسكرياً أو سياسياً، وهذا ما جعلهم يقبلون علىٰ الدخول بهذا الدين بصورة جماعية، وبشكل فاق التصور فلم يستوعبه إلا من شاهده وعايش أحداثه؛ إذ ذكر المؤرخون أن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ) ـ رحمه الله ـ كان من رأيه أن ينقل المسلمين عن تلك الديار؛ وذلك لانقطاعهم بها وبُعدهم عن أهل كلمتهم؛ ولهذا طلب من السمح بن مالك أن يكتب له عن واقع المسلمين هناك[٣]، فكتب إليه «يُعرفه بقوة الإسلام، وكثرة مدائنهم، وشرف معاقلهم»[٤]، فلما بلغه هذا الأمر أضرب عن ذلك، وعيّن السمح بن مالك والياً عليها[٥].

---

(١) الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٣٥٨، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ٣٥٩.
(٢) أخبار مجموعة، ص ٢٥.
(٣) أخبار مجموعة، ص ٢٣، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٦، المقري، نفح الطيب، ج ٣، ص ١٥.
(٤) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٩.
(٥) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٢، ص ٣٦.

ومما لا شك فيه، أن هذا الأمر ما كان ليتم لولا توفيق الله أولاً، ثم جهود أولئك الجند الذين كانوا «في جهاد مستمر لسنوات، ما عرفوا كلالاً، ولا كسلاً، فالدوافع ثروة قوية لا تنفد، متولدة جديدة لا تتوقف استمداداً من الإيمان بالله ـ سبحانه ـ مصدر القوىٰ، واتصالاً بالإسلام العامر المعمر، استشهد غير واحد في أيام التروية أو عرفة ورمضان»[١].

بهذا المستوىٰ كان واقع مسلمي الأندلس في عهدي الفتح (٩٢ ـ ٩٥ هـ) ثم الولاة (٩٥ ـ ١٣٨ هـ)، وحينما قامت الدولة الأموية في بلاد الأندلس (١٣٨ ـ ٤٠٠ هـ)[٢] كانت عمليات الجهاد في سبيل الله هاجس الكثير من أمرائها وخلفائها، حتىٰ عامة الناس فيها، فقبل أن يكمل عبد الرحمن الداخل بناء دولته الناشئة جمع شتات القوىٰ الإسلامية التي كانت تقاوم النصارىٰ، كما نظمها حيث أصبح نهر دويرة حاجزاً بين المسلمين والنصارىٰ في الشمال، ونشأت علىٰ طوله سلسلة من الثغور الإسلامية لتكون مركز جهاد دائم[٣]، ثم واصل الحملات الجهادية ضد الممالك النصرانية المتاخمة لدولته[٤].

وقد سار خلفاؤه من بعده علىٰ هذا المنهج حيث كان الأمير هشام بن

(١) عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٢١١.

(٢) الدولة الأموية في الأندلس ينتهي عصرها حسب مصطلح المؤرخين في سنة ٤٢٢ هـ، وذلك حينما عقد اجتماع عام في المسجد الجامع بقرطبة تم فيه ترشيح أبي الحزم جهور بن محمد، وذلك في منتصف شهر ذي الحجة من سنة ٤٢٢ هـ، بعد خلع هشام المعتمد، (ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٠٢).

ولكنني حددته في المتن بنهاية القرن الرابع؛ وذلك لأن عمليات الجهاد التي نحن بصدد الحديث عنها ـ توقفت بعد ذلك التاريخ.

(٣) إبراهيم الدوري، عبد الرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الخارجية والداخلية، ص ١٩٦، ١٩٧.

(٤) في تفصيلات ذلك انظر: أخبار مجموعة، ص ١١٤، ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٢٦٩، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص ٢١٨.

عبد الرحمن الداخل (١٧٢ ـ ١٨٠ هـ) «من أهل الخير والصلاح، كثير الغزو والجهاد»[١]، وقد لقي اهتمامه هذا قبولاً لدىٰ الناس، فحينما أعلن الجهاد وقُرئ منشوره في الجوامع، تجمع لديه المجاهدون حتىٰ بلغوا مائة ألف مقاتل[٢].

كما ذكر المؤرخون أنه بالرغم من المآخذ التي سجلها التاريخ علىٰ الحكم بن هشام (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ) فإنه كان أول من جنَّد بالأندلس الأجناد، وجمع الأسلحة والعُدد[٣]، كما قالت عنه إحدىٰ النساء حينما أجاب استصراخها به: «والله! لقد شفىٰ الصدور، وأنكىٰ العدو، وأغاث الملهوف، فأغاثه الله وأعز نصره»[٤].

وكان الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ) مجاهداً لأهل الشرك والاختلاف، وربما أوغل في بلاد العدو ستة أشهر أو أكثر يقاتل في سبيل الله[٥]، وعلىٰ هذه الحال كان الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) حيث كان كثير الجهاد بنفسه والغزو إلىٰ دار الحرب[٦]، كما كانت له في جهاد العدو اليد البيضاء[٧].

أما الحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) فكان كثيراً ما يخرج الكتب إلىٰ الولاة، والقواد، والعمال، بنواحي الأندلس يأمرهم بارتباط الخيل، والقيام عليها، والتكثير منها، والاستعداد بالعُدد، والأسلحة، والآلات للجهاد في سبيل الله[٨].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٣٣٨.
(٢) خليل السامرائي، الثغر الأعلىٰ الأندلسي، ص ٢٤٢.
(٣) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ١٢٧، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٣٩، المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٣٤١ ـ ٣٤٢.
(٤) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.
(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ٢٢٠، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٢، ص ١١١.
(٦) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٣٥٣.
(٧) المصدر السابق، ص ٣٦٣.
(٨) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٢٥، ٢٣٨.

هكذا كان واقع زعماء دولة بني أمية، وحينما آل الأمر إلىٰ المنصور بن أبي عامر (٣٦٦ ـ ٣٩٩ هـ) وذلك خلال فترة حكم هشام الثاني بن الحكم المستنصر، وأصبح هو المنفذ الوحيد في شؤون الدولة أولىٰ هذا الجانب اهتماماً كبيراً؛ إدراكاً منه لأهميته في حفظ هيبة الأندلس أمام جيرانها النصارىٰ، ولكي يحظىٰ بهذا العمل بمنزلة عند عامة أهل الأندلس وخاصتهم، حيث كانوا يعدون القيام بالجهاد من أولىٰ الواجبات، وأهم المسؤوليات لمسلمي الأندلس[1]، وقد غزا المنصور سبعاً وخمسين غزوة، دوّخ خلالها النصارىٰ المتربصين؛ كما أعاد للمسلمين مكانتهم، وهيبتهم؛ ولهذا لقَّبه ابن بسام بـ(ذي العزة والسطوة)[2].

ولما سقطت الدولة الأموية، وأقام علىٰ أشلائها ملوك الطوائف عدداً من الدويلات المضطربة، نسوا هذا الواجب، وضيعوا تلك الأمانة؛ بل إن بعضهم صار هاجس الجهاد عنده مفقوداً، بل صار مجرد التفكير فيه منعدماً فضلاً عن القيام به أو الدعوة إليه، وهنا يتساءل كثير من الذين درسوا تاريخ ملوك الطوائف: ما الذي غير ذلك الواقع وبدّل تلك الحال؟

وللإجابة عن هذا التساؤل لا بد من بيان أن هذا الأمر لم ينشأ من فراغ كما لم يكن وليد يومه وليلته، وإنما تمخض عن عدد من العوامل والأسباب التي تضافرت علىٰ خلق تلك الروح الانهزامية، وكان من أهمها ما يأتي:

١ ـ ضعف الوازع الديني عند كثير من ملوك الطوائف.

٢ ـ الأنانية وحب الذات.

٣ ـ الجبن والخور الذي أصاب كثيراً من الناس.

(١) عن جهاد المنصور راجع: ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٩٩، ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج١، ص ٣٩، ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ١، ص ٢٦٨، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٥٦.

(٢) الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ١٨٥.

وفيما يأتي سنفصل القول في بيان هذه الأسباب، ومدى أثر كل واحد منها على واقع الجهاد آنذاك.

١ ـ ضعف الوازع الديني عند كثير من ملوك الطوائف:

مما لا شك فيه أن الوازع الديني عند المسلمين كان هو الموجه الرئيس لحركة الجهاد الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها منذ أن جاء الرسول ﷺ بهذا الدين؛ حيث استشعر المسلمون مسؤوليتهم إزاءه وضرورة تبليغه للناس أجمعين، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [**آل عمران**: ١١٠].

ولعلّ مقولة ربعي بن عامر أمام ملك الفرس، توضح لنا بجلاء تأصل هذا المفهوم عند المجاهدين المسلمين؛ فقد قال حينما وقف أمام رستم عشية معركة القادسية: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلىٰ خلقه، لندعوهم إليه»(١).

ولم يكن هذا الشعور خاصاً بإقليم معين أو فئة دون أخرىٰ من المجاهدين المسلمين بل إنه شعور عام تأصل عند كل من انصهر في بوتقة الإسلام، وإذا كان القائد ربعي بن عامر قد أبان هذه العقيدة في تلك المقولة وهو من قادة المجاهدين في المشرق الإسلامي؛ فإن مجاهدي الغرب الإسلامي قد أوضح هذا الأمر عنهم عقبة بن نافع في كلمته التي قالها بعد ما أتم فتح بلاد المغرب، فقد ذكر ابن عذارىٰ أنه بعد ما أتم فتح بلاد المغرب الأقصىٰ سار حتىٰ بلغ البحر المحيط فدخل فيه حتىٰ بلغ الماء بطن فرسه، ثم رفع يديه إلىٰ السماء وقال: «يا رب! لولا أن البحر منعني لمضيت في البلاد إلىٰ مسلك ذي القرنين مدافعاً عن دينك، مقاتلاً من كفر بك»،

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص ٥٢.

ثم قال لأصحابه: «انصرفوا على بركة الله»، فجلا الناس أمامه بكل ناحية هاربين، وخافه المشركون أشد مخافة، حتى إن قلوبهم تنخلع لذكره[١]، كما يذكر ابن عذارى أن عقبة كان يقول: «اللهم إنك تعلم أني لم أطلب إلا ما طلب عبدك ووليك ذو القرنين ألا يعبد في الأرض غيرك»[٢].

بهذا المستوى كان أولئك القوم يحملون لواء الإسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها، لا ترهبهم الجيوش الحاشدة ولا تفزعهم قوة العدو مهما كانت، يخوضون أشرس المعارك بلا هيبة، ويقذفون أنفسهم في دائرة الموت بلا تردد، وكيف يخشى أو يخاف من وهب نفسَه لله، وهو يعلم أن له في عمله إحدى الحسنيين، فإن مات في سبيل الله فإلى الجنة، وإن انتصر فلإعلاء كلمة الله، وهذا ما جعلهم يقودون الجيوش ضاربين أروع أمثلة الشجاعة بل إنهم إضافة إلى شجاعتهم في ميدان الجهاد كانوا نماذج حية للصبر والحلم والعفة، والبعد عن الذات، والتعالي عن المصالح الخاصة.

هكذا كان شعور المجاهدين الأولين بل هكذا كان واقعهم؛ فحب الجهاد في سبيل الله قد تأصل في نفوسهم حتى أصبح همّاً ملازماً لهم، فعلى ضوئه كانوا يسيرون، وحسب مقتضاه كانوا يخططون، ومما لا شك فيه أن هذا الشعور وذلك الهمّ لم ينشأ من فراغ، بل كانا مع غيرهما من المبادئ والأخلاق السامية نتيجة طبيعية وسلوكاً مألوفاً لمن انصهر في بوتقة الإسلام وعاش في ظل حكمه.

ولما دخل المسلمون الأندلس كانوا قد انصهروا في تلك البوتقة؛ وتربوا في تلك المدرسة، ولهذا ساروا على ذلك المنهج، كما سار عليه بعدهم معظم زعماء الدولة الأموية؛ حيث كان الوازع الديني عند الجميع متعالياً على كل النزعات.

وفي عصر ملوك الطوائف بدأ هذا الوازع يخبو في نفوس الكثير من أفراد

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١، ص ٣٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٧.

المجتمع الإسلامي، وهذا مما غيّر حال الناس، وبدل نياتهم وأهدافهم، وقد كان الجهاد، والشعور بأهميته من بين القيم التي فقدوها في ظل ذلك العصر، حيث انطفأت تلك الشعلة في خضم السعي للذات، والاهتمام بالمصالح الدنيوية دون غيرها، وقد وصف ابن حيان تلك الحالة بقوله: «دهرنا هذا قد غربل أهليه أشد غربلة فسفسف أخلاقهم، واجتثَّ أعراقهم، وسفَّه أحلامهم، وخبَّث ضمائرهم، فاحتوىٰ عليهم الجهل، واقتطعهم الزيف، وأركستهم الذنوب، ووصمتهم العيوب، . . . يعلِّلون نفوسهم بالباطل»[١].

أما ابن عذارىٰ فذكر أنه في سنة خمس وثلاثين وأربعمائة تميّز ملوك الطوائف وعمَّتهم الفرقة ما منهم من يحذر الآخر[٢]، كما قال في موضع آخر، واصفاً أحدهم حينما خرج للقاء العدو الذي داهم بلاده: «فخرج بالعير والنفير والجم الغفير، يحسب الطعن كالقبل، ويظن السيوف كالمقل، ويتخيل صليل الحسام بين القصرتين والهام»[٣].

أما ابن الكردبوس فقد ذكر أن ملوك الطوائف كانوا مشتغلين بشرب الخمر، واقتناء القيان، وركوب المعاصي، وسماع العيدان، كما كان همُّهم التنافس وشراء الذخائر الملوكية، وهذا مما أضعفهم جميعاً؛ حيث ذلَّ الرئيس والمرؤوس، وافتقرت الرعية، وفسدت كل أحوالهم جميعاً[٤].

هكذا نرىٰ كيف أن ضعف الوازع الديني عند مسلمي الأندلس في عصر

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٨٨ ـ ١٨٩، (نقلاً من ابن حيان)، كما ذكر المقري هذا النص ونسبه إلىٰ ابن حيان، نفح الطيب، ج ٤، ص ٤٥٢.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٩٠.
(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٥٢.
(٤) تاريخ الأندلس، ص ٧٧ ـ ٧٨.

ملوك الطوائف قد تمخض عنه ضعف الجهاد، والتخلي عن مقاومة النصارىٰ، وهذا بلا شك يعد نتيجة طبيعية لتغير الحال، وتدنيِّ الهمم، وانحراف الأهداف؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

وقد أدرك هذه الحقيقة العدو النصراني المتربص بالمسلمين آنذاك، حيث قال أحد قادتهم بعد إحدىٰ المعارك التي خاضها ضد المسلمين: «كنا نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة فإذا القوم لا دين لهم، ولا شجاعة، ولا عقول معهم»(١).

٢ ـ الأنانية وحب الذات:

إن مما اتسم به عصر ملوك الطوائف: الأنانية المفرطة وحب الذات المستشري بين الناس، ولا سيما عند علية القوم، فالكثير منهم لا همَّ له إلا السعي من أجل تحقيق مصلحته الذاتية وإشباع أنانيته، وتثبيت أقدامه في السلطة علىٰ حساب المسلمين ومصلحتهم، وكأن الأندلس إنما وجدت له، مهما كان قصير العمر، ذليل المكانة، مهزوز القواعد(٢).

وقد كان بين أولئك الملوك والأمراء من التحاسد والتنافس والغيرة ما لا يكون بين الضرائر المترفات، فلم يتعاونوا علىٰ البر والتقوىٰ، أو يسعوا لمصلحة إسلامية، بل انصبت كل جهودهم علىٰ توفير ما يخدم مصالحهم الخاصة(٣)، حتىٰ غدا السعي للَّذات أمراً طبيعياً مألوفاً بل ظاهرة ألفها الكبير وتربىٰ عليها الصغير، وقد قام برصد هذه الظاهرة عدد من الكتَّاب والمؤرخين المعاصرين لها، حيث شاهدوها من قرب، بل ربما اكتوىٰ بعضهم بنارها ولظاها، ومنهم ابن حزم

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٩٠.
(٢) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٣٢.
(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٤٤.

الذي ذكر أن ملوك الطوائف إنما يسعون ويعيشون من أجل مصالحهم الذاتية، وليس من أجل مصلحة المسلمين، وأنهم يقدِّمون في هذا السبيل، ومن أجل هذا العرض تنازلات كثيرة؛ وكان مما قاله: «والله! لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستنجدون النصارىٰ، فيمكنونهم من حرم المسلمين، وأبنائهم، ورجالهم، يحملونهم أسارىٰ إلىٰ بلادهم، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الإسلام، وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم، وسلط عليهم سيفاً من سيوفه»[1].

وقد ذكر المؤرخون أن تلك الأنانية لم ينشأ عنها انقطاع عمليات الجهاد فحسب، بل تمخض عنها - أيضاً - العمل علىٰ المحافظة من أجل المصالح الخاصة، مهما كانت التضحية المقدمة في سبيلها، ومما يذكر في هذا أن بعضهم لكي يضمن البقاء علىٰ سدة الحكم طلب من بعض القوىٰ النصرانية حمايته مقابل دفع أموالٍ طائلة لهم، ويأتي في مقدمة هؤلاء القادر ابن ذي النون الذي حكم بلنسية بعد أن طرده النصارىٰ من طليطلة سنة ٤٧٨ هـ فأساء السيرة في حكم هذه المدينة؛ إذ أعلن خضوعه للنصارىٰ وموالاته لهم، وتقديم مبلغ مائة ألف مثقال في كل عام وذلك مقابل حمايتهم له[2]، وقد أثار هذا التصرف أهل بلنسية ضد القادر ابن ذي النون، ولهذا عزموا علىٰ الخلاص منه، والبراءة من النصارىٰ وموالاتهم، وقد تزعم هذا الاتجاه القاضي ابن جحاف حتىٰ خلعوا ابن ذي النون، فاختار أهل بلنسية القاضي ابن جحاف ليكون رئيساً للجماعة بها[3].

---

(١) ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، ج ٣، ص ١٧٦.
(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٠٠، والحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٢٧١.
(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٩٥ - ٩٦، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٠٣ - ٢٠٤، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٣٠٥.

ولعل موقف ملوك الطوائف من مدينة طليطلة وأهلها حينما حاصرهم النصارىٰ سنة ٤٧٨ هـ، يعطينا دلالة واضحة علىٰ أن أولئك القوم قد غرقوا في مستنقع الأنانية وحب الذات الذي تأصل في نفوسهم، فقد ذكر ابن بسام أنه حينما حاصر النصارىٰ مدينة طليطلة أراد أهلها المقاومة فلما أعياهم الأمر، وتوقعوا سقوط المدينة بيد الملك القشتالي ألفونسو السادس ذهبوا لمقابلته فأنكر عليهم امتناعهم عنه، وقال لهم: لماذا تترددون في تسليم المدينة؟ فقالوا له: لنا بغية ببعض ملوك الطوائف. فسخر منهم، واستدعىٰ من خيامه رسل ملوك الطوائف؛ حيث لم يبق من ملوك الطوائف أحد إلا أرسل إليه يومئذ رسله، فأُسقط في أيدي أهل المدينة، وخلوا بينه وبين البلد[1]. كما ذكر ابن الكردبوس أنه بعد أن سقطت طليطلة بيد النصارىٰ وجَّه كل رئيس بالأندلس رُسله إلىٰ ألفونسو مهنئين، وبأنفسهم وأموالهم مفتدين[2].

هكذا كانت حالة أولئك القوم؛ فقد غرقوا في مستنقع حب الذات، كما انشغلوا بأنانيتهم ومصالحهم الخاصة عن مصلحة المسلمين العامة، وهذا ما جعلهم يفرضون الضرائب والإتاوات علىٰ المسلمين من أجل تقديمها للنصارىٰ الذين يقومون بحماية عروشهم، ففزع الناس وقلقوا، وجعلوا يطلبون النجدة والمساعدة من أي جهة أو شخص كانوا يتوقعون أن لديه القدرة علىٰ إصلاح الحال أو تغيير الواقع.

وقد ذكر ابن عذارىٰ أنه لما تطاول المقتدر بالله أحمد بن هود (٤٣٨ ـ ٤٧٤ هـ) علىٰ سكان الثغر الأعلىٰ، وبالغ في فرض الإتاوات المالية عليهم من أجل تقديمها للنصارىٰ الذين قاموا بحمايته لجأ الناس إلىٰ أحد العابدين المعروفين بالصلاح

---

(١) الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١١٦.

(٢) تاريخ الأندلس، ص ٨٨.

فأنكر هذا الرجل عمل المقتدر، وقال لهم: معاذ الله! هذا لا يكون وأنا حيٌّ في الدنيا أبداً. ثم ركب مع بعض الناس، وذهبوا إلى المقتدر بسرقسطة فلما قابلوه وعظه، وبيّن له ما جاء في الشرع حول هذا الموضوع، فاغتاظ المقتدر لما سمع من ذلك الرجل وقال: احتقرَنا هذا الرجل حتى خاطبنا بمثل هذه المخاطبة، فإن تركناه ولم نعاقبه تجاسر علينا غيره، فأمر به فقتل(١).

ولعل موقف المقتدر بالله بن هود من مدينة بربشتر(٢) حينما حاصرها النصارى سنة ٤٥٦ هـ يبين لنا بوضوح إغراقه في الأنانية حيث لم يلبِّ استصراخ المسلمين؛ لأن بربشتر كانت خاضعة لأخيه يوسف المظفر(٣).

ومما لا شك فيه أن ذلك الواقع هو الذي جعل ملوك الطوائف يشعرون بأن أي دعوة إلى الإصلاح أو الجهاد إنما هي تهديد واضح لسلطانهم، فحينما وجه الفقيه والأديب الشاعر أبو حفص عمر بن حسن الهوزني رسالة إلى المعتضد ابن عباد (٤٣٣ ـ ٤٦١ هـ) يحثه فيها على الجهاد، كما بين فيها شدة معاناة المسلمين وسبب تزايد الخطر النصراني عليهم، وأنه لا خلاص لمسلمي الأندلس من ذلك الواقع المظلم إلا بالرجوع إلى ميدان الجهاد والتخلي عن الذات، وجعل مصلحة المسلمين هي المقدمة على كل مصلحة سواها(٤)، من غير تجريح أو إثارة، بل بحكمة ولين، ولكن هيهات أن ينفع النصح مَنْ سَكَر في خمرة الملك والرياسة،

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٩.

(٢) سيأتي الحديث مفصلاً عن هذه الحادثة في الفصل الثالث إن شاء الله تعالى.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٣، ص ١٨٩ ـ ١٩٠، ابن الخطيب، أعمال الأعمال، القسم الثاني، ص ١٧١، ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ٢٤٧، وعن موقف ملوك سرقسطة من سقوط بلنسية في يد القمبيطور انظر:

Juam de moriana: Historia de E sparia Editorial Ebro-Madrid 1939.pp.70-71.

(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج١، ص ٨٣ـ٨٦.

فماذا كان موقف ابن عباد من ذلك وجوابه عليه؟

يذكر المؤرخون أن موقف المعتضد من تلك الرسالة كان سيئاً فما أن تلقاها حتىٰ أرسل إلىٰ الهوزني رسالة يستدعيه للقدوم إلىٰ إشبيلية، فلما وصل إليها واستقر بها سنة ٤٥٨ هـ، أخذ المعتضد يسعىٰ للقضاء عليه حتىٰ تمكن من قتله سنة ٤٦٠ هـ[١].

وهكذا دفع الهوزني حياته ثمناً لدعوة صادقة إلىٰ الجهاد في سبيل الله والسعي من أجل مصلحة المسلمين.

ولم يكن هذا الموقف خاصاً بابن عباد، بل إن الشعور بالأنانية وحب الذات، كان هاجساً ملازماً لمعظم ملوك الطوائف؛ ولهذا فإن أي دعوة صادقة إلىٰ الجهاد والإصلاح كانوا يعدُّونها خطراً يهدد كيانهم، كما كانوا يفسرونها علىٰ أنها صيحات تدعو للقضاء عليهم، حتىٰ لو لم يعلنوا ذلك صراحة؛ حيث يذكر المؤرخون أن أبا الوليد الباجي[٢]، لما مشىٰ بين ملوك الطوائف داعياً إلىٰ الجهاد،

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٨٣، ابن سعيد المغرب، ج ١، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٠، ابن بشكوال، الصلة، ج ٢، ص ٤٠٢، المقري، نفح الطيب، ص ٩٤.

(٢) أبو الوليد الباجي هو: أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي، من علماء الأندلس، كما يعد من شعرائها وأدبائها، ولهذا لقب بفقيه الأندلس وإمامها، طلب العلم في أول أمره بالمشرق، فلما عاد منه إلىٰ الأندلس سنة ٤٤٠ هـ، وجد أن عقد الوحدة السياسية بين المسلمين قد انتثر، وأن الأمة قد ابتليت بالفرقة والشتات، فبدأ دعوته إلىٰ الوحدة الإسلامية أمام الخطر النصراني؛ حيث أخذ يطوف علىٰ ملوك الطوائف من أجل هذا الغرض النبيل، لكن ملوك الطوائف كانوا يستثقلون دعوته لشعورهم بأنها تقف سداً منيعاً أمام مصالحهم لكنه واصل دعوته حتىٰ توفي بالمرية سنة ٤٧٤ هـ. (ابن بشكوال، الصلة، ج ١، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٤٢ ـ ١٤٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٢٢ ـ ١٢٣، والذهبي، تذكرة الحفاظ، ص ١١٧٨ ـ ١١٧٩، ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٢١٥، الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣، ابن قزحون، الديباج المذهب، ج ١، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨، ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٩٥ ـ ٩٦، المقري، نفح الطيب، ج ٢، ص ٧٧).

وحاشاً على توحيد الكلمة، كانوا يُجلُّونه في الظاهر، ويستثقلونه في الباطن، ولهذا سمِّي بـ (مؤمن آل فرعون)(١).

ويقابل هذه الجهود التي قام بها أولئك العلماء مواقف أخرى لبعض الأدباء والمثقفين؛ حيث زينوا لأولئك القوم واقعهم كما دلسوا عليهم حقيقة الأمر، حينما صوروا لهم الهزيمة نصراً، وموالاة العدو والخضوع له سلماً، ودفع الإتاوة إليه سياسة وحكمة، كما حاولوا إقناع الأمة بهذه الهزيمة النفسية وحجب الحقائق عنها(٢).

وقد تصدى لهذه الفئة عدد من العلماء والمؤرخين كابن حزم، وابن حيان، وابن بسام؛ حيث بينوا للأمة خطر هذا الصنف من الناس على المجتمع الإسلامي، وإذا كان ابن حزم وابن حيان وغيرهما من مؤرخي الأندلس لم يفصّلا القول في هذا الموضوع؛ فإن ابن بسام قد تتبع أفراد تلك الفئة التي حسنت الباطل لأهله، وزينت لهم سوء عملهم؛ حيث وصفهم بالمخادعة والمكر، وأنهم شهداء زور، كما وصف عملهم بأنه مدح غرور وخديعة ماكر(٣).

٣ ـ الجبن والخور الذي أصاب كثيراً من الناس:

حينما دخل المسلمون الفاتحون بلاد الأندلس، كانوا يفيضون حماسة لنشر الإسلام، كما كانت تملأ قلوبهم رغبة صادقة في الجهاد؛ ولهذا تقدموا في ميادين الوغى بكل صبر وشجاعة وإقدام غير هيَّابين ولا خائفين؛ حيث لم ترهبهم الجيوش الحاشدة، كما لم تفزعهم قوة العدو، بل كانوا يقذفون بأنفسهم في

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص٩٥ ـ ٩٦، المقري، نفح الطيب، ج ٢، ص ٧٧.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٢٤٩.
(٣) المصدر السابق، ق ٢، ج ١، ص ٢٤٩.

ساحات الوغىٰ بلا تردد، وقد كان هذا الإقدام وتلك الشجاعة مثار إعجاب الكثيرين من النصارىٰ، وممن صرح بهذا أحد قادة لذريق حيث قال في رسالة بعث بها إليه: «إنه نزل بأرضنا قوم لا ندري أَمِنَ السماء نزلوا أم من الأرض خرجوا؟!»[١].

وقد ظل المسلمون محافظين علىٰ هذه القوة المعنوية طوال مرحلة الفتح، وخلال عصري الولاة وبني أمية، مع ما كان يعتريها من ضعف أحياناً، وحينما زالت دولة بني أمية، وقامت علىٰ أنقاضها دول الطوائف، أَفَلَت هذه الروح من الساحة الأندلسية؛ لتحل محلها روح الانهزام والخور التي ملأت قلوب كثير من مسلمي الأندلس خاصتهم وعامتهم.

وقد اعترف بهذا الأمر المعتمد ابن عباد في رسالته التي وجهها إلىٰ ألفونسو السادس ـ ملك قشتالة ـ بعد أن هدده الملك النصراني إن لم يزد في العطاء، ومما جاء فيها: «والذي جرأك علىٰ طلب ما لا تدركه قوم كالحمر، لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرىٰ محصنة أو من وراء جدر، ظنوا المعاقل تعقل، والدول لا تنتقل، وكان بيننا وبينك من المسالمة ما أوجب القعود عن نصرتهم، وتدبير أمرهم، ونسأل الله ـ سبحانه ـ المغفرة فيما أتيناه في أنفسنا وفيهم من ترك الحزم وإسلامهم لأعاديهم»[٢].

ولم يكن ذلك الواقع خافياً علىٰ العدو النصراني المتربص بمسلمي الأندلس آنذاك، فقد أفصح عن معرفته ألفونسو السادس ـ ملك قشتالة ـ حيث قال لرسول المعتمد ابن عباد حينما قدم عليه: «كيف أترك قوماً مجانين تسمَّىٰ كل واحد منهم

---

(١) ابن هذيل: تحفة الأنفس، ص ٧٠، المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٢٤٠.
(٢) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٤١.

باسم خلفائهم وملوكهم؟ . . . وكل واحد منهم لا يَسُلُّ في الذبّ عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً، . . . وكيف يحل لبشر أن يقر منهم علىٰ رعيته أحداً، وأن يدعها بين أيديهم سدىٰ؟»[١].

ومما لا شك فيه أن انعدام تلك الروح عند مسلمي الأندلس، قد أفقدهم هاجس الجهاد الذي كان ملازماً لأسلافهم؛ حيث يذكر ابن حزم ـ والذي عايش ذلك الواقع ـ أن الراضي منهم يطمع في الزيادة، والساخط يضمر الانتقام، وأنهم قد لبسوا جلود الضأن علىٰ قلوب السباع[٢].

وباستقراء التاريخ الحربي لملوك الطوائف نجد أنه علىٰ الرغم من كثرة حروبه وتتابع معاركه، فإنه لم يكن لصالح المسلمين، بل في أمور تافهة، ولم يكن هذا الأمر خافياً علىٰ شيخ مؤرخي الأندلس ابن حيان، حيث وصف ملوك الطوائف بأنهم «أمراء الفرقة الهمل الذين هم ما بين فشل ووكل، يصدونهم عن سواء السبيل، ويُلبسون عليهم وضوح الدليل . . . لم يكن عندهم إلا الفزع إلىٰ حفر الخنادق، وتعلية الأسوار، وسد الأركان، وتوثيق البنيان، كاشفين لعدوهم عن السوأة السوداء من إلقائهم يومئذ بأيديهم إليهم أموراً قبيحات»[٣].

وفي نص آخر بيّن ابن حيان هذا الأمر بجلاء؛ حيث يذكر العلة وأسبابها ونتائجها إذ يقول:

«أمورٌ لو تدبَّرها حكيم إذن لنهى وهيَّب ما استطاعا

فدهرنا هذا قد غربل أهليه أشد غربلة، وسفسف أخلاقهم، وخبَّث

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٩.
(٢) ابن حزم، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، ج ٣، ص ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٨٠، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٥٤.

أعراقهم، وسفَّه أحلامهم، واحتوىٰ عليهم الجهل، فلبثوا في غير سبيل الرشد، يعللون أنفسهم بالباطل، وذلك من أدل الدلائل علىٰ فرط جهلهم، واغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم، وغفلتهم عن سد ثغرهم، حتىٰ ظل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم يتبجح عراص دورهم، ويستقرئ بسائط بقاعهم، يقطع كل يوم منهم طرفاً ويبيد أمة، ومن لدينا وحوالينا صموت عن ذكرهم، لهاة عن بثهم، ما أن يسمع بمسجد من مساجدنا، أو محفل من محافلنا مذكر لهم أو داع لهم، فضلاً عن نافر إليهم أو مواس لهم؛ حتىٰ كأنهم ليسوا منا، أو كأن فتقهم ليس بمفض إلينا، قد بخلنا عليهم بالدعاء فبؤنا بالعناء، عجائب فاتت التقدير»[(١)].

أما ابن عذارىٰ فقال في وصفه لتلك الحال: «وصبَّ الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ أهل الثغور من الجبن عن العدو ما لا كفاء له، فلا يكاد أحد منهم يلقىٰ نصرانياً في قرار من الأرض إلا ويوليه الدبر غير مستح من الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ من الفرار أمامه؛ حتىٰ تعوَّد أعداء الله ذلك منهم فلا يعدون خيلهم شيئاً»[(٢)].

وإن المتتبع للتاريخ الحربي لدول الطوائف ليدرك أن الحروب كانت كثيرة، والمعارك متتابعة، إلا أنها لم تكن لصالح المسلمين، كما أنها لم تكن موجهة لأعداء الدين، بل كانت بين المسلمين أنفسهم تناحراً علىٰ السلطة وتقاتلاً من أجلها، أما حين يُنادي منادي الجهاد فإن القوم يصيبهم الجبن، ويحل بساحتهم الخور، حتىٰ كأن الأمر لا يعنيهم ولا يخصهم، وفي هذا يقول شاعر الأندلس ابن العسال[(٣)]:

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٥٥.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص ٢٨٠.

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن فرح بن العسال الطليطلي زاهد طليطلة المشهور، كان فصيح اللسان متقناً في شعره، كما كان يحفظ الأحاديث، توفي سنة ٤٨٧ هـ، وقد نيف عمره علىٰ الثمانين. (ابن سعيد المغرب، ج ٢، ص ٢١، رايات المبرزين، ص ٨١).

ماتت قلوبُ المسلمينَ برعبهم فحُماتُنا في حربهم جُبناءُ[(١)]

ويبدو أن هذا الضعف المتمخض عن الجبن والخور هو الذي جعل هذا الشاعر يدعو صراحة إلىٰ الخروج من الأندلس، وترك تلك البلاد لمصيرها المحتوم حينما قال:

يا أهل أندلسٍ حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلطِ
الثوب ينسلُّ من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسطِ
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سفطِ؟![(٢)]

وقد عدَّ الدكتور عبد الرحمن الحجي هذه الدعوة إلىٰ الرحيل بأنها الغلط عينه، والجبن الشديد، والأنانية[(٣)].

ومن الباحثين من يرىٰ أن ابن العسال لم يرد ما يوحي به ظاهر الكلام، وإنما أراد المبالغة في التنبيه والتذكير[(٤)]، وعلىٰ أية حال يبقىٰ هذا النص شاهداً حياً، ودليلاً قوياً علىٰ أن الفرار من أمام العدو النصراني كان هاجساً يخالج قلوب بعض مسلمي الأندلس، وهذا بلا شك يعدُّ عرضاً واضحاً من أعراض الجبن والخور الذي مُني به كثير من مسلمي الأندلس في ذلك الوقت.

ماتت قلوبُ المسلمينَ برعبهم فحُماتُنا في حربهم جُبناءُ[(٥)]

---

(١) الحميري، الروض المعطار، ص ٩٠.
(٢) ابن سعيد المغرب، ج ٢، ص ٢١، وقد ذكر المقري في كتابه نفح الطيب، أن تلك الأبيات رويت هكذا:

حثوا رواحلَكم يا أهل أندلس فما المقام بها إلا من الغلطِ
السلك ينثر من أطرافه وأرىٰ سلك الجزيرة منثوراً من الوسطِ
من جاور الشر لا يأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيات في سفطِ

(نفح الطيب، ج ٤، ص ٣٥١).
(٣) التاريخ الأندلسي، ص ٣٥١.
(٤) إحسان عباس، الأدب الأندلسي في عهد المرابطين، وملوك الطوائف، ص ١٨٣.
(٥) الحميري، الروض المعطار، ص ٩٠.

هكذا كانت حالة أولئك القوم :

أمورٌ يضحكُ السفهاءُ منها ويبكي من عواقبها الحليمُ[١]

ومما لا شك فيه أن تلك الحالة قد أدت إلى أن يتخبط الجميع في جنبات الفوضى كل قد شغل بحاله وسعى لتثبيت سلطانه ؛ إذ إن الواحد منهم يصبح أميراً ويضحي أسيراً[٢] .

ولم تكن تلك الحالة النفسية قاصرة على شريحة معينة من شرائح المجتمع الإسلامي بالأندلس ، بل إنها تكاد تكون شملت كل فئات المجتمع ، وهذا ما جعل آثارها شاملة ، ومعاناة الناس منها كبيرة ، وهو ما أنساهم واجبهم الأهم وهو الجهاد في سبيل الله الذي كان هاجساً ملازماً لأسلافهم منذ دخولهم تلك الديار .

ويضاف إلى ما سبق ما فعله بعض الشعراء والأدباء من محاولة تدليس الحقائق ؛ إذ زيّنوا لملوك الطوائف مسلك التقاعس عن الجهاد ، وهو ما يعدُّ خيانة كبيرة للأمة المنكوبة[٣] ، فقد صوَّروا لهم الهزيمة نصراً ، والذل للعدو وموالاته سلماً ، وإعطاء الإتاوة سياسة وشجاعة ، كما حاولوا إقناع الناس بذلك ، فلبّسوا الحق بالباطل ، كما جدّوا في تدليس الحقائق وإخفائها[٤] .

وبهذا السلوك أصبح أولئك الشعراء والأدباء كالفقيه الصنيعة الذي زين لأهل الباطل باطلهم ، كما يقول ابن حزم[٥] ، بل إن أولئك الشعراء وبسبب ما

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢١٥ .
(٢) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٧٦ .
(٣) سعد البشري ، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف بالأندلس ، ص ١٠٠ .
(٤) ليث جاسم ، ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ ، ص ٦٣ .
(٥) رسائل ابن حزم ، تحقيق إحسان عباس ، ج ٣ ، ص ١٧٣ .

يملكونه من قوة وبيان، فاقوهم في توسيع الهوة بين الحاضر والماضي، وفي إحاطة بعض ملوك الطوائف بسياج من الثناء والمدح؛ مما أوهمهم بأنهم جديرون بما قيل عنهم، وأنهم كفء لما يسمعون، وهكذا انخدعوا بما سمعوا، وهذا بلا شك مما أصّل الضعف في نفوسهم وممالكهم(١).

ويأتي في مقدمة هؤلاء الشاعر حسان المصيصي الذي مدح المعتمد ابن عباد، وهوّن عليه موالاته للنصارىٰ، ودفع الإتاوات إليهم، ومما قاله:

ولم تطو دونَ المسلمين ذخيرة ... تهين كرام المنفسات لتكرما
تحيل في فك الأسارى وإنما ... تعاقد كفاراً لتطلق مسلما
وما كنت ممن شحَّ بالمال والقنا ... فتكنز ديناراً وتركز لهذما
فترسله للصُّفر أصفرَ عسجداً ... وإن خالفوا أرسلت أبيض معدما(٢)

وقد نهج هذا النهج الشاعر أبو بكر الداني فقال:

في نصرةِ الدين لا أُعدمت نصرته ... تلقى النصارى بما تلقى فتنخدعُ
تنيلهم نعماً في طيها نقم ... سيظفر بها من كان ينتفعُ
وقلَّ ما تسلم الأجسامُ من عرضٍ ... إذا توالى عليها الريّ والشّبَعُ
لا يخبطُ الناس عشوا عند مشكلةٍ ... فأنت أدرى بما تأتي وما تدعُ(٣)

هكذا زين هذا الصنف من الشعراء لملوك الطوائف سوء عملهم؛ إذ أظهروه حسناً حيث صوروا الجبن أمام العدو والتخلي عن الجهاد بأنه شجاعة وسياسة، ودفع الإتاوة للنصارىٰ بأنه بذلٌ في سبيل الله، ولا شك أن هذا العمل المشين لم يكن له أثره السيئ علىٰ ملوك الطوائف فحسب، بل تعدَّاهم إلىٰ بعض مسلمي

---

(١) إحسان عباس، الأدب الأندلسي في عهد المرابطين وملوك الطوائف، ص ١١.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٢٤٨.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٤٩.

الأندلس الذين قد تنطلي عليهم بعضُ الحقائق فيحسبون الباطل حقاً حينما يسمعون مثل هذا الهذيان والتدليس، لكن فئة أخرىٰ من الناس تنبهت لهؤلاء المدلسين الذين حاولوا بما قالوه إخفاء الذل والحقارة(١)، ونفي الجبن والخور والتقاعس عن الجهاد عن أولئك الخونة، وكان من بين الذين تنبهوا لهؤلاء ابن بسام الذي عاش بين ظهرانيهم فكشف خبث طويتهم، وعدم صدقهم فيما يقولون؛ حيث وصف عملهم المشين بأنه «مدح غرور، وشاهد زور، وملق مُعْتَفٍ سائل، وخديعة طالب نائل، وهيهات»(٢).

رابعاً: العصبية القبلية التي انتشرت بين مسلمي الأندلس وأثرها في تمزيق المسلمين إلى شعوب وقبائل متناحرة:

لما دخل المسلمون الفاتحون بلاد الأندلس كانوا قد انصهروا في بوتقة الإسلام حيث كان شعارهم: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [**الحجرات**: ١٣]؛ ولهذا كانوا لا يتعصبون لفارق جنس أو لون، بل كان معيارهم في المفاضلة بين الناس هو المعيار الإسلامي، وهو التقوىٰ والعمل الصالح؛ ولهذا انضووا جميعاً تحت راية واحدة، وعملوا معاً لتحقيق هدف واحد، وكانوا جميعاً وبلا غضاضة تحت قيادة طارق بن زياد(٣) ذي النسب غير العربي.

ونتيجة لهذا الشعور، وهو التجرد عن التعصب للجنس، والنزعة القبلية، والسعي لنشر هذا الدين، استطاع أولئك القوم أن يكتسحوا أرض العدو، وأن

(١، ٢) المصدر السابق، ص ٢٤٩.

(٣) هو طارق بن زياد بن عبد الله فارسي الأصل، وقيل إنه بربري الأصل من قبيلة نفزة، وقيل من صدف، وسبب هذا التباين حول أصله هو أن المؤرخين الأوائل لم يتحدثوا بالتفصيل عن حياته المبكرة، وقد اشتهر بأنه عسكري ناجح، وقائد مظفر، مخلص لدينه، ساع لنشره في العدوتين المغربية والأندلسية. (المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٢٥٤، الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٤٧).

ينشروا هذا الدين في شبه جزيرة أيبيريا، بل إنهم رأوا أن الأندلس وحدها لا تكفي، وأن عليهم أن يتوغلوا في أراضي العدو؛ حتىٰ كانت القسطنطينية هدفاً عند قائدهم موسىٰ بن نصير[١]، فقد ذكر المقري أن هذا القائد «لما توغل في الأندلس، ودوّخ أقطارها، وجمع غنائمها، وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاور إلىٰ الشام دروبه، ودروب الأندلس، ويخوض إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية مجاهداً فيهم، مستلحماً لهم إلىٰ أن يلحق بدار الخلافة»[٢].

ومما لا شك فيه أن هذا الشعور كان ناتجاً عن قناعتهم التامة وإدراكهم العميق بأن مهمة الفتح لا تنتهي عند إقليم أو جنس معين، بل كانوا يدركون بأن مهمتهم عالمية، وأن كلمة الله يجب أن تبلغ ما بلغ الليل والنهار، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾ [سبأ: ٢٨].

هكذا كان واقع مسلمي الأندلس خلال القرن الأول الهجري، فلما انتهىٰ ذلك القرن وتعاقب علىٰ بلاد الأندلس عدد من الولاة في أعقاب خلافة الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ)؛ بدأت عوامل الضعف تنخر في المجتمع الإسلامي بالأندلس، وكان من أشدها فتكاً به روح العصبية القبلية التي ظهرت للعيان منذ العقد الأول من القرن الثاني الهجري؛ حيث بدأ هذا الأمر واضحاً في ولاية الهيثم بن عبيد الله الكناني (١١١ هـ) الذي آثر قومه ضد اليمنيين؛ مما أثار اليمنيين الذين أعلنوا العصيان ضد الدولة، فاضطر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك إلىٰ عزله ومعاقبته عقاباً صارماً[٣].

---

(١) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٠٢.
(٢) نفح الطيب، ج ١، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ١، ص ١١.

هكذا كانت بدايات ظهور العصبية القبلية بالأندلس، وقد استشرت بعد ذلك بين العرب أنفسهم خلال العصر الأموي[١]، ولم يمض سوى وقت قصير حتى كشَّرت العصبية القبلية بين مسلمي الأندلس عن أنيابها، وبدأت تنخر في المجتمع الإسلامي، وهذا بلا شك مما أثر على واقع المسلمين[٢]؛ حيث أصبحت تشكل خطراً ضد الوجود الإسلامي هناك؛ على الرغم مما بذله بعض حكام الأندلس من جهود للقضاء على هذا الداء، وكان في مقدمتهم الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ)؛ حيث دفع ثمن ذلك غالياً في معركة الخندق سنة (٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م) حينما تغيّرتْ نفوس العرب ضده[٣].

ومما يذكر هنا ما فعله المنصور ابن أبي عامر (٣٦٦ هـ ـ ٣٩٢ هـ)؛ فإنه حينما تولى الأمر، عزم على القضاء على أكبر خطر في هذا الميدان، وهو خطر العصبية القبلية العربية في بلاد الأندلس؛ حيث فرق شمل القبائل العربية، كما منع العرب من الجهاد، وألزمهم إعطاء الأموال لهذا الغرض على قدر إمكانهم، مثلهم في ذلك مثل بقية الناس، فصار العرب رعية مثل غيرهم من الناس[٤].

وقد حاول تسديد الفراغ الذي نتج عن إقصاء العرب بجند البربر والمماليك والعبيد[٥]، وكان المنصور يهدف من وراء هذا الإجراء إلى إضعاف خطر العنصر العربي؛ حيث يذكر ابن عذارى أنه «بإجازة البربر أخمل بهم أولئك الأعلام

---

(١) انظر في تفصيلات ذلك: ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٤، ابن حيان، المقتبس، نشر شالمتيا، ص ٢٤١، وكذلك الجزء الذي نشره الحجي، ص ١٩٠ ـ ١٩٢.

(٢) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٥٣.

(٣) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٥٥ ـ ١٥٦، أحمد مختار العبادي، تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢١٠ ـ ٢١١.

(٤) عبد الله بن بلقين، التبيان، ص ١٦.

(٥) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٣٩٨.

الأكابر - يعني العرب -؛ فإنه قاومهم بأضدادهم، واستكثر من أعدادهم، حتىٰ تغلبوا علىٰ الجمهور، وسلبوا منهم الظهور»(١).

وبالإضافة إلىٰ ما سبق فقد كان يهدف أيضاً إلىٰ أن تكون جنوده من قبائل مختلفة؛ حتىٰ لو همَّت إحدىٰ الطوائف بالخروج عليه ونبذ طاعته غلبها بسائر الطوائف الأخرىٰ(٢).

ومهما كان هدف المنصور من هذا الإجراء، فإنه لم يكن موفقاً فيه؛ حيث إن إضعاف العنصر العربي أدىٰ إلىٰ خلل في التركيبة الاجتماعية، ومن ثم عدم التوازن بين عناصر المجتمع، فقد تفوق العنصر البربري الذي عدَّ هذا الإجراء نصراً، ومكسباً سياسياً لا بد من الاستفادة منه؛ وقد صور هذا الشعور أحد قادة البربر ويدعىٰ (وانزمار بن أبي بكر البرزالي)، حينما تقدم للمنصور في إحدىٰ المعارك «والميدان غاصٌّ بالناس، فقال له - بكلام يضحك الثكلىٰ -: يا مولاي! ما لي ولك، أسكنّي فإني في الفحص. فقال: وما ذاك يا وانزمار، وأين دارك الواسعة الأقطار؟ فقال: أخرجتني والله نعمتك، أعطيتني من الضياع ما انصب عليّ منها من الأطعمة ما ملأ بيوتي وأخرجني عنها، وأنا بربري مجوع، حديث عهد بالبؤس»(٣).

هكذا تنفس البربر الصعداء، وقد بقوا خلال العهد العامري علىٰ تلك الحال حتىٰ عهد عبد الرحمن بن أبي عامر شنجول (٣٩٢ ـ ٣٩٩ هـ)، وحينما أطل عهد المهدي سنة (٣٩٩ هـ) دخلت العصبية القبلية بالأندلس منعطفاً خطيراً؛

(١) البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٧٤.
(٢) عبد الله بن بلقين، التبيان، ج ١٧، المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٣٩٨.
(٣) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٤١٧.

حيث أظهر بغضه للبربر[١]؛ وبهذا فتح باب الفتنة على مصراعيه[٢]؛ حيث يذكر ابن عذارى أن المهدي تشدد في دخول البربر إلى القصر، وأمر بأن يجردوا من سلاحهم، كما كانوا يهانون بالألفاظ السيئة، ولم يسلم من هذا الأذى زعماؤهم، وكان من بين من تعرضوا للإهانة (زاوي بن زيري بن مناد) عند مقدمه إلى القصر مع جماعة من رجاله[٣]. ويضيف ابن عذارى أن المهدي أمر بملاحقة البربر والفتك بهم، كما أمر مناديه أن ينادي في الناس أن من أتى برأس بربري فله كذا «فتسارع أهل قرطبة في قتل من قدروا عليه، فلم يبق تاجر ولا جندي إلا عمل مجهوده في ذلك، ودخلوا على وسنار البرزالي، وكان ممن له آثار جميلة في الجهاد، فذُبح على فراشه في داره، ودخلوا على رجل صالح فذُبح في داره، ونهبت ديار البربر، وهتك حريمهم، وسبي نساؤهم»[٤].

ويواصل ابن عذارى حديثه عن هذه المسألة حيث يذكر أن هذا الموقف من قبل المهدي، لم يكن خاصاً بالبربر، بل تعداهم إلى الموالي العامرية؛ مما اضطرهم إلى الهرب إلى شرق الأندلس[٥].

هكذا كانت بداية ذلك التحول الخطير بين أجناس المجتمع الإسلامي بالأندلس، وعلى الرغم من أن جذور تلك الأخلاق الجاهلية قد بدت منذ زمن بعيد في بلاد الأندلس؛ حيث كانت في بداية أمرها بين العرب أنفسهم؛ فإن كثيراً من المؤرخين يُحمِّلون المهدي مسؤولية كبيرة في هذا العمل المشين؛ ولهذا قال عنه

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٤٢٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ق ٢، ص ٦٤٣.
(٢) خليل السامرائي، علاقات المرابطين بالممالك النصرانية، ص ١٦.
(٣) البيان المغرب، ج ٢، ص ٧٥.
(٤) المصدر السابق، ج٣، ص ٨١.
(٥) المصدر السابق، ج ٣، ص ٨٣.

ابن حيان: «مفرق الجماعة بقرطبة، ومبتعث تلك الفتنة المبيرة»[(١)]، كما وصفه ابن الأبار بقوله: «باعث الفتنة بالأندلس، وموقد نارها الخامدة، وشاهر سيفها المغمد. . . وأول من أرث نارها وأورث شنارها»[(٢)]، أما ابن عذارىٰ فقد قال عنه إنه: «أشأم خليفة علىٰ وجه الدنيا، وكان حجاب المهدي من لوكي الخدم، وأراذل المتجندة من العامة ذوي المهنة، لم ينتقهم ولاتخيّرهم»[(٣)].

ونتيجة لتلك المعاناة التي لقيها البربر فإنهم بدؤوا بمناهضة المهدي؛ حيث أعلنوا الثورة ضده، وبدؤوا يخططون للإطاحة به، فلما علم بذلك أراد التقرب إليهم بأن يصلح ما أفسده، فنادىٰ مناديه بأن «من آذىٰ بربرياً أو تعرض له كانت عقوبته السيف، فكفَّ الناس عنهم»[(٤)]، ولم يكن هذا العفو خاصاً بالمقيمين في قرطبة بل كان لكل البربر في بلاد الأندلس[(٥)].

وقد أظهر البربر المقيمون في قرطبة قبول هذا الأمر، فحضر زعماؤهم إلىٰ المهدي الذي كلمهم كلاماً لطيفاً، وألبسهم القلانس والأردية، وأمرهم بأن يزيلوا الزي الذي اعتادوا أن يلبسوه، وأن يلبسوا كباقي الناس، فأعلنوا خضوعهم لطاعته، والصفح عما مضىٰ[(٦)].

أما البربر الذين كانوا يقيمون خارج قرطبة آنذاك، ونزحوا منها حينما أطلق المهدي أيدي الناس ضدهم؛ فإنهم لم يأبهوا بهذا الأمر علىٰ الرغم من أن المهدي قد كتب لهم بالأمان، حيث تجمَّعوا في قلعة رباح، وبدؤوا ينظمون أنفسهم، ثم

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٢٧.
(٢) الحلة السيراء، ج ٢، ص ٥، ٣٠.
(٣) البيان المغرب، ج ٣، ص ٧٤ ـ ٧٥.
(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ٨٢.
(٥) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١١٣، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٨٢.
(٦) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٨٢، خالد الصوفي، تاريخ العرب في إسبانيا، ص ١٧.

التفوا حول سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر(١)، وبايعوه، ولقَّبوه بـ(المستعين(٢) بالله)، وذلك في شوال سنة ٣٩٩هـ(٣).

هكذا تطور الخلاف بين المسلمين بسبب النزعات العصبية الجاهلية التي نهجها المهدي ضد البربر؛ وهذا مما أدىٰ إلىٰ حرب أهلية بين المسلمين أنفسهم، وقد استغل النصارىٰ هذا الخلاف فأذكوا ناره، كما حاولوا قدر المستطاع الاستفادة منه وتسخيره لخدمة مصالحهم؛ حيث كان (سانشوغرسيه) ملك قشتالة ينتظر مثل هذه الفرصة حتىٰ يثأر للنصرانية، ويستعيد المعاقل والحصون التي كان عبد الرحمن الناصر والمنصور ابن أبي عامر قد قضيا حياتهما في تحصينها وتزويدها بما تحتاجه من مال ورجال(٤).

وقد جاءت الفرصة مواتية للملك النصراني؛ حيث إن سليمان المستعين لم يتردد في الاستعانة به فور توليه الأمر؛ وأرسل رسله إليه يطلب منه المدد والمساعدة ضد المهدي(٥)، ويذكر ابن عذارىٰ أن أولئك الرسل وجدوا عند (سانشو) رسل المهدي يسألونه الصلح علىٰ أن يعطوه ما أحب من مدن الأندلس،

---

(١) يذكر ابن عذارىٰ أن التفاف البربر حول سليمان جاء بعد هزيمة هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر (الرشيد) الذي كان أول من تجمع حوله البربر بعد أن أظهر المهدي موقفه العدائي ضدهم، لكن المهدي هزم الرشيد قرب قرطبة؛ وذلك في أوائل شوال من سنة ٣٩٩ هـ. (ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٨٣).

(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٣٦، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١١٣.

(٣) ابن بسام الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٣٥-٣٦، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١١٣، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٨٢-٨٣.

(٤) رجب محمد عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، ص ٢٦٤.

(٥) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ١، ص ٦، ابن الخطيب أعمال الأعلام، ص ١١٣، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٨٦.

كما حملوا إليه هدية جزلة[١].

بهذه العروض الدنيئة التي تلقاها الملك القشتالي من لدن بعض زعماء مسلمي الأندلس الذين غرقوا في مستنقع العصبية القبلية، أصبح ذلك الزعيم هو سيد الموقف؛ حيث رأىٰ إجابة رسل المستعين، بعد أن اشترط علىٰ البربر أن يعطوه إذا ظفروا ما أحب من مدائن الأندلس، فقبلوا ذلك[٢].

ويبدو أن (سانشو) أجاب البربر ولم يجب أهل قرطبة مؤيدي المهدي بسبب كون البربر أقلية، وإمكاناتهم كانت قليلة، فلو لم يؤيدهم ربما لا يستطيعون الصمود أمام خصومهم، وبالقضاء عليهم تنتهي الحرب الأهلية بين المسلمين، وهو ما لا يريده النصارىٰ، بل كانوا يريدون إذكاء تلك الحرب حتىٰ تأكل الأخضر واليابس مما يضعف المسلمين جميعاً، ويدل علىٰ هذا الأمر أن الملك النصراني فور اتفاقه مع البربر أمدَّهم بألف عجلة من الدقيق، والعقاقير، وأنواع المآكل، وألف ثور، وخمسة آلاف شاة، وجمع ما يصلحهم حتىٰ الفحم والعسل، والسروج والشفق للباسهم وهذا مما قوّىٰ موقف البربر[٣]، وهكذا تمكن النصارىٰ من إذكاء نار الحرب بين مسلمي الأندلس؛ وهذا بلا شك مما يضعف المسلمين فضلاً عن إعاقته لعمليات الجهاد ضدهم، وإعطائهم الفرصة لمحاربتهم والثأر منهم.

ويبدو أن النصارىٰ كانوا حريصين علىٰ الاستفادة من تلك الفرصة المتاحة لهم قبل فوات أوانها؛ ولهذا توجه (سانشو) بنفسه علىٰ رأس جيش كبير نحو البربر وزعيمهم المستعين حيث اتفقوا قرب مدينة سالم، ويبدو أنهم كانوا متخوفين من المهدي وجيشه؛ ولهذا حاولوا اختراقه حيث كاتبوا واضح الصقلبي - حاكم مدينة سالم من قِبَل المهدي - ودعوه إلىٰ المصالحة والكفِّ عن قتالهم لكنه رفض عرضهم، كما أخذ يستعد لمقاتلتهم[٤]، وقد وقعت بين الطرفين معركة

(١، ٢، ٣، ٤) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٨٦.

بالقرب من شرنية، وذلك في ذي الحجة سنة ٣٩٩ هـ؛ تمكن البربر والنصارىٰ من الانتصار فيها علىٰ جيش واضح الذي لاذ بالفرار إلىٰ قرطبة فتبعوه، ثم وقعت بينهما معركة أخرىٰ قرب قرطبة في مكان يسمىٰ (قنتيش)، وذلك في ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ، وقد تمكن البربر والنصارىٰ من الانتصار علىٰ المهدي وجيشه، وقتلوا منهم أعداداً كثيرة، أما المهدي وحليفه واضح فقد هربا إلىٰ طليطلة، وبعد أن دخل البربر قرطبة بايعوا المستعين خليفة في قرطبة، وذلك في ١٧ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ[١].

وقد تمخض عن هذه المعارك عدد من النتائج السلبية على المسلمين، ومن أهمها:

١ ـ أن تلك الحروب التي وقعت بين المسلمين نتيجة لمنافسات عرقية وذاتية قد زادت من هوة الخلاف بينهم ولا سيما أن القتلىٰ من الطرفين كانوا كثيرين؛ وبهذا تأكد انقسام المجتمع الإسلامي في الأندلس إلىٰ فريقين متحاربين، وقد كان لهذا الأمر نتائجه السيئة كما سنرىٰ.

٢ ـ إن إدخال النصارىٰ في تلك القضية كان فرصة ذهبية لهم؛ حيث زادوا من هوة الخلاف بين المسلمين، كما أعملوا السيوف في رقابهم، وقد ذكر ابن عذارىٰ أن النصارىٰ قتلوا في معركة (قنتيش) ثلاثين ألفاً من المسلمين؛ حيث كان ذلك اللقاء الأول للمشركين علىٰ المسلمين[٢].

٣ ـ إن مقاتلة القوىٰ النصرانية جنباً إلىٰ جنب مع البربر والمستعين بالله، وضد المهدي وأهل قرطبة، كسرت الحاجز النفسي الذي كان موجوداً بين مسلمي الأندلس والنصارىٰ، وهذا بلا شك كانت له آثاره السيئة علىٰ مسلمي تلك

(١) انظر في تفصيلات ذلك: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١١٣، المراكشي، المعجب، ص ٨٩، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٩٠، المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٤٢٨.

(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٨٣، ويذكر عبد الواحد المراكشي أنه قُتل من أهل قرطبة عشرون ألف رجل ونيف، (المعجب، ص ٦٥).

الديار ؛ حيث صار الركون إليهم والاستعانة بهم أمراً مألوفاً عند المسلمين هناك ؛ فقد ذكر المؤرخون أن الخليفة المهدي المهزوم استنجد بنصارىٰ برشلونة ، كما طلب من حاكمها رامون المساعدة في استعادة ملكه الضائع ، وكان رسوله إليه واضح الصقلبي ، وقد أملىٰ النصارىٰ شروطهم علىٰ واضح فقبلها ، ومن أهم تلك الشروط :

١ ـ أن يسلّمه المسلمون مدينة سالم ، قاعدة الثغر الأوسط ؛ حيث أخلاها واضح ممن كان فيها من المسلمين ، وسلّمها للنصارىٰ الذين حوّلوا مسجدها إلىٰ كنيسة[1] .

٢ ـ أن يلتزم واضح بدفع دينارين لكل رجل منهم في كل يوم ، ومائة دينار لزعيمهم ، كما اشترطوا عليه أن يوفر ما يلزمهم من المؤن والطعام والشراب[2] .

٣ ـ كما اشترطوا عليه أن للنصارىٰ كلَّ ما حازوه من عسكر البربر من سلاح وكراع ، وأن نساء البربر ودماءهم وأموالهم حلال لهم ، لا يحول أحد بينهم[3] .

وعلىٰ الرغم من تعنت النصارىٰ في شروطهم فقد قبلها المهدي طمعاً في الوصول إلىٰ الحكم مرة أخرىٰ ضارباً بمصلحة البلاد والعباد عرض الحائط ، ودون أن يحسب للعواقب السيئة المترتبة علىٰ ذلك العمل المشين حساباً .

أما الجيش النصراني فقد توجه بقيادة ملك برشلونة وصحبة واضح الصقلبي نحو طليطلة ؛ حيث قابلوا فلول جيش المهدي ، ثم توجهوا جميعاً نحو قرطبة ، وبالقرب منها التقوا جيش سليمان المستعين ، وذلك في شوال سنة ٤٠٠ هـ ، وفي بداية المعركة انهزم جيش المهدي حيث قتل القائد النصراني وعدد كبير من جنده ، لكن في نهاية الأمر حصل ارتباك في قوات المستعين ؛ وهو ما مكّن خصومه من

(١ ، ٢ ، ٣) ابن عذارىٰ ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٩٤ .

الانتصار عليه حيث عُينّ المهدي خليفة للمرة الثانية، فأعطىٰ النصارىٰ ما اشترطوه، كما أخذ في مطاردة فلول البربر لكنه انهزم أمامهم؛ حيث انقض عليه حلفاؤه الصقالبة، فقتلوه في ذي الحجة سنة ٤٠٠ هـ(١).

هكذا استشرت نعرة العصبية القبلية بين مسلمي الأندلس؛ ومما لا شك فيه أن هذه النعرة خلّفت آثاراً نفسية وسياسية وعسكرية واجتماعية خطيرة، أثرت في واقع المسلمين هناك، كما أغرقتهم في أوحال الحرب الأهلية؛ مما أضعفهم ومكَّن العدو النصراني منهم، ولم يكن النهوض من هذه الكبوة سهلاً عليهم بعد ذلك، فقد سفكت الدماء وانتشرت الثأرات، وفسدت القلوب بين فئات المجتمع الإسلامي هناك؛ حيث كان أهل قرطبة علىٰ الرغم من عظيم محنتهم مصرّين علىٰ منابذة البربر وعدم الصلح معهم؛ حتىٰ إن من ذكر الصلح أو دعا إليه قتل(٢).

ونتيجة لهذا الشعور وتلك القناعات، فقد عدَّ مسلمو قرطبة النصارىٰ أكبر منقذ لهم؛ حيث يذكر ابن عذارىٰ أنه حينما رحل النصارىٰ إلىٰ بلادهم بعد هزيمة المهدي سنة ٤٠٠ هـ حزن القرطبيون علىٰ رحيلهم «حتىٰ كان بعضهم يلقىٰ بعضاً فيعزيه كما يعزي من فقد أهله وماله أسفاً علىٰ رحيلهم، وجزعاً من وصول البربر إليهم»(٣).

---

(١) انظر في تفصيلات ذلك: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١١٥، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٩٨، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ق ٢، ص ٦٤٩.

(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٠٣، ويذكر ابن عذارىٰ أن رجلاً من وجوه أهل العلم، قال في الجامع: اللهم أصلح علينا. فقتل في مكانه، وقال آخر في الجامع: إن الله أحب الصلح وأمر به. فقتل في الحين، (البيان المغرب، ج ٣، ١٠٣).
كما ذكر أيضاً أن النصارىٰ كانوا إذا سمعوا الأذان للصلاة يقولون قولاً لا يذكر؛ فلا يعترض عليهم أحد بشيء!! وجمع أهل قرطبة مالاً كثيراً لهم، ثم سألوا القاضي ابن ذكوان أن يدفع إليهم مال الأحباش المودع في مقصورة الجامع فامتنع عليهم، فكسروا باب المقصورة وأخذوه ودفعوه إليهم!! (البيان المغرب، ج٣، ص ٩٨).

(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٩٩.

وفي سنة ٤٠١ هـ ازداد تعدي البربر على أهل قرطبة كما هاجموا مالقة، والبيرة، والجزيرة الخضراء، مع تشديدهم الحصار على قرطبة، وفي الوقت نفسه حاول سليمان المستعين التحالف مع الملك القشتالي ضد هشام المؤيد الذي بويع خلفاً للمهدي على أن يسلمه بعض الحصون والثغور الإسلامية في شمال الأندلس، لكن واضح الصقلبي ما أن علم بهذه المحاولة من قبل البربر حتى قدّم للملك القشتالي عرضاً أكبر من سابقه، وذلك باسم الخليفة هشام المؤيد؛ حيث عقد معه اتفاقية يتم بمقتضاها تسليم جميع الحصون التي كان قد استولى عليها كل من الحكم المستنصر والمنصور ابن أبي عامر وابنه عبد الملك المظفر(١)، وتقدر هذه الحصون بمائتي حصن تقريباً؛ مما أفقد المسلمين خط دفاعهم القوي ضد القوى النصرانية(٢).

وبالرغم من التنازلات الكبيرة التي قدمها هشام المؤيد مع مساعده واضح للعدو النصراني؛ فإن هذا الأمر أصبح مطلباً عاماً استساغه جميع الناس من خاصة وعامة؛ حيث إنه لما وصل رسل الملك النصراني إلى قرطبة «حضر الفقهاء والقاضي، والعدول وكتبوا كتاباً بالشروط وتسليم الحصون للنصارى، وقرئ على الناس بحضرة هشام وواضح، وشهد فيه جميع من حضر، وخرج القوم من القصر مستبشرين بما كان»(٣).

ومما لا شك فيه أن الملك القشتالي أراد من وراء صلحه مع هشام المؤيد أن يضرب المسلمين بعضهم ببعض كما فعل قبل ذلك، إضافة إلى رغبته في إطالة أمد الصراع بين المسلمين أنفسهم، وهذا مما يضعف المقاومة الإسلامية ويشعل نار

---

(١) ابن الخطيب أعمال الأعلام، ص ١١٧، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٠٣.
(٢) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ق ٢، ص ٦٥١، عبد المجيد نعنعي، الدولة الأموية في الأندلس، ص ٥١٣.
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٠٣.

الحرب الأهلية فيما بينهم حتىٰ يأكل المسلمون بعضهم بعضاً[١]، وقد تم ذلك بالفعل حيث خرَّبت تلك الحرب الأهلية مدناً كثيرة، كما قتل أكثر أهلها حتىٰ إن الراكب يمشي شهوراً لا يرىٰ أحداً في طريق ولا قرية[٢].

وقد استمرت تلك الفتنة التي يشعل نارها كل من واضح الصقلبي باسم الخليفة هشام المؤيد والخليفة سليمان المستعين حتىٰ قتل هشام المؤيد سنة ٤٠٣ هـ حين تغلب علىٰ الأمر سليمان المستعين، وقد استمر حكم سليمان للمرة الثانية حتىٰ سنة ٤٠٧ هـ[٣].

هكذا تمخّض ذلك الصراع القبلي بين المسلمين أنفسهم عن انقسام مسلمي الأندلس إلىٰ طائفتين متحاربتين، فالحزب البربري رأىٰ أن يصرف الأمر عن الأمويين بعد مقتل سليمان المستعين سنة ٤٠٧ هـ، وأن يختاروا الخليفة من بني حمود ذوي النسب الشريف.

أما الحزب الآخر الذي يتكون من بقايا الأمويين والعامريين، ومماليكهم من الصقالبة والعبيد، وجمهرة العامة، وبخاصة في المدن الكبرىٰ مثل قرطبة، وإشبيلية، والمرية؛ فقد أصروا علىٰ بقاء الأمر للأمويين[٤]، ويطلق علىٰ هذا الحزب لقب الجماعة[٥].

---

(١) رجب محمد عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، ص ٢٦٧.
(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٠٤.
(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٩٧، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١٢٨، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٣١٧-٣٢٠.
(٤) هنري بيريس، الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف ملامحه العامة، وموضوعاته الرئيسة، وقيمته التوثيقية، (ترجمة الطاهر أحمد مكي)، ص ١٥، محمد بن عبود، جوانب من الواقع الأندلسي، ص ٤٦، وإبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتىٰ سقوط الخلافة، ص ٣٥١ - ٣٥٣.
(٥) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٧١.

وقد تمخّض عن هذا الانقسام ضعف الحكم الأموي ثم سقوطه في سنة ٤٢٢ هـ، ليقوم على أنقاضه عدد من الكيانات السياسية التي اتكأت كثيراً على النزعة القبلية معلنة بذلك قيام عصر ملوك الطوائف، ويذكر ابن عذارى أن تلك الدول التي تتكون منها دول الطوئف تشكل اتجاهين رئيسين حيث يقول: «وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة تميز أمراء الأندلس وملوكهم من قبائل البربر وغيرهم، وصاروا فريقين ما منهم من يحذر الدار الآخرة»(١).

أما ذانك الحزبان فهما:

١ ـ **الحزب الأندلسي**: وقد ذكر ابن حيان أنه يتكون من ابن جهور في قرطبة، وابن عباد في إشبيلية، وابن هود في سرقسطة، وعبد العزيز بن أبي عامر في بلنسية، وابن صمادح في المرية، وسعيد بن رفيل في شقورة، وابن قرة في رندة، والبرزالي في قرمونة، وغيرهم(٢).

٢ ـ **الحزب البربري**: ويتألف من إدريس بن يحيى صاحب مالقة، وباديس بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة، وكان البربر يدعون لإدريس بن يحيى بن علي بن حمود الحسني(٣).

وعلى الرغم من قلة نفوذ البربر فإنهم أصبحوا يشكلون خطراً على كيانات الحزب الأول؛ إذ كانوا «نمطاً واحداً، متظاهرين على عظيم البرابرة يومئذ باديس ابن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة ومن تميز معه من البربر، ومن يدعو إليه، وكانوا متعاضدين متناصرين على من يباينهم من الأمراء»(٤)، وقد أثرت هذه

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١١٩.
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢١٩، وانظر تفصيلات ذلك في هنري بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ١٧، ويدخل في هذا الإطار الدول الصقلبية التي قامت في شرقي الأندلس في مدن: المرية، ودانية، وطرطوشة، وبلنسية وغيرها. (عبد المجيد نعنعي، الإسلام في طليطلة، ص ١٠٦).
(٣) هنري بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ١٧.
(٤) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢١٩.

النزعة القبلية على علاقات ملوك الطوائف فيما بينهم؛ إذ كان لها أثر واضح في واقع المسلمين السياسي والعسكري، فبالإضافة إلى المنازعات والخلافات التي وقعت بينهم بسبب المصالح والمطامح المادية، والسياسية، كانت هناك أيضاً خلافات أوجدتها النزعات القبلية والعرقية، تجاوز ملوك الطوائف في التعامل معها الأعراف الدولية آنذاك؛ حيث أضحت القسوة واللجوء إلى الأساليب البشعة من السمات السائدة في التعامل فيما بينهم أثناء النزاعات والحروب الواقعة فيما بينهم.

وكان من أشد الدول قسوة على البربر، الدولة العبادية، حيث وُصف المعتضد ابن عباد بأنه هو الذي قطع دابر أمراء البرابرة[1]؛ إذ كان في تعامله مع زعمائهم لا يردعه أي وازع من دين أو ضمير في سلوك أبشع الأساليب، فقد ذكر ابن عذارى أنه صدم شرّهم بشرّهم، وضرب زيدهم بعمرهم، ثم إنه دعا زعماء بني يقرن الزناتيين حكام إقليم تاكرنا لزيارته في إشبيلية حيث «أذن لهم في اليوم الثالث من وصولهم في الدخول عليه، فدخلوا عليه وأخذوا مجالسهم عنده فأفضى به الحديث إلى عتابهم في قلة جدهم معه في حرب أعدائه، فخاطبهم في ذلك بكلام خشن، فبجهلهم أرادوا المناصفة لأنفسهم، فردّ عليه محمد بن نوح الدمري صاحب مورور - أحد زعمائهم - فوكزه المعتضد ابن عباد بيده، وصاح بعبيده، . . . فأقاموهم أسوأ قيام من الشتم والهوان ينتفون لحاهم؛ لانخداعهم حتى حصلوا في يد عدوهم، فأمر ابن عباد في الحين بتكبيلهم، وتنكيلهم وسجنهم في مواضع شتى لا يلتقي أحد منهم بغيره، . . . وأمر بأخذ جميع خيلهم وسلاحهم وأخبتهم وجميع ما احتووا عليه، وقد كان أكثرهم تداينوا واستعاروا للأبهة والفخامة على ابن عباد، . . . ثم أمر بهم فأخرجوا من

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٧٣.

محابسهم، . . . وأمر بتطييب الحمام لهم، . . . فلما دخلوا الحمام وجلسوا بإزاء الحوض خرج العبيد عنهم، وقد أعدوا الجيار والآجر؛ فبنىٰ عليهم علىٰ دفة بيت الحمام، وأمر السخان أن يكثروا الوقد، فالتهب الحمام، فقاموا من موضعهم يرومون الخروج فلم يجدوا مخرجاً، فكان آخر العهد بهم»[(١)].

بهذا المستوىٰ من الدناءة والخسّة كانت معاملة المعتضد ابن عباد لخصومه البربر، فالرسل لا تقتل بل تُكرم وفادتها؛ فأين من يقيم لمثل هذا الخلق قدراً، بل أين من يعي الأعراف والتقاليد فضلاً عن الآداب والأخلاق الإسلامية؟! إن مستنقع العصبية القبلية الذي غرق في أوحاله ذلك الرجل وأمثاله من ملوك الطوائف، قد أنساهم كل هذه الاعتبارات، حيث يذكر المؤرخون أن المعتمد كانت لديه خزانة في جوف قصره أودعها رؤوس الملوك الذين أبادهم من البربر وغيرهم، وقد سمَّىٰ ذلك المكان حديقة الموت، حيث جعلها رمزاً لقوته وبطشه[(٢)].

وعلىٰ الرغم من قلة عدد البربر في بلاد الأندلس مقارنة بغيرهم من الأجناس، وما تعرضوا له من حروب قاسية في أثناء عصر ملوك الطوائف، فقد كانوا قوة ضاربة يستعين بهم ملوك الطوائف في أوقات الشدة وساعات الخطر، يقول ابن عذارىٰ: «وكان في كل بلد جملة منهم اقتسموا قواعد الأرض مضرّبين بين ملوكها؛ فلا يُقاتل الأعداء إلا بهم، ولا تُسكن الأرض إلا بجوارهم»[(٣)].

ومما يمكن أن يذكر في هذا الميدان، هو أن قتال البربر عدَّه كثير من مسلمي الأندلس أنه الجهاد الأكبر[(٤)]، وهذا بلا شك من الظواهر المنذرة بالخطر؛ إذ كيف

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠٦، ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ٥٠، رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٧٦.
(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٠٣.
(٤) المصدر السابق، ج٣، ص ٩٨.

تصل قناعات الناس إلىٰ هذا المستوىٰ علىٰ الرغم من كونهم جميعاً من المسلمين، يدينون بدين واحد، ودخلوا الأندلس من أجل تحقيق أهداف معينة، بل غايات نبيلة.

ولم يكن هذا السمُّ الزعاف والخلق الجاهلي خاصاً بعلاقات جنس مع آخر، بل إنه كان مستشرياً حتىٰ بين أفراد الجنس الواحد؛ فالعصبية القبلية استشرت بين البربر أنفسهم ولا سيما بين صنهاجة وزنانة، وفي هذا يقول ابن عذارىٰ: «وركبت صنهاجة ولفها من زنانة أكتاف القوم باذلين السيف فيهم بصدق العصبية، وإيثار الأفناء، فلم يبقوا علىٰ أحد قدروا عليه، فأساؤوا الاعتداء وأبادوا أمة»[١].

كان هذا عرضاً سريعاً للعصبية القبلية في الأندلس، وقد تبيّن لنا من خلاله كيف أدت تلك الظاهرة الجاهلية إلىٰ إضعاف المجتمع الإسلامي، وتمزيقه إلىٰ أشلاء ضعيفة لم تستطع الوقوف في وجه الخطر النصراني، فتهاوىٰ ذلك الصرح الشامخ حين ضعف الجهاد وتحوَّلت عملياته إلىٰ حروب ثأرية، ونزاعات أهلية، لا هدف لها سوىٰ إرضاء الذات والثأر للقبيلة مهما كانت النتائج المترتبة علىٰ ذلك.

كما تبين لنا ـ أيضاً ـ أن وباء العصبية القبلية، وإن كان قد ظهر في بلاد الأندلس منذ وقت مبكر من عصر ملوك الطوائف؛ فإن هذا المرض العضال بقيت نتائجه وآثاره السلبية تنخر في كيان المسلمين هناك، بل إن ظهوره مبكراً وبشكل قوي كان سبباً رئيساً في تأصيل كثير من المفهومات الخاطئة عند المسلمين عامة، وملوك الطوائف خاصة، وهذا بلا شك مما جعل الاتجاه القبلي والعصبي ـ وغيره من المصالح الذاتية ـ مقدماً علىٰ سواه من مصالح المسلمين العامة، بل إن الاتجاه القبلي ربما كان هو الموجه الأول لسياسات تلك الدول الداخلية والخارجية.

وخلاصة القول: إن هذا الوباء الذي حل بساحة المسلمين بالأندلس في عصر ملوك الطوائف كان من أكبر الأوجاع التي عملت علىٰ إضعافهم معنوياً ومادياً؛ ومن ثم عجزوا عن إدارة شؤونهم فضلاً عن مقاومة أعدائهم، والتصدي لهم.

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٧١.



١ ـ الفوضى السياسية.

٢ ـ التكالب على المصالح الدنيوية والتطاحن من أجلها.

٣ ـ النزاع الداخلي بين الأسر الحاكمة.

٤ ـ موالاة كثير من ملوك الطوائف للنصارى وإذعانهم لتبعيتهم.

٥ ـ حياة الترف والخلاعة والمجون.

مظاهر الضعف المعنوي

أولاً: الفوضى السياسية:

لعل ما خلفه لنا المؤرخون من تسميات عدة لعصر ملوك الطوائف، دليل واضح على الضعف العام الذي مُني به مسلمو الأندلس في ذلك العصر؛ إذ إن لكل تسمية دلالة معينة، كما أن لكل اسم أو مصطلح أُطلق على ذلك العصر معنى خاصاً يمكن أن يشار به إلى ذلك العصر، فقد أُطلق على زعماء ذلك العصر ملوك الطوائف[(١)]، وأمراء الفرقة الهمل[(٢)]، كما سمَّاهم ابن الخطيب بمقتسمي الملك من بعد الجماعة[(٣)]، وهذه الأسماء ما هي إلا قوالب للمعاني التي تشير إليها وترمز لها.

وبسبب هذا الضعف وذلك التمزق لم يعد للسلطة والسلطان قوة، كما لم يعد للوازع السلطاني قدر يذكر عند عامة الناس؛ إذ أصبحت مسمَّيات الإمارة أو الوزارة ونحوها مثار الضحك ومدعاة للسخرية؛ لأنهم أصبحوا دمى أو شبهها[(٤)]، وقد رصد هذا الشعور عند الناس الشاعر أبو الربيع سلمان القضاعي ثم سجلها بقوله:

هَبْكَ كما تدّعي وزيراً ... وزيرُ مَنْ أنت يا وزير؟!
والله ما للأمير معنى ... فكيف من وزرَ الأمير؟![(٥)]

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٢٢، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢١٩.
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٥٤.
(٣) أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٨٣ - ٢٢٦.
(٤) صالح محمد السنيدي، دولة بني جهور في قرطبة، (رسالة ماجستير لم تنشر)، ص ٤٩.
(٥) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٥١٤، ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٤٢٤، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٤٧.

هـذا عن ملـوك الطوائف ، أما ذلك العصـر فقـد سُمِّي بعصـر الفتنة[١]، أو الفِرَق [٢]، أو الفتنة المبيرة[٣].

ومما لا شك فيه أن هذه المصطلحات والأسماء العديدة تدل على وضع مضطرب كانت له آثارٌ سيئة على كثير من شؤون حياة الناس في ذلك البلد في أثناء ذلك العصر. ومما يمكن ذكره هنا أن هذا الضعف أثَّر على جوانب مختلفة من حياة الناس، فقد أصبح الضعف سمة عامة انعكست آثارها على واقع المسلمين هناك، وفي هذا يقول ابن حيان شيخ مؤرخي الأندلس: «دهرنا هذا قد غربل أهليه أشد غربلة، فسفسف أخلاقهم، واجتث أعراقهم، وسفَّه أحلامهم، وخبَّث ضمائرهم، فاحتوى عليهم الجهل، واقتطعهم الزيف، وأركستهم الذنوب، ووصمتهم العيوب، فليسوا في سبيل الرشد بأتقياء، . . . يعلِّلون نفوسهم بالباطل، وذلك من أدل الدلائل على فرط جهلهم بشأنهم واغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية نبيهم ﷺ، وذهولهم عن النظر في عاقبة أمرهم، وغفلتهم عن سد ثغرهم حتى ظل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم يتبجح عراص ديارهم، ويستقرئ بسائط بقاعهم، يقطع كل يوم طرفاً منهم، ويبيد أمة»[٤].

هكذا كانت حالة أولئك القوم فقد تمزقت وحدتهم السياسية، وضعفت حياتهم الاقتصادية، هذا فضلاً عما أصاب عامة الناس من ضعف وخور، وفي الصفحات التالية نفصِّل القول في هذه الجوانب.

إن من العوامل القوية للفوضى السياسية التي حلت بمسلمي الأندلس في

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٢٥، عبد الله بن بلقين، التبيان، ص ٥٦، ٥٨، ٦٩.
(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٧٨.
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ١٥٥.
(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٨٨ ـ ١٨٩.

عصر الطوائف فقدان الشرعية لقيام تلك الدويلات المتغلبة؛ ذلك لأن الحاكم في الدولة المسلمة إنما يكتسب شرعية وجوده ثم بقائه من الأمة نفسها فهو كالوكيل عنها في إدارة شؤونها؛ «لأن تقليد الخليفة نيابة عن المسلمين» كما يقول الماوردي[١]، وتثبيت هذه الشرعية للدولة بمبايعة الأمة للحاكم[٢]، لكن دول ملوك الطوائف كانت بعيدة عن هذا المنهج، فباستثناء أبي الحزم ابن جهور، فإن حكامها متغلبون، يقول ابن الخطيب عنهم بأنهم: «ليس لأحدهم في الخلافة إرث، ولا في الإمارة سبب، ولا في شروط الإمامة مكتسب»[٣].

فملوك الطوائف يفتقدون الشرعية؛ لأنهم أمراء فرضوا أنفسهم على الناس بالغلبة، وبدون مبايعة الناس لهم أو قبولهم منهم، هذا فضلاً عن ظلمهم وجورهم وموالاتهم لأعدائهم، واستعانتهم بهم[٤]، وهذا بلا شك كان من العوامل القوية التي خلقت الفوضى السياسية عندهم، ونثرت عقدها، ومزقت وحدتها، فبعد أن كان الناس يخضعون لمظلة دولة إسلامية واحدة، ويقودهم كيان سياسي واحد تمتد حدوده من جبال البرنس شمالاً إلى مضيق جبل طارق جنوباً، ومن بحر الروم شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، تمزق هذا الكيان إلى أشلاء متناثرة[٥]؛ حيث اقتسم ملوك الطوائف أراضي الدول الأموية مما أضعفهم جميعاً، وفي هذا يقول الشاعر أبو علي الحسن بن رشيق:

مما يزهدني في أرض أندلس ... سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهرِّ يحكي انتفاخاً صولة الأسدِ[٦]

---

(١) الأحكام السلطانية، ص ٢٢٠.

(٢) ضياء الدين الريس، التنظيمات السياسية، ص ١١٤.

(٣) أعما ل الأعلام، القسم الثاني، ص ١٤٤.

(٤) ليث جاسم، ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ، ص ٦٤.

(٥) محمد عبد الله عنان، الدولة العامرية، ص ٢.

(٦) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٤٤، المراكشي، المعجب، ص ١٠٥.

أما ابن حزم العالم الأندلسي الذي عايش ذلك الوضع فقد قال: «فضيحة لم يقع في العالم إلىٰ يومنا مثلها: أربعة رجال في ثلاثة أيام في مثلها، كلهم يتسمَّىٰ بإمرة أمير المؤمنين، ويُخطَب لهم فيها في زمن واحد»[١].

كما قال ابن الكردبوس: «إن هذا الضعف قد أذل الرئيس والمرؤوس كما أفسد أحوال الجميع بالكلية»[٢]، حيث «جرت حروب خاف الناس وبال عاقبتها علىٰ ثغور مثغورة خلال كلمة مختلفة وقرىٰ متكئة»[٣].

ولم يكن هذا الضعف وتلك الفوضىٰ السياسية خافية علىٰ العدو النصراني المتربص؛ ومما يدل علىٰ ذلك مقولة ألفونسو السادس ـ ملك قشتالة ـ لرسول المعتمد ابن عباد حين قدم إليه: «كيف أترك قوماً مجانين تسمَّىٰ كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم، وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا علىٰ المغاني والعيدان، وكيف يحل لبشر أن يقر منهم علىٰ رعيته أحداً، وأن يدعها بين أيديهم سدىٰ؟!»[٤].

ومما لا شك فيه أن هذا الواقع السياسي الممزق، وتلك الفوضىٰ السياسية قد خلفت آثاراً نفسية واجتماعية سيئة، بسبب سوء التعامل وحساسية الموقف بين أولئك القوم؛ حيث كان بينهم من التحاسد والتنافس والغيرة ما لا يكون بين الضرائر المترفات، فلم يتعاونوا علىٰ بر أو تقوىٰ، كما لم يسعوا لمصلحة إسلامية، بل انصبت كل جهودهم علىٰ توفير ما يخدم مصالحهم الخاصة[٥]،

---

(١) نقط العروس في تواريخ الخلفاء، ص ٨٣ ـ ٨٤.
(٢) تاريخ الأندلس، ص ٧٧ ـ ٧٨.
(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٤.
(٤) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٩.
(٥) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٤٤.

فانقطعت السبل وظهرت الوحشة في البلد، كما كثر القتل والهرج والسلب، وأمسىٰ الناس في مثل عصر الجاهلية[١]، وهذا بلا شك هو الذي دفع الفقهاء وأهل الشورىٰ من المغرب والأندلس إلىٰ الفتوىٰ بخلعهم، وانتزاع الأمر من أيديهم[٢].

وقد انعكست آثار هذه الفوضىٰ السياسية علىٰ حياة الناس؛ حيث ضعفت الحياة الاقتصادية عندهم فعانىٰ مسلمو الأندلس من جشع أولئك الزعماء «الذين كانوا يجعلون من ممالكهم ضياعاً خاصة، يستغلونها بأقسىٰ الوسائل وأشنعها، ويجعلون من شعوبهم عبيداً يستضعفون ثرواتهم، وثمار كدّهم، إرضاء لشهواتهم في إنشاء القصور الباذخة، . . . وقد ترتب علىٰ ذلك أن انهارت المعايير الأخلاقية واختلط الحق بالباطل والحلال بالحرام، ولم يعد الناس يعتدون بالوسيلة، بل يذهبون إلىٰ اقتضاء الغاية وتحقيق الكسب»[٣].

هكذا كان واقع أولئك القوم، وبالإضافة إلىٰ ما سبق، فقد كانوا يبالغون في جمع الإتاوات والضرائب من الرعية من أجل تقديمها للنصارىٰ مقابل إبقائهم علىٰ كراسي الحكم، وكان في مقدمة من نهج هذا النهج المقتدر بالله أحمد بن هود حاكم الثغر الأعلىٰ (٤٣٨ ـ ٤٧٤ هـ)؛ حيث أثقل كواهل رعيته بالإتاوة من أجل تقديمها لحكام النصارىٰ مقابل بقائه علىٰ كرسي الحكم[٤].

ويذكر ابن عذارىٰ أن هذا العمل قد أدّىٰ إلىٰ ضعف مسلمي الأندلس، كما نتج عنه ازدراء العدو النصراني لملوك الطوائف؛ حيث «ملّ من أخذ الجزية، ولم

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢١١.
(٢) عبد الرحمن العجلان، الأندلس تحت حكم المرابطين، ص ١٠٨ (رسالة ماجستير لم تنشر).
(٣) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٤٢١.
(٤) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٩.

يقنع إلا بأخذ البلاد، وانتزاعها من أيدي المسلمين»[١].

هكذا كان ملوك الطوائف «طغاة قساة على رعيتهم يسومونهم الخسف ويثقلون كواهلهم بالفروض والمغارم لملء خزائنهم، وتحقيق ترفهم وبذخهم، ولم يكن يردعهم في ذلك رادع لا من الدين ولا من الأخلاق»[٢]، وهذا بلا شك قد أدى إلى سخط عام صوره بعض معاصريه، ومنهم ابن حزم حينما قال: «إن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه ـ أولها عن آخرها ـ محارب لله ـ تعالى ـ ورسوله، وساع في الأرض بفساد، والذي ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها، ضاربين للمكوس والجزية والضريبة على أهل الإسلام، معتذرين لضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيهم»[٣].

أما ابن عبد البر فقد ذكر أن ملوك الطوائف أصبحوا خولاً للنصارى يؤدون إليهم من الأموال أضعاف ما ينفقونه على رعاياهم من المسلمين[٤].

هكذا استعرت نار الفوضى السياسية بالأندلس، وقد كان وقودها أفراد المجتمع الإسلامي خاصتهم وعامتهم؛ حيث كان أصحاب المصالح الذاتية وزعماء النصرانية يحاولون دائماً إشعال فتيلها وتأجيج نارها، وقد تبين لنا من خلال العرض السابق أن تلك الفتنة قد أضرت بالمسلمين هناك؛ حيث أشغلتهم عن أمور كثيرة ومهمة، وفي مقدمتها عمليات الجهاد ضد النصارى؛ حيث

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٣٩.
(٢) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٤١٩.
(٣) مجموعة رسائل ابن حزم، ص ١٣٩.
(٤) القصد والأمم، في التعريف بأصول العرب والعجم، وأول من تكلم بالعربية من الأمم، ص ٣٦.

تحولت سهام المسلمين وحرابهم نحو نحور إخوانهم المسلمين، بدل العدو النصراني المتربص، كما أنها أذهبت ريحهم، وأحبطت جهودهم، ومزقت وحدتهم، وكسرت شوكتهم.

وقد استغل النصارى تلك الحالة من التمزق التي يعيشها المسلمون؛ فقويت حركة الاسترداد ضد المسلمين، كما تدخلوا في شؤون تلك الدول بشكل سافر، وكانت سياستهم تهدف إلى إذكاء نيران الفتن بين المسلمين، وإعانة الضعيف على القوي حتى يضعفوا جميعاً؛ فيسهل عليهم بذلك افتراس هذا القطيع الذي تفرق شمله وضل رعاته[١].

ثانياً: التكالب على المصالح الدنيوية والتناحر من أجلها:

حينما دخل المسلمون الفاتحون بلاد الأندلس كان هاجسهم الدائم وهدفهم الأسمى نشر الإسلام وتبليغه للناس، ولم يكونوا يهدفون إلى أية مطامع دنيوية أو أهداف سياسية أو مصالح خاصة، فقد تربى أولئك القوم في مدرسة القائد موسى بن نصير، ومن قبله عقبة بن نافع الذي بعدما أتم فتح بلاد المغرب انفجر باكياً متحسراً على انقطاع عمليات الجهاد؛ حيث قال: «لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك مقاتلاً من كفر بك»[٢].

كما أن القائد طارق بن زياد حينما عاد من الأندلس إلى المشرق سنة ٩٥ هـ، بعد أن أتم فتح معظم تلك البلاد، ونشر فيها الإسلام كان «متلهفاً على الجهاد الذي فاته، آسفاً على ما لحقه من الإزعاج»[٣]؛ على الرغم من كونه يحمل معه

(١) محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص ١٥٤.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ١٠٦.
(٣) نجاح العطار، الأندلس من نفح الطيب، ص ١٢٧، والإزعاج: اضطراره إلى الرحيل عن الأندلس.
=

من الأموال، والغنائم، والسبي، والجواهر، ونفيس الأمتعة ما لا يقدر قدره[(١)].

وقد بقي هذا الهاجس عند الولاة والقادة بعد طارق بن زياد؛ حيث يذكر المؤرخون أن أربعة من الولاة استشهدوا في ميادين المعارك مع النصارىٰ، مجاهدين لنشر هذا الدين، وليس من أجل أي مطمع سياسي أو عسكري[(٢)]، بل إن الأندلس كلها كانت لا تساوي شيئاً عند قادة المسلمين حينما يشعرون بأن الوجود الإسلامي فيها تتهدده الأخطار، ومما لا شك فيه أن هذا الشعور هو الذي جعل الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ) لما تولىٰ الأمر، يفكر في إخلاء الأندلس وإجلاء المسلمين عنها رحمة منه بمن فيها منهم، وخوفاً عليهم من سطوة العدو النصراني المتربص بهم، وهو بهذا التفكير لم يقم أي وزن لما فيها من الخيرات والمطامع الدنيوية، ولم يغير رأيه هذا إلا حينما كتب إليه السمح بن

= بل يذكر ابن خلدون أن جهود موسىٰ بن نصير، وطارق بن زياد في ميدان الجهاد، كانت لا تعرف الملل؛ حيث «أجمع أن يأتي للمشرق من ناحية القسطنطينية، ويتجاوز إلىٰ الشام دروب الأندلس، ويخوض إليه ما بينهما من بلاد أعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم، ومستلحماً لهم إلىٰ أن يلحق بدار الخلافة من دمشق، ونما الخبر إلىٰ الخليفة الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأىٰ أن ما همّ به موسىٰ تغرير بالمسلمين». (العبر، ج ٤، ص ٢٥٥).

(١) المصدرين السابقين.

(٢) هؤلاء الأربعة هم:

١ ـ **السمح بن مالك الخولاني (ت ١٠٢ هـ)**، (الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٢٣٦، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج١، ص ١٩٥، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤١٨).

٢ ـ **عنبسة بن سحيم الكلبي (ت ١٠٧ هـ)**، وقد استشهد سنة ١٠٧هـ، (الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٣١٩، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ١، ص ٣٤٤).

٣ ـ **عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي**، استشهد في معركة: (بلاط الشهداء)، سنة ١١٤هـ، (المقري: نفح الطيب، ج٣، ص ١٦، الضبي، بغية الملتمس، ص ٣٦٥).

٤ ـ **عقبة بن الحجاج السلولي**، استشهد خلف جبال البرتات سنة ١٢٣ هـ، (الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٣١٩، الضبي، بغية الملتمس، ص ٤٣٢).

مالك «يعرفه بقوة الإسلام، وكثرة مدائنهم، وشرف معاقلهم»[١]، كما قيل له: «إن الناس قد كثروا بها، وانتشروا في أقطارها، فأضرب عن ذلك»[٢].

وقد ظل كثير من الزعماء الأمويين بالأندلس محافظين على هذا الاتجاه، مؤكدين أهميته، وهذا بلا شك مما أعطى دولتهم قوة أمام القوى الصليبية المتربصة بالمسلمين هناك، ولكن حينما بدأ الضعف ينتاب الخلفاء المتأخرين، كما بدأت النزعة المادية لديهم بالظهور، وتزامن مع هذا بداية ضعف الدولة ليس أمام القوى النصرانية فحسب، بل مع الثوار والمنتفضين على الدولة من بني جلدتها، حينئذ بدأت معاول الهدم وأسباب الضعف تنخر في جسم الدولة الأموية، ثم لم تلبث أن قضي عليها نهائياً ـ سنَّة الله في خلقه ـ.

وحينما سقطت تلك الدولة وقام على أنقاضها دول الطوائف، أصبح حب الدنيا والسعي للمصالح الذاتية هاجساً دائماً، وهدفاً مهماً يسعى إليه الكثير منهم ولو أدى ذلك إلى تقديم تنازلات دينية أو سياسية أو خُلُقية أو وطنية[٣]، ولعل تعدد ألقاب الخلافة وتوزعها بين أولئك الزعماء أوضح دليل وأقوى برهان على ذلك.

مما يزهّدني في أرض أندلس — سماعُ مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها — كالهرِّ يحكي انتفاخاً صولة الأسدِ[٤]

وقد أدرك هذا الضعف كثير من المعاصرين لذلك الواقع من مفكرين، بل وعامة، ولهذا جاء تصويرهم له دقيقاً، ووصفهم صادقاً، يقول ابن حزم واصفاً

(١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٩.

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٦.

(3) Suarez Fernamdez: Manual de Historia umiverral. Tomo, 111, Madrid, 1972, Zo, Edi. pp159.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٤٤، المراكشي، المعجب، ص ١٠٥.

تلك الحال: «فضيحة لم يقع في العالم إلىٰ يومنا مثلها، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها كلهم يتسمَّىٰ بإمرة المؤمنين، ويخطب لهم بها في زمن واحد، . . . والله! لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارىٰ فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم، يحملونهم أسارىٰ إلىٰ بلادهم . . . وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس»، وقال يصف ما وقع من الظلم علىٰ المسلمين: « فما أن يقع الدرهم في أيديهم - يعني مسلمي الأندلس - حتىٰ يؤدوه بالعنف ظلماً وعدواناً بقطيع[(١)] مضروب علىٰ جماجمهم كجزية اليهود والنصارىٰ»[(٢)].

ولتحقيق تلك الأهداف الدنيئة فإن ملوك الطوائف استعبدوا أهلها لكي يقوموا علىٰ أكتافهم، وليحققوا بواسطة أموالهم ما يطمحون إليه من مال أو جاه وسلطان[(٣)].

أرضٌ تقاذفت الخطوبُ بأهلها ... وتمخضت بخرابها الأقدار[(٤)]

وكان الكثير من أولئك القوم لا يتورعون عن أي وسيلة يرون أنها تزيد من كسبهم المادي أو تعينهم علىٰ تحقيق مصالحهم السياسية، فعلي بن حمود (٤٠٧ - ٤٠٨ هـ) فرض علىٰ أهل قرطبة ضروباً من المغارم، كما انتزع السلاح منهم[(٥)]، ولتحقيق هذا الغرض حاول ضرب الناس بعضهم ببعض؛ حيث «توصل إلىٰ أعيانهم بقوم من شرارهم؛ ففتحوا لهم أبواباً من البلايا أهلكوا بها الأمة، وتقربوا إليه بالسعاية فيهم، وصار شطر الناس أشراطاً علىٰ سائرهم، قلَّما تلقىٰ

(١) المقصود بالقطيع الضريبة أو الإتاوة المفروضة علىٰ المسلمين.
(٢) ابن حزم، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، ج٣، ص ١٧٣ - ١٧٦.
(٣) ابن عبد البر، القصد والأمم، ص ٣٥.
(٤) المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٤٥٥.
(٥) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٢٣.

أحداً إلا بوكيلين عليه، وأظلمت الدنيا وأبلس أهلها، وغشيهم من الله ما غشيهم»[١]، كما أن هذيل بن خلف بن زرين (٤٠٣ ـ ٤٣٦ هـ) كان قد غرق في لذته وشهواته؛ حيث كانت حياته صمّاء عن كل عمل خير، بل بلغ الجهل والفظاظة أن قتل أمّه بيده[٢].

أما المعتضد ابن عباد، فإنه لما ولي الأمر بعد أبيه، بدأ بتصفية رجال الدولة؛ لكي يستبد بالأمور، وينفرد بالجاه والسلطان، «فمنهم من قتله صبراً، ومنهم من نفاه عن البلاد، ومنهم من أماته خمولاً وفقراً، إلى أن تم له ما أراد من الاستبداد بالأمر»[٣]. كما يذكر المراكشي أنه استولى على مال رجل أعمى، فلما ذهب الأعمى إلى مكة وبها أخذ يدعو على المعتضد، أرسل إليه من سمّه هناك، كما قتل على هذه الصورة رجلاً من المؤذنين من أهل إشبيلية، فرّ منه إلى طليطلة[٤].

هكذا لم يتورع المعتضد ابن عباد حتى عن أموال العميان ومتوسطي الحال من عامة الناس، بل ضمها إلى ماله ليكاثر بها أقرانه من ملوك الطوائف، وليدفعها للنصارى فدية لهم، غير مبال بالأسلوب الذي نهجه أو الوسيلة التي اتبعها، ومما زاد الأمر سوءاً أنه حينما سلك هذا المسلك لم يكن بحاجة إلى ذلك المال للدفاع عن البلد أو تجهيز جيوش الجهاد، بل كان جلُّ غرضه وغرض أنداده من ملوك الطوائف الذين نهجوا هذا النهج هو بنيان القصور، وجمع الخيول، واقتناء الغلمان؛ ليتفاخروا بها فيما بينهم حيث عدّوا هذه الأمور من الهمم العالية، والرتب الملوكية، كما أنها أصبحت هدف كل واحد منهم[٥].

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ص ١٢٣.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٨٣.
(٣) المراكشي، المعجب، ص ١٤١.
(٤) انظر تفصيلات ذلك في: المعجب، ص ١٤٤ ـ ١٤٥.
(٥) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٠٥.

وكان من أبرز من سلك هذا المسلك من ملوك الطوائف المقتدر بالله أحمد بن هود (٤٣٨ ـ ٤٧٤ هـ) حاكم الثغر الأعلىٰ الأندلسي، فقد أجبر رعيته علىٰ دفع المال له، فلما اعترض عليه أحد الصالحين قتله[١]، كما ترك لنا المؤرخون وصفاً دقيقاً لتمادي كل من مبارك ومظفر العامريين ـ حاكمي مدينتي بلنسية وشاطبة ـ في هذا السلوك، يقول ابن عذارىٰ: «وبلغت جباتها لأول ولايتهما إلىٰ مائة وعشرين ألف دينار في الشهر، سبعين بلنسية، وخمسين شاطبة، يستخرجانها بأشد العنف من كل صنف حتىٰ تساقطت الرعية، . . . وسلك مبارك ومظفر سلوك الملوك الجبارين في إشادة البناء والقصور، والتباهي في عليات الأمور إلىٰ أبعد الغايات، واشتمل هذا الرأي علىٰ جميع أصحابهما ومن تعلق بهما من وزرائهما، وكتابهما، فاحتذوا فعلهما في تفخيم البناء، . . . لاهين عما كانت فيه الأمة يومئذ، كأنهم من الله علىٰ عهد لا يخلفه.

واتسع الخرق في عظيم ذلك الإنفاق، فمنهم من قُدّرت نفقته علىٰ منزله مائة ألف دينار، . . . وكان لمبارك ومظفر جنة ذلك النعيم، . . . فانغمسا في النعيم إلىٰ قمم رؤوسهما وأخلدا إلىٰ الدعة»[٢].

أما ابن حيان فقد بين أن ما ناله هذان الزعيمان من بحبوحة العيش إنما كان بسوق الرعية المضطهدة، فقد كانا لا يعبآن بما نالهم من أذاهما حيث يقلدان عليهم شرار العمال، حتىٰ غدا كثير منهم يلبسون الجلود والحصر، ويأكلون البقل والحشيش، كما فرّ أكثرهم من قراهم[٣]، كما بيّن أيضاً أن هذا الأسلوب كان سلوك الكثير من ملوك الطوائف الذين أقاموا دولتهم علىٰ أنقاض دولة بني أمية هناك[٤].

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٩.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٠ ـ ١٦١.
(٣) المصدر السابق، ، ج ٣، ص ١٦٢، (نقلاً عن ابن حيان).
(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٢.

وقد عدَّ ابن بسام تلك التصرفات المشينة[١]، من قِبَلهم أنها قد غاظت الجماعة حيث داسوا أحساب الأحرار بأقدامهم متغافلين عن سنَّة الله فيمن جرىٰ مجراهم[٢].

أما منذر بن يحيىٰ التجيبي (٤٠٧ ـ ٤٣٠ هـ) صاحب سرقسطة، فقد كان مع سموِّه للمعالي مؤثراً لشهواته، غير متردد في قضاء لذاته؛ حيث كان متهالكاً علىٰ حب الدنيا[٣].

وكان أبو يحيىٰ محمد بن صمادح (٤٤٤ ـ ٤٨٠ هـ) قد آثر مصالحه الذاتية مستبداً بالأموال لإشباع شهواته ولذاته «دون قضاء حق في جهاد عدو أو سد ثغر»[٤].

---

(١) يلحظ القارئ أن المؤرخين حينما تحدثوا عن تلك التصرفات كانوا يتحدثون بتحسر ومرارة، فابن حيان عدَّ تولي مبارك ومظفر من غرائب الليالي والأيام اللاعبة بالأنام، كما ذكر أن توليهما الحكم هو من الحجج البالغة والدالة علىٰ هوان الدنيا عند الله، ولكنهما مع ذلك كانا بعيدين عن الاعتبار. (ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٥٨، ٣٦٢، نقلاً عن ابن حيان).

أما ابن عذارىٰ فقد عدَّ وفاة مبارك نعمة حيث أمن أهل البلد من مقته وكفاهم الله أمره، كما أنه ذكر سبباً معيناً لتلك الوفاة مرتبطاً بظلمه للناس، وتعديه علىٰ أموالهم حيث قال: «وكان سبب موت مبارك أنه ركب يوماً من قصر بلنسية يبغي الخروج للنزهة خارج البلد، . . . وأهل بلنسية يستغيثونه في أن يرفق بهم في مال كان قد افترضه عليهم، فقال لهم يومئذ: اللهم إن كنت لا أريد إنفاقه فيما يعم المسلمين نفعه فلا تؤخر عقوبتي الساعة. ثم ركب إثر ذلك، فلما أتىٰ القنطرة ـ وكانت من خشب خرجت رجل فرسه، فرمىٰ به أسفلها واعترضته خشبة نائية من القنطرة شدخت وجهه وسقط لفيه ويديه، وسقط الفرس عليه وكسر عظامه، وفتق بطنه ففاضت نفسه لوقته، وأَمِنَ أهل البلد من مقته». (ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٦٣).

أما ابن بسام فقال فيهما إنهما كانا «عبدَيْ مهنة وأميرَيْ فتنة، قلَّ الناس فكثروا، وخلا لهم الجو فباضوا وصفروا، تساوىٰ عندهم سجع البلبل ورغاء الإبل» (ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٦٢ ـ ١٦٣).

(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٦٢ ـ ١٦٣، (نقلاً عن ابن بسام).

(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ١٨١.

(٤) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٧٤.

كما ذكر ابن بسام أن أبا يحيىٰ «اقتصر علىٰ قصر يبنيه، وعلق يقتنيه من اللذة، يستولي عليه ويبرز فيه[١]. أما حسام الدولة ابن رزين (٤٣٦ هـ) فقد نافس جاره إسماعيل بن ذي النون في جمع المال وفي خلال البخل وفرط القسوة، . . . وهو أول من بالغ الثمن بالأندلس في شراء القينات، اشترىٰ جارية ابن عبد الله المتطبب بعد أن أحجمت الملوك عنها لغلاء سومها بثلاثة آلاف دينار»[٢]، كما ذكر ابن بسام أن ابن رزين كان له طبع يدعوه فيجيب، كما كان يزدري بالأمة ولا يأبه بالناس[٣] وكان أبو الوليد عبد الملك بن جهور (٤٥٠ - ٤٦١ هـ) قد استباح أموال الناس، كما سلط علىٰ الرعية أهل الفساد، حيث أهمل مسؤولياته الشرعية، بل تعاظم علىٰ من حواليه، حيث سمّىٰ نفسه بـ (ذي السيادتين، المنصور بالله، والظافر بفضل الله)[٤].

ويذكر ابن عذارىٰ أن سبب خلع أهل قرطبة لعبد الملك بن جهور هو ضجرهم من جوره وتعديه هو وحاشيته علىٰ الناس[٥]؛ حيث استعانوا بجيش ابن عباد الذي جاء لنصرته ضد ابن ذي النون؛ إذ إنه لما حاصر قرطبة ثار عليه أهل المدينة بمؤازرة الجيش العبادي، فكان زوال ملكه أسرع من لحسة الكلب كما يقول صاحب كتاب (الأنباء في سياسة الرؤساء)[٦]، ويبدو أن عبد الملك بن جهور قد تجاوز كثيراً في الاستيلاء علىٰ أموال الناس وضمها إلىٰ حوزته؛ حيث يذكر ابن سهل أنه أقيم عليه دعوىٰ بهذا الخصوص بعد سقوط دولة الجهاورة، وأنه حكم برد المظالم إلىٰ أهلها[٧].

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٧٣٢.
(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٣.
(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٤، (نقلاً عن ابن بسام).
(٤) ابن بسام، الذخيرة، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١٤٩، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٣٣.
(٥) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٥٩.
(٦) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٦٠ (نقلاً عن الكتاب المذكور أعلاه).
(٧) الأحكام الكبرىٰ (مخطوط)، ورقة ١٥٠.

ومن أجل تحقيق المصالح الدنيوية فقد كان بعض ملوك الطوائف لا يتورعون عن التنازل عن المدن التي يحكمونها مقابل مال معين يحصلون عليه، ومما يذكر في هذا الشأن موقف عبد العزيز البكري حاكم شلطيش حينما حاصره ابن عباد بها، فقد اصطلح معه على أن يبيعه سفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال، ثم لجأ إلى قرطبة في كنف ابن جهور مستأمناً على الأموال والأنفس، بينما دخل ابن عباد شلطيش التي خذلها زعيمها مقابل حصوله على تلك الأموال[١].

كان ما سبق عرضه نماذج وأمثلة لحرص ملوك الطوائف على جمع المال، والتفاخر في كثرته، وهنا لا بد من التساؤل عن الأسباب والوسائل التي كان أولئك القوم يستخدمونها لهذا الغرض الدنيء، وتلك الغاية المقيتة؟ وللإجابة عن هذا التساؤل يقال: إن المتتبع للتاريخ السياسي والحربي لذلك العصر يدرك أنه لم يكن يحكمه أي مبدأ من مبادئ القيم والأخلاق بل حتى الأعراف والتقاليد، حيث كان الصراع السياسي والحربي هما الوسيلة الأولى في هذا الميدان مهما كان الثمن لذلك، بل إنهم لم يكونوا يتورعون عن المكر والخديعة ونقض العهد، كما كانوا ينهجون المراوغة مرة والمداهنة أخرى من أجل تحقيق هذا الهدف المهم في نظرهم، فإن لم ينفع هذا ولا ذاك فالسيف[٢]، وهذا بلا شك مما أوقد نار حربٍ ضروسٍ، كان وقودها المسلمين عامة، خلَّفت الكثير من المآسي والكوارث، وذهب ضحيتها الآلاف من القتلى في الموقعة الواحدة؛ ولذا بقيت المدن نتيجة لتلك الحرب خالية من سكانها ما عدا الشيوخ والأطفال والنساء كما يذكر ابن عذارى[٣].

ولو حاولنا استقصاء ما بذل في هذا الميدان لطال بنا المقام؛ حيث إن أحداث ذلك الصراع قد غطت على غيرها؛ ولهذا جاءت كتب التاريخ التي عنيت بعصر

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٤٢.
(٢) ليث جاسم، ابن عبد البر الأندلسي، ص ٦١.
(٣) البيان المغرب، ج٣، ص ٢٨٢.

ملوك الطوائف زاخرة بأحداث وحوادث تلك المآسي، ولكن حسبنا في هذا المقام إشارة عابرة للدلالة والاستشهاد لا للرصد والتدوين.

ولعل مما يشفع لنا في هذا المقام أن مؤرخي الأندلس المعاصرين لتلك الأحداث قد أعرضوا عن ذكرها لا لطول أحداثها فحسب، بل لمرارتها وشدة وقعها على النفوس، يقول ابن بسام ـ وهو ممن عايش تلك الأحداث ـ حينما تحدث عن ابن صمادح: «وقد كانت بينه وبين حلفائه من ملوك الطوائف في الجزيرة فتون مبيرة . . . وقد اندرجت له ولهم في تضاعيف هذا التصنيف قصص تضيق عنها الأيام، وتتبرأ منها القراطيس والأقلام»[١].

ومما يمكن ذكره هنا، تلك الحروب التي وقعت بين عدد من ملوك الطوائف تناحراً على المصالح الذاتية، فمنها ما وقع بين بني زيري أمراء غرناطة وبين زهير الفتى الصقلبي حاكم المرية، وانتهت بمقتل زهير عند أسوار غرناطة، حينما تصدى له باديس بن حبوس زعيم البربر في غرناطة سنة ٤٢٩ هـ[٢]، ثم استولى على المرية معن بن صمادح غدراً من يد صهره عبد العزيز بن أبي عامر[٣].

ولم تكن هذه هي الجبهة الوحيدة التي قاتل بها البربر، بل إن بني زيري خاضوا حروباً متواصلة مع بني عباد حكام إشبيلية؛ حيث تمكن العباديون من اختراق الصف البربري، حينما أوقعوا بين زنانة في قرمونة، وصنهاجة في جنوب الأندلس، لكن العباديين خسروا الجولة حينما حاولوا الاستيلاء على قرمونة وإشبونة وإستجة؛ حيث قتل قائدهم إسماعيل بن عباد سنة ٤٣٠ هـ

---

(١) الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٧٣٣.

(٢) يذكر ابن عذارى أنه كان من بين الأسرى الذين أسرهم باديس عدد من حملة الأقلام مثل الوزير أحمد بن عباس، وابن حزم، وأبي الوليد الباجي، وغيرهم حيث عفا عنهم جميعاً دون الوزير ابن عباس الذي أمر بقتله؛ لأنه كان سبباً لتلك المعركة. (البيان المغرب، ج٣، ص ١٧١).

(٣) انظر تفصيلات ذلك في: عبد الله بن بلقين، التبيان، ص ٢٢ ـ ٢٣، ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٦٢، ٦٦٥ ـ ٧٣١، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ١٦٦، ١٧١.

حينما خذله بعض جنده[1].

وكانت دولة بني جهور في قرطبة هدفاً مهماً لكثير من ملوك الطوائف، وذلك لأهمية موقعها، ولضعف قوتها؛ حيث كان أول الطامعين بها بنو عباد الذين واصلوا حملاتهم العسكرية ضدها بغية الاستيلاء عليها، وإسقاط دولة بني جهور، إن لم يبايعوا هشام المؤيد[2]، وقد أثرت تلك الحملات على أهل

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٢٧٢، (نقلاً عن ابن حيان)، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٠٢.

(٢) هشام بن الحكم المستنصر، ولي الأمر بعد وفاة أبيه سنة ٣٦٦ هـ، وسنّه عشرة أعوام وبضعة أشهر، حيث تولى الوزير محمد بن عبد الله بن أبي عامر الوصاية عليه، وفي سنة ٣٩٩ هـ خرج عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، الملقب بالمهدي؛ فخلعه وقتل وزيره عبد الرحمن بن أبي عامر، ومن هنا نشأت الفتنة ببلاد الأندلس.

وقد بقي هشام بن الحكم (المؤيد) في قرطبة حتى دخلها سليمان بن الحكم المستعين بالله سنة ٤٠٣ هـ، وهنا اختلف المؤرخون حول مصيره، فابن بسام وابن عذارى قالا: قيل إنه قتل، وقيل: إنه فر من أمام المستعين، أما ابن الخطيب فيشك في مقتل هشام حيث يذكر أن موت هشام مشكوك فيه، بينما يجزم المراكشي بمقتل هشام على يد البربر الذين دخلوا مع سليمان المستعين.

هكذا تباينت آراء المؤرخين حول مصير هشام المؤيد بعد دخول سليمان المستعين لقرطبة سنة ٤٠٣ هـ.

ويذكر ابن عذارى أنه لما قامت دولة بني عباد في إشبيلية، وكانت بحاجة إلى سند شرعي يدعم كيانها أمام بعض متربصي ملوك الطوائف ولا سيما بني حمود، أعلن أبو القاسم ابن عباد في سنة ٤٢٦ هـ، أن هشام المؤيد مختفٍ خشية الفتنة، وأن بني عباد قد بايعوه خليفة للمسلمين في إشبيلية، كما يذكر ابن عذارى أنه بعد مبايعته أنزل ابن عباد معه في القصر، وسلم له مقاليد السلطة، حيث أصبح حاجباً له كالمنصور بن أبي عامر، ثم خطب لهشام في بعض أقاليم بلاد الأندلس؛ مما قطع الأطماع ضد بني عباد، لكن ابن الخطيب ذكر أن بعض ملوك الطوائف أرسلوا رجالاً للتأكد من صحة الأمر فأُدخلوا على الرجل في بيت مظلم مدعياً أنه يشكو من مرض في عينه، فكلمهم وكلموه، ثم خرجوا من عنده منهم المقر ومنهم المنكر، وقد سخر ابن حزم من هذا الادعاء، وعدّه من الادعاءات التي لم تحدث مثلها في التاريخ. (ابن حزم، نقط العروس، ص ٨٣ - ٨٤، ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٣٧، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٣١٤ - ٣١٥، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٥٤، المراكشي، المعجب، ص ٤٥ - ٤٧).

قرطبة حيث غلت أسعارهم كما أصبحوا شبه محصورين داخل مدينتهم حين أدركت باديس بن حبوس حاكم غرناطة الحمية، فخرج لنصرة ابن جهور ضد خصومه بني عباد الذين فروا بعد هزيمتهم خارج قرطبة سنة ٤٣١ هـ[١].

ولم يكن بنو عباد وحدهم الطامعين في إسقاط دولة الجهاورة ودخول مدينة قرطبة للاستيلاء على خيراتها[٢]، بل إن الحموديين وبني ذي النون، وغيرهم[٣] كانت لديهم تلك الأطماع حيث حاولوا أكثر من مرة لكنهم أخفقوا، وفي النهاية آلت قرطبة إلى العباديين، بعد تمكن جيشهم من طرد بني ذي النون من عند أسوارها، وذلك في ٢١ شعبان، سنة ٤٦٢ هـ[٤].

وكانت العلاقة بين بني الأفطس حكام سرقسطة وبين جيرانهم بني عباد سيئة، بسبب التنافس على المصالح الذاتية، فقد وقعت بينهما مصادمات حربية كثيرة بسبب نزاعهما حول مدينة لبلة التي تقع على الحدود بينهما، حيث قتل في إحدى المعارك سنة ٤٤١ هـ، أمير قرمونة، كما قتل عبيد الله الخراز صاحب يابرة، بينما نجا ابن الأفطس من المعركة بصعوبة، وقتل من جيشه ما لا يقل عن ثلاثة آلاف رجل[٥].

أما بنو ذي النون وبنو هود حكام سرقسطة، فقد استمر الصراع بينهما من أجل تلك الغايات الدنيئة، ومما يذكر هنا نزاعهما حول مدينة وادي الحجارة[٦]،

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٠١.

(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٠٩، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٣، ص ١٤٩، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٣٣، ٢٦٠، يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس، ص ٤١.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ١٨.

(٤) المصدر السابق، ق ١، ج ١، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

(٥) المصدر السابق، ق ١، ج ١، ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٠٢، دوزي، ملوك الطوائف، ص ٢٩.

(٦) مدينة وادي الحجارة، تعرف بـ (مدينة الفرج) بالأندلس تقع شرق قرطبة، وهي مدينة كثيرة الأرزاق، جامعة لأشتات المنافع، وبينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلاً. (الحميري، الروض المعطار، ص ٦٠٦).

ذلك أنه حينما استولىٰ عليها سليمان بن هود ، قامت قيامة يحيىٰ بن ذي النون طمعاً بتلك المدينة وما فيها من خيرات ، وقد استعان كل واحد منهما بالنصارىٰ ضد صاحبه حيث دامت الحرب بينهما من عام ٤٣٥ هـ إلىٰ آخر عام ٤٣٨ هـ ، ولم تنته إلا بوفاة سليمان بن هود[١] بعد أن خلفت آثاراً عسكرية ، واجتماعية ، ونفسية ، واقتصادية جسيمة ، كما سنرىٰ ـ إن شاء الله ـ في نهاية هذا الكتاب .

هكذا كان واقع ملوك الطوائف ، فالراضي منهم كان يضمر التوسع ، والساخط ينوي الثأر والانتقام ، وهذا مما أشعل الحرب بينهم وأدام نشوب المعارك ـ وربما لسنوات عديدة ـ دون هدف سام ، أو غاية نبيلة ، وقد كان الواحد منهم حينما يحشد الحشود لمحاربة أحد جيرانه من ملوك الطوائف يبالغ في ذلك حتىٰ إن كل واحد من ملوك الأندلس حينما يسمع بتلك الحشود يتوقع أنها ستوجه نحوه ، ويظن أنه لا يريد سواه[٢] .

كما أن تلك الحروب لم تكن تحكمها مبادئ دين أو خلق ، بل كانت تقوم علىٰ المكر والخديعة ، ثم تنتهي بالسلب والنهب ، وربما القتل والتمثيل ، وهذا بلا شك مما أمات في النفوس الأنفة الإسلامية ، والشيم الحميدة ؛ حيث صار أفراد تلك الجيوش كالوحوش المتنافسة علىٰ فريستها ، حينما تجردوا من كل خلق سليم ، أو قيم حميدة ؛ حيث لم تنج أسرة واحدة من الأسر الحاكمة في ذلك العصر من الصراع الداخلي والخارجي[٣] ، بل أمضوا معظم سني حكمهم في ذلك الصراع ، وهكذا أصبح الاستقرار السياسي شبه معدوم عندهم ، بسبب الجشع والطمع ، والسعي وراء الذات ومصالحها ، وهذا ما سنفصل القول فيه ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ في الفقرة التالية .

---

(١) ابن عذارىٰ ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ .
(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .
(٣) رجب عبد الحليم ، العلاقات ، ص ٢٨٨ .

كان هذا عرضاً سريعاً لظاهرة التكاثر المادي التي اتسم بها ملوك الطوائف؛ حيث تبين لنا أن ملوك الطوائف أمضوا أعمارهم في حروب متواصلة من أجل تحقيق المطامع والمصالح، وهذا بلا شك مما جعلهم في قلق دائم فلم يرتاحوا حتىٰ في الساعات الأخيرة من حياتهم[١]، كما نتج عن ذلك تولد شعور عام عند الناس بأن هؤلاء الحكام ظلمة وجل همّهم جمع المال، ولعل ما تركه لنا كل من ابن حزم وابن حيان من نصوص قالوها في رصد تلك الظاهرة خير دليل علىٰ ذلك، فابن حزم قال: «اللهم إننا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم، ودار قرارهم، بجمع أموال ربما كانت سبباً في انقراض أعمارهم وعوناً لأعدائهم عليهم، وعن حياطة ملتهم التي بها عزوا في عاجلتهم، وبها يرجون الفوز في آجلتهم، حتىٰ استشرف لذلك أهل القلة والذمة»[٢]. بل إن ابن حزم ذهب إلىٰ ما هو أبعد من ذلك حيث عدَّهم محاربين لله ورسوله، ومن الساعين في الأرض بالفساد حيث شنوا الغارات علىٰ أموال المسلمين[٣].

«فما أن يقع الدرهم في أيديهم - يعني مسلمي الأندلس - حتىٰ يؤدوه بالعنف ظلماً وعدواناً بقطيع[٤] مضروب علىٰ جماجمهم كجزية اليهود والنصارىٰ»[٥].

وبالإضافة إلىٰ ما سبق فقد أدىٰ الظلم في جمع الأموال من الرعية، وتحصيلها بأي وسيلة ممكنة إلىٰ قول أحد المعاصرين: «إنه ليس في الأندلس في

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج٢، ص ٧٣٤.
(٢) الرد علىٰ ابن النغريلة، رسائل ابن حزم، تحقيق د. إحسان عباس، ج٣، ص ٤١.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص ١٧٥ - ١٧٦.
(٤) المقصود بالقطيع الضريبة أو الإتاوة المفروضة علىٰ المسلمين.
(٥) المصدر السابق، ج٣، ص ١٧٥.

ذلك الوقت درهم حلال ولا دينار طيب يمكن القطع بأنه حلال عدا ما يستخرج من وادي لاردة من ذهب»[١] ، كما قال أحد الكتاب المحدثين إنه في الوقت الذي كان النصارى يعدون الرجال لحرب المسلمين كان سلاطين الأندلس يخزنون الأموال، ويضيعون الرجال، كما قال أحد المعاصرين: إن تلك الحال لا يصلحها إلا نبي[٢] .

ويبدو أن هذا المرض بل الداء العضَال قد تأصل في نفوس جميع ملوك الطوائف حتى من عُدوا من القاسطين منهم كأبي الحزم ابن جهور الذي وصفه الذهبي بأنه «من رجال الدهر حزماً وعزماً ودهاء ورأياً»[٣] ، كما وصفه ابن حيان بأنه أمين الجماعة المأمون عليها[٤]، لكنه مع هذا كان حريصاً على جمع المال «حتى تضاعف ثراؤه وصار لا تقع عينه على أغنى منه، أحاط ذلك كله بالبخل الشديد والمنع الخالص اللذين لولاهما ما وجد عائبه عليه مطعناً، ولكمل لو أن بشراً يكمل»[٥]، كما يقول ابن حيان.

ولعل من الإنصاف أن نذكر هنا أن ثراء أبي الحزم ابن جهور لم يكن على حساب بيت مال الدولة، بل كان بسبب نظره لمعيشته حسبما يقوله ابن عذارى[٦]، كما ذكر ابن بسام أنه كان لا يلتبس بشيء من مال المسلمين ولا يدخل داره[٧]. ذكر ابن عذارى ـ أيضاً ـ نقلاً عن ابن حيان أنه «اخترع لهم لأول وقته نوعاً من التدبير حملهم عليه، وأجادوا السياسة فيه، فانسدل الستر على أهل قرطبة مدّته، وحصّل كلّ ما يرتفع من البلد بعد إعطاء مقاتليه، وصيَّر ذلك في أيدي ثقاة من الخدمة مشارفاً لهم بضبطه، فإن فضل شيء تركه في

(١) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٩٣، ٣٠١.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٤.
(٣) العبر في خبر من غبر، ج٣، ص ٣٨٣.
(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٠ (نقلاً عن ابن حيان).
(٥) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٦، (نقلاً عن ابن حيان).
(٦) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٦.
(٧) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٠٣.

أيديهم مثقفاً مشهوداً عليه لا يلتبس لهم بشيء منه، ومتىٰ سُئل قال: ليس لي عطاء ولا منع، هو للجماعة، وأنا منهم»[١].

لكن تلك الأموال التي تجمعت في بيت مال قرطبة لم تفدها كثيراً؛ ذلك أنها لم توجه إلىٰ إعداد القوة وتحصين البلاد ضد الأخطار المحيطة بها، بل ربما أضحت مصدر خطر حينما تسامع بها أولئك الطامعون فتداعوا عليها كما تتداعىٰ الأكلة إلىٰ قصعتها.

وكان هذا الحرص علىٰ التكاثر المادي عند ملوك الطوائف سبباً في ظلم الرعية والاستيلاء علىٰ أموالهم بغير حق[٢]، كما كان عاملاً رئيساً في القعود عن الجهاد، بل حتىٰ عن إعداد الجيش ومدافعة العدو القادم، ولعل مما يدل علىٰ ذلك موقف أهل بربشتر التي داهمها العدو سنة ٤٥٦ هـ، فقد وجد فيها من الأموال والأمتعة ما يعجز عن وصفه كثرة، كما يذكر البكري[٣]، ولا أستبعد أن تكون ظاهرة التكاثر المادي التي عُني بها أولئك القوم، حتىٰ أصبحت آفة من آفات عصرهم، قد عمل النصارىٰ علىٰ إشعال جذوتها والسعي لتأجيج نارها بين المسلمين، حتىٰ يهدموا بيوتهم بأيديهم، ويقضوا علىٰ قوتهم بذلك المعول البالغ الأثر في القضاء علىٰ الأمم والشعوب، ولعل مما يؤيد هذا الأمر ما ذكره الحجاري من أن النصارىٰ قد تنبهوا لهذه الثغرة منذ وقت مبكر؛ حيث قال أحد ملوكهم مخاطباً قومه حينما رأىٰ طلائع جيوش المسلمين الفاتحة تجتاح بلاد الأندلس: «لا تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنهم كالسيل يحمل من يُصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نيات تُغني عن كثرة العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتىٰ تمتلئ أيديهم من الغنائم، ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا في

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٨٦. (٢) المصدر السابق، ص ٢٣٠.
(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٥٣ (نقلاً عن البكري).

الرياسة، ويستعين بعضهم على بعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر»[١].

ولعل من المناسب أن نشير في نهاية هذا المبحث إلى أنه بالرغم من حرص ملوك الطوائف على المال وجمعه فإنه كان يرخص في عيونهم حينما يرون أن بذله يدعم سلطانهم، أو يظهر هيبتهم؛ ولهذا بذلوا الكثير منه لكسب الأدباء والشعراء، ورغبة في الحصول على مدحهم وثنائهم، ومن أمثلة ذلك أن المعتصم ابن صمادح (٤٤٣ ـ ٤٨٤ هـ) منح قرية بأكملها للشاعر أبي الفضل جعفر بن أبي عبد الله البرجي، حينما قدم إليه يشتكي عامل تلك المدينة، وأنشده قصيدته التي مطلعها:

قامت تجر ذيول العصب والحبر ... ضعيفة الخصر والميثاق والنظر

إلى أن بلغ قوله:

لم يبق للجور في أيامهم أثر ... إلا الذي في عيون الغيد من حور

فقال له المعتصم: «أنا سوغتك جميعها لهذا البيت الواحد. ثم وقع له بها، وعزل عنها نظر كل والٍ»[٢].

أما المعتمد ابن عباد (٤٦١ ـ ٤٨٤ هـ) فقد أعطى الشاعر عبد الجليل بن وهبون ألفي دينار على بيتين اثنين من الشعر هما:

غاض الوفاء مما تلقاه في رحل ... ولا يمر بمخلوق على بال
قد صار عندهم عنقاء مُغربة ... أو مثل ما حدّثوا عن ألف مثقال[٣]

كما منح الشاعر أبا العرب الصقلي على بعض شعره مبلغاً كثيراً من الدنانير الفضية، وتحفة غالية في صورة جمل من العنبر مرصع بنفيس الجوهر، بيع بخمسمائة مثقال، «فسارت بهذا الخبر الركائب وتهادته المشارق والمغارب»[٤].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٢٧٥، (نقلاً عن الحجاري).
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٩٢، بالنثيا، الفكر الأندلسي، ص ١١١.
(٣) بالنثيا، الفكر الأندلسي، ص ٩٧.
(٤) المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٢٦١.

ثالثاً: النزاع الداخلي بين الأسر الحاكمة:

لا يختلف اثنان في كون المنازعات والخلافات التي تقع بين الأفراد أو الجماعات والدول من أكبر معاول الهدم، وأسباب الضعف التي يقضي عليها، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقد استقرأ هـذه الحقيقة ابن خلدون حيث ذكر أن من آثار الهرم في الدولة انقسامها، وأن التنازع بين القرابة يقلص نطاقها، كما يؤدي إلىٰ قسمتها ثم اضمحلالها(١).

ومما اتسم به عصر ملوك الطوائف، ذلك النزاع الداخلي بين الأسر الحاكمة نفسها، ولا يخلو تاريخ أي دولة من تلك الدول من وجود أحداث جسام في هذه القضية، ومن أوضح النماذج في هذا الموضوع ذلك النزاع الذي وقع بين أفراد الأسرة الحاكمة من بني هود؛ وذلك حينما قسم المستعين بالله سليمان بن هود بلاده علىٰ أولاده الخمسة قبل وفاته، فلما توفي دبّ النزاع بينهم، حيث يذكر ابن عذارىٰ أن أحمد بن سليمان بن هود المقتدر بالله (٤٤١ ـ ٤٧٤ هـ) «لم يزل يحتال علىٰ إخوته حتىٰ أخرج بعضهم من مواضعهم، واحتال عليهم وسجنهم، وكحل بالنار بعضهم»(٢)، ولم يسلم من هذا الأذىٰ سوىٰ أخيه يوسف حسام الدولة، فقد استطاع أن يدافع عن نفسه(٣)، وقد أدىٰ هذا النزاع إلىٰ الاستعانة بالنصارىٰ بعضهم ضد بعض، كما ذهب ضحيته آلاف القتلىٰ؛ حيث استمر النزاع بين الطرفين مدة طويلة؛ مما أضعف منطقة الثغر الأعلىٰ التي كانت حاجزاً بين المسلمين وما يليها من ممالك النصارىٰ(٤) الذين حاولوا الاستفادة من ذلك

(١) العبر، ج ١، ص ٥١٧.
(٢) البيان المغرب، ج ٣، ص ١٢٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

الصراع وخصوصاً حينما حمي وطيسه بين المستعين وعمّه المنذر، فقد حاصر الملك القشتالي ألفونسو السادس مدينة سرقسطة، وكادت تسقط في يده لولا مفاجأته بنزول المرابطين بلاد الأندلس سنة ٤٧٩ هـ[١].

وكانت دولة بني حمود من الدول التي استشرىٰ الصراع بين زعمائها؛ حيث قتل بسبب ذلك أول حكامها علي بن حمود سنة ٤٠٨ هـ غيلة داخل الحمام[٢]، ثم تنازع ولداه يحيىٰ وإدريس مع عمهما القاسم بن حمود علىٰ السلطة حيث تعاقبوا علىٰ حكم قرطبة عدة مرات، وقد كان يحيىٰ مؤيداً من البربر بينما كان عمّه القاسم مؤيداً من قبل السودان، وقد تمخض عن هذا الصراع استيلاء بني عباد علىٰ إشبيلية واستقلالها عن بني حمود سنة ٤١٤ هـ، ثم بعد ذلك فقدوا قرطبة، وهكذا لم يبق تحت حكمهم سوىٰ غرناطة، والجزيرة الخضراء، أما غرناطة فسقطت بأيدي بني زيري سنة ٤٤٩ هـ، ثم استولىٰ العباديون علىٰ الجزيرة الخضراء سنة ٤٥٠ هـ، وبذلك انتهت دولة بني حمود نتيجة لانقسامهم علىٰ أنفسهم، وما تمخض عن ذلك من حروب فيما بينهم[٣].

أما دولة بني زيري في غرناطة فقد بدأ الانقسام بين أمرائها عقب وفاة حبوس ابن ماكسن؛ حيث كان حبوس قد قسم أعمال حكم غرناطة علىٰ بني عمومته وأقاربه من بربر صنهاجة، وبعد ذلك التقسيم أصبح كل واحد منهم سلطاناً علىٰ ما يليه، وله أجناده وحكومته، وكان حبوس يستشيرهم في أموره ولا ينفرد بأمر دونهم، فلما توفي سنة ٤٢٨ هـ تولّىٰ ابنه باديس الحكم، لكن أحد بني عمومته

---

(١) أبو الفدا، المختصر، ج ٢، ص ١٥٥، رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٩٢.
(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٢٢.
(٣) رجب عبد الحليم، دولة بني حمود، ص ٨٥.

ويدعى يدير بن حباسة حاول خلع باديس والاستيلاء على مقاليد الحكم، فعرف الوزير اليهودي ابن النغريلة[١] بتلك الخطة، فنصح باديس بأخذ المتآمرين بالحيلة حتى لا تؤدي الحروب إلى إضعاف الدولة، فقبل النصيحة، وضرب المتآمرين بعضهم ببعض فتخلص منهم[٢].

وعلى الرغم من قضاء باديس على المناوئين من بعض أبناء عمومته فإنه فيما يبدو لم يكن مطمئناً على وضعه، بل كان يخشى المنافسة؛ ولهذا احتاط لنفسه ولابنه بلقين حيث بنى قصبة مالقة الكبيرة بعد أن استولى عليها من بني حمود سنة ٤٤٩ هـ، وكانت تلك القصبة في غاية الحصانة، بل إن بنيانها لم يقدر عليه أحد في زمانه، كما شحنها بالمؤن والأموال حيث جعلها ذخراً له ولابنه إذا ما ساءت الأحوال في غرناطة سواء بتآمر بني عمومته أو باعتداء ملوك الطوائف، كما لجأ إلى إجراء آخر حيث أخذ أقاربه بالشدة والعنف، فإذا أحس من أحدهم بما يريبه حكم عليه بالنفي والمصادرة كيلا يبقي لابنه بلقين بعده من ينافسه[٣].

---

(١) كان باديس ومن قبله والده حبوس قد عهد في تدبير شؤون وزارتهما إلى أسرة يهودية هي أسرة النغريلة، وكان أولهما إسماعيل بن نغريلة وبعد وفاته خلفه ابنه يوسف، وفي عهد يوسف عظم شأن اليهود في غرناطة، كما تطاول على الإسلام والمسلمين، وقد رد عليه ابن حزم، كما حاول تدبير مؤامرة يسقط فيها حكم باديس ويسلم الإمارة لأبي صمادح أمير المرية، وقد تضايق الناس من تصرفاته وخصوصاً حينما أثارتهم أشعار أبي إسحاق الأليري حيث قامت ضد اليهود ثورة في غرناطة قتل فيها يوسف بن إسماعيل، كما استؤصلت شأفة اليهود في غرناطة، وذلك سنة (٤٥٩ هـ / ١٠٦٦م)، انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج ١، ص ٤٣٨ ـ ٤٤٠، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ١٣٣ ـ ١٣٥، سعد البشري، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف، ص ٨٠.

(٢) ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ٢٥ ـ ٣٠، ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ١٩١، ٢٦٤.

(٣) ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ٣٦ ـ ٤٤.

هكذا صرف باديس بن حبوس جل وقته وماله، وجهده، لتحصين دولته ضد أخطار بني عمومته، متشاغلاً بذلك عن الخطر النصراني، حينما عطّل الجهاد في سبيل الله، لكن تلك الإجراءات التي اتخذها لم تحم دولتهم من الصراع الأسري بعد وفاة ابنه بلقين، فقد ترك ولدَيْن هما: تميم، وعبد الله، حكم الأول مالقة، بينما بقي الثاني على حكم غرناطة، وقد حاول تميم الاستيلاء على مدينة المنكب التي تخضع لحكم أخيه، ومن هنا نشأ الصراع بينهما حيث قام عبد الله بحربه وحصاره، فلما أدَّبه كف عن حصاره خشية أن يستفيد الخصوم والمتربصون من ذلك النزاع، كما أعطاه قلعة جطرون بدل المنكب، لكن تميم بقي ساخطاً على أخيه حيث استغل قدوم المرابطين إلى الأندلس، فشكا أخاه إليهم، كما تسبب في إضعاف قوة بني زيري مما سهل القضاء عليهم(١).

ولم تكن دولة بني ذي النون في طليطلة أقل من سابقاتها في ميدان الصراع الأسري للطبقة الحاكمة، فحينما تولى يحيى المأمون بن ذي النون (٤٣٥ - ٤٦٧ هـ) خرج عليه أخوه عبد الرحمن كما اختلف مع عمه أرقم بن عبد الرحمن، أما أخوه عبد الرحمن فقد نازعه سلطانه كما بالغ في إيذائه؛ حيث دلَّ خصمه سليمان بن هود على عوراته، فلما علم بذلك يحيى المأمون أرسل بالأموال والذخائر إلى شانجة ملك قشتالة، وطلب منه النصرة ضد أخيه وبني هود(٢).

وفي تلك الأثناء كان أرقم بن عبد الرحمن قد غضب على ابن أخيه يحيى

---

(١) ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ٩٠ - ٩٤.

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٨١، ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ١٤، المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ١٣٣ - ١٣٤.

المأمون؛ لأنه كان يبغضه ويحسده علىٰ ما أعطاه الله من العلم والمعرفة، والأدب[١]، ففر منه إلىٰ الثغر الأعلىٰ، ومنها إلىٰ جليقية؛ حيث قال:

إذا لم يكن لي جانب في دياركم   فما العذرُ لي ألاّ يكون تجنّبُ؟

وفي جليقية دلَّ ملكَها علىٰ عورات المسلمين، كما وضعا خطة لمعاقبة يحيىٰ ابن ذي النون، وخصوصاً حينما اعتدىٰ حليفه الملك القشتالي علىٰ أراضي بني هود حلفاء جليقية، ويذكر ابن عذارىٰ أنه حينما خرجت الجيوش من جليقية هرب الناس من أمامها إلىٰ طليطلة حيث غصت بهم واضطربت أحوال أهلها، وكان أميرها يحيىٰ بن ذي النون مقيماً في مدينة سالم خشية أن يدخلها ابن هود، فلما رأىٰ ذلك أهلها اصطلحوا مع الملك النصراني علىٰ أن يفك الحصار عنهم مقابل أن يدفعوا له الأموال[٢].

أما أرقم بن ذي النون فذكر ابن سعيد أن يحيىٰ المأمون ظل قلقاً بمكانه هناك؛ فدسَّ إلىٰ فرديناند من أوعز إليه ونصحه بأنه جاسوس من قِبَل ابن أخيه ليتكشف بلادهم فقتلوه، فلما علم المأمون بذلك قال: «الحمد لله، هذه نعمة من جهتين: فَقْد عدو، ووجوب ثأر نطلب به»[٣].

وبالرغم من رجوع الجيش النصراني، ومقتل أرقم بن ذي النون الذي حرضه

---

(١) يرىٰ المقري أنه كان هناك سبب آخر لكراهية بني ذي النون لأرقم بن عبد الرحمن، وهو كونه ابن أمة، فنفوه من نسبهم؛ ولهذا قال:

زعمتم بأني لست فرعاً لأصلكم   فهلا علمتم أنني عنه أرغبُ
وحسبي إذا ما البيض لم ترع نسبة   بأني إلىٰ سيفي ورمحي أُنسبُ

(نفح الطيب، ج ٤، ص ١٣٤).

(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٨١ ـ ١٨٢.

(٣) المغرب، ج ٢، ص ١٤.

على دخول بلاد ابن أخيه؛ فإن آثار تلك الصراعات الأسرية ظلت باقية بعد ذلك؛ فقد دامت الفتنة بين ابن ذي النون وابن هود التي أشعل جذوتها الصراع الأسري من سنة ٤٣٥ هـ إلى آخر سنة ٤٣٨ هـ(١).

كان هذا عرضاً سريعاً لنماذج من الصراعات التي وقعت بين أسر ملوك الطوائف تنازعاً على السلطة، وتناحراً من أجلها، وقد بدا لنا من خلال هذا العرض أن ذلك الصراع قد بُذلت فيه جهود كبيرة استنزفت قوة المسلمين؛ وكان الأَوْلى أن تُصرف في إعداد الجيوش ومقاومة الأخطار الخارجية، لكن ملوك الطوائف تغافلت عن هذا الأمر؛ حيث وجَّهوا حراب الحرب بعضهم ضد بعض حتى لو كانوا من ذويهم وأهل بيتهم، وهذا مما خلّف آثاراً جسيمة على كيان مسلمي الأندلس، ولا سيما في جانب القوتين: المعنوية والحربية؛ حيث وُجّهت السهام إلى الأقربين بدل الأعداء المشركين، كما أن الهدف أضحى هو السلطة والسلطان بعد أن كان نصرة المسلمين وجهاد الأعداء الكافرين، كما تمخض عن ذلك أن «ازداد فساد الحكام والأمراء والملوك، وقاسى الشعب الأندلسي في ظل حكمهم كثيراً من ضروب الاضطهاد والظلم، فقد كان هؤلاء الحكام يعتبرون ممالكهم ضياعاً خاصة يستغلونها كيفما يشاؤون، ويجعلون من شعوبهم عبيداً ليس عليهم إلا الكد والكدح، ودفع ما يطلب منهم من الضرائب الباهظة والغرامات الثقيلة، حتى ساءت حالة الرعية، وبلغ الحال بالناس أن أكلوا البقل والحشائش، ولبسوا الجلود والحصر، وفرّ أكثرهم من قراهم»(٢).

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٨٢.
(٢) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٩٢.

رابعاً: موالاة [١] كثير من ملوك الطوائف للنصارى، وإذعانهم لتبعيتهم:

يقول ابن خلدون: «إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه وتخلقه وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه، . . . حتىٰ إنه إذا كانت تجاور أخرىٰ ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبيه والاقتداء حظ كبير كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة؛ فإنك تجدهم يتشبهون في ملابسهم، وشاراتهم، والكثير من عوائدهم وأحوالهم»[٢].

هكذا يرىٰ ابن خلدون أن الأمم والشعوب الضعيفة تسير في فلك من هو أقوىٰ منها، ويدرك المتتبع لتاريخ مسلمي الأندلس في عصر ملوك الطوائف، أن أولئك القوم قد تمادوا في هذا الميدان، فقد تجاوزوا ما ذكره ابن خلدون في النص السابق؛ حيث وصلوا إلىٰ مرحلة التبعية السياسية، وما يتمخض عنها من تبعات أخرىٰ، وهي ما يسميها ابن خلدون بالاستيلاء[٣].

أما ابن عبد البر فقد ذكر أنهم صاروا خولاً للنصارىٰ[٤]، كما ذكر ابن حيان أن ملوك الطوائف قد تمادوا في هذا الأمر؛ حيث جعلوا أيديهم في أيدي

---

(١) ليس المقصود بالموالاة هنا عقد الهدنة، أو الصلح مع النصارىٰ؛ لأن الفقهاء نصوا علىٰ جواز أن يعقد المسلمون هدنة مع الكفار علىٰ مالٍ يدفعه المسلمون لهم، إذا كان ذلك لضرورة كبيرة، مع اختلاف بينهم في درجة تقدير الضرورة، فبينما يرىٰ ابن رشد أن ذلك جائز علىٰ مالٍ بمجرد كون المسلمين لا طاقة لهم بدفع أعدائهم. (بداية المجتهد، ج ١، ص ٢٨٣)؛ فإن ابن قدامة وغيره من الفقهاء يقيدون هذا الجواز حينما يخشىٰ المسلمون الهلاك عن بكرة أبيهم. (المغني، لابن قدامة، ج ١، ص ٥١١، شرح فتح القدير، لابن الهمام، ج ٥، ص ٤٤٥).

(٢) العبر، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٩.

(٤) القصد والأمم، ص ٣٥.

النصارىٰ[1]؛ ومما لا شك فيه أن هذا التوجه يعدُّ من أخطر الآفات التي تصيب الأمم والشعوب؛ حيث أثر تأثيراً قوياً علىٰ واقع مسلمي الأندلس آنذاك، فبينما كان النصارىٰ في عصر الدولة الأموية يسعون لخطب ود المسلمين، وكسب رضاهم، نجد أن الواقع قد انعكس حيث أصبح معظم ملوك الطوائف يلهثون وراء النصارىٰ لكسب ودّهم، ومن أجل الحظوة برضاهم ولو أدىٰ ذلك إلىٰ الخضوع لسيطرتهم والإذعان لأمرهم، وهكذا تمادوا في هذا الميدان حتىٰ أصبح أولئك الزعماء تابعين للنصارىٰ في كثير من أمورهم، يؤدون إليهم من الأموال أضعاف ما ينفقونه علىٰ رعاياهم من المسلمين[2]، كما أن النصارىٰ أصبحوا يعدُّون تلك الأموال حقاً شرعياً لهم لا يجوز للمسلمين تأخيرها، أو التهاون في أدائها، ومن يفعل ذلك فإنه يعرض نفسه وملكه للخطر؛ حيث يقوم النصارىٰ بمعاقبته علىٰ إخلاله بالواجب في الحال[3]، فحينما رفض محمد بن مسلمة بن الأفطس (٤٣٧ ـ ٤٦١ هـ) دفع الإتاوة لفرديناند الملك القشتالي أرسل إليه جيشاً قوياً قوامه ثلاثون ألف رجل منهم عشرة آلاف فارس، وقد توجه ذلك الجيش إلىٰ شنترين التي تعد من أهم مدن الثغر الأدنىٰ، وبالرغم من محاولة ابن الأفطس التصدي لذلك الجيش ومقاومته فإنه اضطر إلىٰ أن يعقد صلحاً مع العدو علىٰ أن يدفع المظفر فدية مقدارها خمسة آلاف دينار كل عام[4]، وقد علق ابن عذارىٰ علىٰ هذا الأمر بقوله: «ولم يزل عدو الله فرديناند يقوىٰ، والمسلمون يضعفون بغرم الجزية للنصارىٰ، إلىٰ أن نزل اللعين علىٰ مدينة قلمرية»[5].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٣، ص ٤٥٣.

(٢) ابن عبد البر، القصد والأمم، ص ٣٦.

(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢١١-٢٣٨.

(٤) المصدر السابق، ج٣، ص ٢٣٨، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٨٦.

(٥) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٣٨.

وحينما تمكن ألفونسو السادس ملك قشتالة من دخول مدينة طليطلة سنة ٤٧٨ هـ ـ حينما خذلها المسلمون، ولا سيما عمر المتوكل بن الأفطس (٤٦٤ ـ ٤٨٤ هـ) ـ أرسل الملك النصراني إلىٰ ابن الأفطس يطلب منه تسليم بعض قلاعه وحصونه، ويتوعده بسوء العاقبة إن هو تباطأ في ذلك(١).

وبالرغم مما أظهره المتوكل ابن الأفطس من شجاعة حينما هدده الملك النصراني حيث رفض الخضوع له في بادئ الأمر، ويبدو هذا واضحاً من رسالته التي أرسلها إلىٰ أمير المرابطين يوسف بن تاشفين(٢)، فإنه ما لبث أن انتابه الضعف فآب إلىٰ منهجه السابق في موالاة النصارىٰ ودعوتهم؛ وخصوصاً حينما رأىٰ ما حلّ بزميله عبد الله بن بلقين سنة ٤٨٣ هـ علىٰ يد المرابطين؛ إذ راسل الملك القشتالي، ثم سلَّم له مدينة شنترين علىٰ أن يدفع عنه الخطر المرابطي، لكن رعيته لم يرضها هذا التصرف منه فراسلوا المرابطين يطلبون منهم سرعة الحضور كيلا يقتحم النصارىٰ بطليوس نفسها(٣)، فلما جاء المرابطون قبضوا علىٰ المتوكل وابنيه الفضل والعباس وقتلوهم(٤).

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١٨٠، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٩٠، Altamera: Hestoria de Espania 30 Ed. T.I. Madrid 1913. pp.261.

(٢) ومما جاء في تلك الرسالة: «ولم يزل دأبها التشطط والعناد، ودأبنا الإذعان والانقياد حتىٰ نفد الطارف والتلاد، وأتىٰ علىٰ الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن». (محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٩٢ ـ ٩٣).

(٣) ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٧٢، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٨٥ ـ ١٨٦، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٤) ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٠٨، المراكشي، المعجب، ص ١١٢، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩، وقد ذكر ابن بلقين أن المتوكل قد احتاط قبل قتله حيث أرسل ابنه المنصور بأمواله إلىٰ حصن شانجش القريب من قشتالة فتحصن به المنصور، فلما رأىٰ ما حل بأبيه وأهله علىٰ أيدي المرابطين توجه إلىٰ ألفونش حيث سلم له الحصن، كما أقام في قشتالة حيث صار عوناً للنصارىٰ ضد المسلمين، كما قيل إنه دخل في الديانة النصرانية. (ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٧٤).

أما المنذر بن يحيىٰ صاحب سرقسطة (٤٠٧ ـ ٤٣٠ هـ) فقد بالغ في موالاة النصارىٰ ولا سيما ريمنده وشانجة ملكَيْ نبرة، حيث يذكر كلٌ من ابن بسام وابن عذارىٰ أنه بلغ به الأمر في استمالة ذينك الملكين أن أجريا عقد نكاح بين شانجة ملك نبرة ورامون ملك برشلونة في حضرة المنذر وبين يديه، حَضَره حفل من أهل الملتين[1]، ويرىٰ بعض المؤرخين والكتَّاب أن هذه المبالغة من التودد والموالاة وفَّرت الهدوء والسلام لإقليم سرقسطة، وأنها كانت من قبيل الخدعة للنصارىٰ المتربصين بالمسلمين[2].

ولكن من يرصد الأحداث السياسية والحربية لتلك المنطقة يدرك أن هذا التوجيه والتعليل غير مقبول لما يأتي:

١ ـ أنه لقي معارضة قوية من لدن سكان منطقة سرقسطة حيث قرفت الألسنة منذراً لسعيه في توحيد كلمة النصارىٰ[3]، كما لقي ذلك العمل إنكاراً واضحاً من أهل تُطيلة حيث أعلنوا عصيانهم للمنذر احتجاجاً علىٰ عمله، فلما علم بذلك شانجة ملك نبرة أرسل يستدعي قوماً من أعيانهم؛ حيث حاول ثنيهم عن معارضتهم ولا سيما تصديهم للجيش النصراني ومنعه من دخول البلاد، لكن من قابله من الأعيان أخبروه بأن هذا موقف الناس علىٰ الرغم من موافقة المنذر وإذعانه لتبعيتهم، وبالرغم من هذه المحاولة فإن عامة الناس لم يتقبلوا ذلك الأمر بل نفروا منه، كما عزموا علىٰ التصدي للقوىٰ النصرانية حيث خرج أهل البلد كلهم للدفاع عن مدينتهم[4].

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ١٨٢، البيان المغرب، ج٣، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) من هؤلاء المؤرخين والكتاب: ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ١٨٢، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٧٦ ـ ١٧٧، رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٣٢٧، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٦٨.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ١٨٢.

(٤) المصدر السابق، ق ١، ج ١، ص ١٨٤.

٢ ـ إن ما هدف إليه المنذر يمكن الوصول إليه بوسائل وطرق أقل تنازلاً، وأكثر حفظاً لكرامة المسلمين وعزتهم.

٣ ـ ما ذكره كل من ابن بسام وابن عذارىٰ حينما أيدا ذلك العمل من أن ذلك العقد قد فسد حيث ذكرا أنه «لم ينفع الله الطاغيتين بصهرهما الذي كانا عقداه بحضرة منذر إذ أعجل عنه شانجة وأثيره ريمنده وابنه بعده؛ فشتت الله شمل الطاغية»[1]، إن هذا التسويغ غير مقبول؛ لأن النتائج كانت في علم الغيب ولم يكن المنذر حينما أقر هذا العمل عارفاً بها أو مستشرفاً لكُنهها.

٤ ـ ذكر ابن بسام قوله: «ولم ينفع الله الطاغيتين بصهرهما الذي كانا عقداه للتألف علىٰ المسلمين»[2]؛ لعل هذا النص واضح ولا يحتاج إلىٰ تعليق؛ إذ كيف يبارك عقداً لجمع كلمة النصارىٰ ضد المسلمين.

٥ ـ إن تطورات الأحداث بعد ذلك تدل علىٰ أن قبول النصارىٰ لتلك التنازلات المهينة من قبل المنذر كان قبولاً مؤقتاً ريثما تتاح الفرص، فقد أغار ملك برشلونة علىٰ بعض أطراف مملكته مما اضطره إلىٰ أن ينزل له عن بعض القلاع، والحصون[3]، كما تدلنا أيضاً علىٰ أن المنذر لم يكن حريصاً وجاداً في سعيه لمصالح المسلمين حينما قدَّم تلك التنازلات؛ إذ لم يستغل ذلك الأمان الذي حصل لإعداد القوة وحماية الثغور بل ظل مؤثراً «لشهواته والمسارعة لقضاء لذاته، والانهماك في طلب راحته، والشغف بزي دنياه، والكلف بزخرفها

---

(١) هذه رواية ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٧٧، وقد أورد هذا النص مع اختلاف يسير ابن بسام، ق ١، ج ١، ص ١٨٢.

(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ١٨٢.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٩٧، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٦٨.

والتهالك على حبها . . . فاتخذ الجواري الحسان وملاح الغلمان»[١] .

وبعد هذا العرض فإنه بإمكاننا أن نقول : إن ما ارتآه وحسَّنه بعض المؤرخين والكتَّاب للمنذر ، ليس مقبولاً حيث لم يقبله من عايشه أو اكتوىٰ بناره من الناس ، ولعل تباين نصوصهم التي أوردناها تدلنا علىٰ صحة هذا الاتجاه .

وقد خَلَف بني تجيب علىٰ حكم منطقة سرقسطة بنو هود حينما استولىٰ سليمان بن محمد بن هود (٤٣١ ـ ٤٤١ هـ) عليها سنة ٤٣١ هـ ، وفي سنة ٤٣٥ هـ ثار نزاع بينه وبين جاره يحيىٰ بن إسماعيل بن ذي النون علىٰ منطقة وادي الحجارة التي استولىٰ عليها بنو هود ؛ حيث لم يتمكن ابن ذي النون من استعادتها ، حينئذ لجأ إلىٰ النصارىٰ حيث فاوض فرديناند الأول ملك قشتالة ، وطلب العون منه نظير أن يؤدي إليه مالاً كثيراً ، ويعترف له بالولاء والطاعة ، فاستجاب له الملك القشتالي حيث أغار علىٰ أراضي بني هود ، وحينما رأىٰ ابن هود تحركات الملك القشتالي نحو أراضيه بادر بإظهار الولاء والطاعة له ؛ حيث بعث إليه بأموال جزلة ، كما طلب منه أن يُغير علىٰ أراضي بني ذي النون[٢] ، فلما رأىٰ ذلك ابن ذي النون التجأ إلىٰ غرسية أخي فرديناند ، فاستغل النصارىٰ تلك الفرص محاولين الاستفادة منها قدر الإمكان فخرَّبوا ديار المسلمين .

ولم تتوقف موالاة بني هود عند هذا الحد ، بل إنها ازدادت حينما تفاقم الخلاف بين أبناء سليمان المستعين بالله الخمسة بعد وفاته ، حيث والوا النصارىٰ واستعانوا بهم بعضهم ضد بعض ، ويبدو أن التنازلات التي قدمها حكام

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٨١ .
(٢) ابن عذارىٰ ، البيان المغرب ، ج٣ ، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

سرقسطة كانت كبيرة ومغرية؛ إذ تنافس عليها أبناء فرديناند بعد وفاته عام ٤٥٧ هـ[١].

وكان النصارىٰ يقبلون أي ولاء مهما كان صاحبه وكيفما كانت أهدافه، بل ربما حاولوا زرع التنافس بين أولئك الزعماء حتىٰ تكون موالاتهم قوية، وعطاؤهم كثيراً، فحينما خاطب حاكم بلنسية أبو بكر أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز (٤٥٧ ـ ٤٧٨ هـ) الملك القشتالي ألفونسو السادس أعلن أنه انضوىٰ تحت حمايته، كما تعهد له بأداء الإتاوة السنوية مقابل حمايته من أي خطر، وقد نافسه في ذلك المؤتمن بن المقتدر بن هود (٤٧٤ ـ ٤٧٨ هـ)، حيث خاطب ألفونسو مبدياً رغبته في كسب صداقته، كما دفع إليه مائة ألف دينار مقابل تخليه عن ابن عبد العزيز ومساعدته في السيطرة علىٰ بلنسية[٢].

هكذا تسابق أولئك الزعماء من أجل كسب ود الملك النصراني الذي وجدها فرصة ثمينة، فقد توجه نحو بلنسية فخرج إليه ملكها أحمد بن عبد العزيز، حيث ترقق في مخاطبته، وأقنعه بالرجوع فانصرف ألفونسو بعد أن وعده بحمايته[٣].

ولعل من أوضح صور الموالاة والخضوع للنصارىٰ وتمكينهم من بلاد المسلمين مقابل مساعدات رمزية ووقتية يقدمونها للمسلمين هي موالاة المقتدر بالله ابن هود للقائد النصراني «ردري جو دي بيبار» المعروف

---

(١) انظر في تفصيلات ذلك: ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٢٣، ٢٨١، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٧١، السامرائي، الثغر الأعلىٰ، ص ٩.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشىٰ، ج ٥، ص ٢٥٣، خليل السامرائي، الثغر الأعلىٰ، ص ١١٠، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٨٦.

(٣) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٤٩.

بـ (القَمْبيطور)[١]؛ حيث كان المقتدر أول من نهج هذا النهج من زعماء الطوائف، وذلك سنة (٤٧٤ هـ/ ١٠٨٠ م)[٢].

وكان القَمْبيطور كما تُصوِّره الروايات التاريخية مغامراً لا عهد له ولا ذمة، يبيع الصديق والعدو معاً[٣]، كما يحاول انتهاز الفرص بأي ثمن، وله في هذا الميدان مواقف مشهورة تدل على ما تأصل في نفسه من تلك الصفات القبيحة، كما تُبين حقده على المسلمين، وأنه كان فضلاً عن مطامعه في المسلمين كانت تحركه ضدهم - أيضاً - روحه الصليبية الحاقدة، ومن الأدلة على ذلك - والأدلة هنا كثيرة - موقفه من حليفه المقتدر ابن هود صاحب بلنسية حينما حاصره المنذر ابن هود صاحب طرطوشة ودانية والجزء الشرقي من مملكة سرقسطة، حيث استغاث المقتدر بالمستعين ابن هود صاحب سرقسطة وخصم المنذر، فأجابه

(١) الكمبيطور أو القمبياطوار، هكذا تسمِّيه بعض المصادر الإسلامية، وهو فارس قشتالي يدعى ردري جو دي بيبار Rodri go de vivar ولد في برغش قرب حاضرة قشتالة؛ في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، ثم دخل في خدمة ألفونسو السادس حيث أبلى بلاء حسناً في حرب المسلمين، ولكن العلاقة ساءت بينهما فأبعده ألفونسو من بلاطه فتولى قيادة مجموعة من الجنود النصارى، وأخذوا يغيرون على الأراضي الإسلامية.
وكان الكمبيطور يتمتع بروح صليبية عالية ضد المسلمين، كما كان مشهوراً بشجاعته وفروسيته، توفي سنة ١٠٩٩م (ابن بسام، الذخيرة، ق٣، ج ١، ص ٩٩، ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٢٥ - ١٢٦، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٠٤، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٨١، سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج ١، ص ٥٤٤).

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ٢٠٤، سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج ١، ص ٥٤٤، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٨١.
Memendez Pidel R. El Mumor 1000 de la colecciona auslral Espara caloe- Madrid 1973, 70 ed.
(وسوف نتحدث عما فعل الكمبيطور حين حديثنا عن النتائج في الفصل الثالث إن شاء الله تعالى).

(٣) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٣٦.

المستعين وهبَّ بجيش لنصرته، وكان يصطحب معه القَمْبيطور في ثلاثة آلاف فارس، وذلك عام (٤٨١ هـ / ١٠٨٨م)، وكان المستعين قد اتفق معه على أن تكون الغنائم كلها من نصيب القمبيطور ورجاله، بينما تكون مدينة بلنسية من نصيب المستعين، فلما اقتربوا من المدينة فك عنها المنذر الحصار، وكان القادر يعرف نيّات هؤلاء الذين جاؤوا لمساعدته وأنها لم تكن على ظاهرها؛ فحاول أن يضربهم بعضهم ببعض حيث تحالف سراً مع القَمْبيطور، حينما أرسل إليه الأموال الجزلة والهدايا الثمينة، فلما وصل إلى بلنسية كل من المستعين والقمبيطور ظهرت حقيقة ذلك القائد النصراني، كما انكشف غدره؛ حيث كان يظهر للقادر والمستعين أنه مساعد لكل منهما في آن واحد، وهو في حقيقة الأمر ينوي أهدافاً أخرى[1]، ولعل مما يؤكد هذا الأمر أن هذا القائد كان ينطلق وفق توجيهات الملك القشتالي؛ إذ بعث إليه يؤكد له أنه فيما يعمله ويغنمه إنما هو تابع له، وأن مَنْ معه مِنَ الجند الذين يقودهم في أراضي المسلمين دون أية نفقة من الملك القشتالي، إنما هم تحت تصرفه ينزلون ضرباتهم بالكفرة، وفي وسعهم أن يستولوا على شرقي الأندلس[2]، كما يؤكد ذلك الأمر أن القمبيطور ذهب بعد تلك العمليات الحربية إلى الملك القشتالي، وعقد معه اتفاقاً على أن يقوم القَمْبيطور بحرب المسلمين، وأن الأراضي والمدن والحصون التي ينتزعها منهم تكون ملكاً خاصاً له ولأولاده من بعده[3].

هكذا بدت أهداف النصارى واضحة ضد مسلمي الأندلس، حيث لم يشفع للملسمين ما قدموه من ولاء وطاعة لتلك القوى، بل إن تلك التنازلات أعطت

---

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٦٨، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥، رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٥١.
(٢) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٣٦.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٣٦.

النصارىٰ شعوراً بأن المسلمين وبلادهم تابعون لهم، وأن المسلمين غير قادرين علىٰ إدارة شؤون بلادهم فضلاً عن حمايتها والذود عنها.

وفي هذا الاتجاه سار عبد الملك بن هذيل بن رزين (٤٣٦ ـ ٤٩٦ هـ) حاكم شنتمرية الشرق؛ ذلك أنه حينما سقطت مدينة طليطلة بيد ألفونسو السادس ملك قشتالة سنة (٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥م) ذهب عبد الملك إلىٰ الملك النصراني مهنئاً، كما حمل معه الأموال وهدية جزلة من الحلي والحلل والخيل وتحف الملوك، فأعجب الملك النصراني بتلك الهدية فكافأه عليها بـ (قرد)! فكان عبد الملك بن هذيل يفخر به (أي القرد) علىٰ سائر ملوك الطوائف[1]، ويبدو أن هذا التصرف منه إلىٰ جانب حبه لذاته، ومصالحه الذاتية ثم ركونه إلىٰ الملذات والشهوات هو الذي دفع ابن حيان إلىٰ أن يصفه بأنه كان «سيئة الدهر، وعار العصر، جاهلاً لا متجاهلاً، وخاملاً لا متخاملاً، قليل النباهة»[2].

وكانت مملكة غرناطة بزعامة ملكها عبد الله بن بلقين (٤٦٥ ـ ٤٨٣ هـ) من الدول التي أعلنت في كثير من الأحيان موالاتها للنصارىٰ وخضوعها لهم، كما احتمت بهم ضد مخاطر العباديين والمرابطين، ففي سنة ٤٦٦ هـ عقد ابن بلقين حلفاً مع الملك القشتالي ألفونسو علىٰ دولته[3]، لكن الملك النصراني لم يأبه بهذا الحلف، فقد أغار في السنة التالية علىٰ مدينة غرناطة، وذلك بتحريض من

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٣١٠ـ٣١١، وقد نسب ابن عذارىٰ هذا الفعل إلىٰ ابنه يحيىٰ بن عبد الملك والذي حكم سنة ٤٩٦ هـ، ولكن يبدو أن هذا وهم منه، فالذي عايش تلك الأحداث، ومنها سقوط طليطلة سنة ٤٧٨ هـ، هو الأب الذي حكم حتىٰ سنة ٤٩٦ هـ، وليس الابن الذي خلف أباه، هذا فضلاً عما اتصف به الأب من حبه للملذات، وإذعانه للملك القشتالي.

(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٣٠٩. (نقلاً عن ابن حيان).

(٣) ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ٧٦، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ١١٨.

ابن عباد، حينئذ رأىٰ الأمير عبد الله بن بلقين حاكم غرناطة أن يجدد الخضوع للملك القشتالي فخرج إليه بنفسه حيث تعهد له بأن يقدم له في كل سنة عشرة آلاف مثقال من الذهب، وأن يسلم له بعض الحصون الواقعة جنوب غربي جيان وهي التي باعها الملك النصراني فيما بعد لابن عباد(١).

ولم يتوقف خضوع ابن بلقين عند هذا الحد بل إنه حرّض النصارىٰ ضد المرابطين، حيث كان أول من أعلن العصيان ضد المرابطين، كما أرسل إلىٰ ألفونسو أموالاً وهدايا نفيسة ثم استصرخ به ضد يوسف بن تاشفين، وقد أخذ عليه الشاعر السمساري هذا العمل المهين حيث قال(٢):

صاحبُ غرناطة سفيهٌ	وأعلم الناس بالأمور
صالح الفونش والنصارى	فانظر إلى رأيه الدبير
وشا بنيانه خلافاً	لطاعة الله والأمير
يبني على نفسه سفاهاً	كأنه دودة حرير
دعوه يبني فسوف يدري	إذا أتت قدرة القدير

وكانت دولة بني ذي النون في طليطلة من الدول التي بالغ حكامها في موالاة النصارىٰ، فالمأمون يحيىٰ بن إسماعيل (٤٣٥ ـ ٤٦٧ هـ) حينما هاجم فرديناند ملك قشتالة الأقاليم الشمالية والشرقية لمملكته سنة (٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢م)، وعاث في نواحيها تخريباً لم يحاول المأمون التصدي له ومقاومته بل إنه جمع مقادير كبيرة من الذهب والفضة والأقمشة الفاخرة، ثم سار بنفسه إلىٰ معسكر الملك النصراني فقدَّمها له وأعلن اعترافه بطاعته، كما تعهد له بدفع الإتاوة، فقبل منه

(١) عبد الله بن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ٧٦، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٦٤٣.

(٢) ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ٢٠٦ـ٢٠٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٦، ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

فرديناند المال والعهد، ثم عاد إلىٰ بلاده[١].

وحينما أراد المأمون بن ذي النون سنة ٤٥٧ هـ انتزاع مدينة بلنسية من يد صهره عبد الملك بن عبد العزيز بن عامر استعان بالملك القشتالي؛ حيث تمكن بمؤازرة ذلك الملك من الاستيلاء علىٰ بلنسية[٢].

وكانت موالاة النصارىٰ قد تأصلت عند ملوك الطوائف حتىٰ في حالات ضعف النصارىٰ وتفرق كلمتهم، ويدل علىٰ ذلك أنه حينما توفي فرديناند ملك قشتالة سنة (٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥م) وثارت بين أولاده الثلاثة ـ شانجة ملك قشتالة، وألفونش ملك ليون، وغرسية ملك جليقية ـ حرب أهلية انتهت بانتصار شانجة علىٰ أخويه سنة (٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م)، حينئذ آوىٰ ملك طليطلة المأمون بن ذي النون ألفونش، كما آوىٰ ابن عباد في إشبيلية غرسية ملك جليقية.

وقد بقي ألفونش في ضيافة ابن ذي النون زهاء تسعة أشهر حتىٰ هلك أخوه شانجة عام (٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢م)، وبعد ذلك ساعده المأمون في العودة إلىٰ بلاده كما أمده بالأموال وصحبه مع كبار رجال مملكته في موكب فخم حتىٰ وصل إلىٰ حدود بلاده حيث وعده ألفونسو بدوام الصداقة والمودة بينهما[٣]!

ويبدو أن الملك النصراني قد استفاد كثيراً من إقامته بين ظهراني المسلمين فقد تعرف علىٰ واقعهم، كما ظهرت له مواطن وثغرات الضعف عندهم، فما أن عاد إلىٰ بلاده حتىٰ بدأ يثير الفتن ويضرب المسلمين بعضهم ببعض مستغلاً حرص ابن ذي النون علىٰ موالاته وبقائه في تبعيته، ومما ساعده علىٰ ذلك أنه حينما توفي المأمون بن ذي النون سنة ٤٦٧ هـ، وخلفه حفيده يحيىٰ بن ذي النون الملقب

---

(١) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤، دوزي، ملوك الطوائف، ص ١٧٠.
(٢) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٣٨٩.
(٣) المصدر السابق، ص ٣٩٣، رجب، العلاقات، ص ٣٧٥ـ٣٧٦.

بالقادر (٤٧٨ / ٤٨٥ هـ) ، وكان ضعيفاً مستسلماً حيث وصف بأنه «ربي في أحجار النساء، . . . ونشأ بين الخصيان والغانيات فملك أمره للعبيد»[١]، وقد أدت تصرفاته[٢] المشينة إلىٰ ثورة أهل طليطلة ضده حيث نادوا بخلعه[٣].

وحينما شعر القادر بالخطر استنجد بصديقه ألفونسو السادس ليعينه علىٰ السيطرة علىٰ الوضع داخل طليطلة، ولكن موقف ألفونسو كان مخيباً لآمال القادر علىٰ الرغم مما قدمته له دولة بني ذي النون من خدمات حينما التجأ إليها، حيث يذكر ابن الكردبوس أن ألفونسو خاطبه بقوله: «إن كنت تريد الدفاع عن أنحائك وجّهْ إليّ مالاً وإلا سلمتك لأعدائك»[٤].

هكذا كشر الملك النصراني عن أنياب عدائية ضد حليفه القادر ابن ذي النون، ولم يأبه بما قدمته له تلك الدولة من أياد بيضاء حينما كان لاجئاً بها، كما لم يأبه أيضاً بما قدمه حكام تلك الدولة له من موالاة وتبعية؛ لأنه كان يهدف إلىٰ إضعاف مسلمي الأندلس اقتصادياً أينما كانوا؛ وذلك لكي يتمكن من إخضاعهم عسكرياً، كما كان يهدف إلىٰ استثمار تلك الفتنة التي ظهرت في طليطلة، وقد حدث هذا حينما جمع القادر أهل المدينة من عامة وخاصة وهدَّدهم بجعلهم هم وأبنائهم رهينة عند ألفونسو إذا لم يجمعوا له المال المطلوب، فلم يجد أهل طليطلة

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٠.
(٢) من الأعمال التي أخذها أهل طليطلة علىٰ القادر قيامه باغتيال وزير جده الفقيه أبي بكر الحديدي عام ٤٦٨ هـ، فقد دبر مؤامرة لقتله داخل قصره علىٰ الرغم من معارضة كثير من الناس لهذا العمل بسبب محبتهم للوزير. (ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٥١، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٧٩، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٧٧، القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج ٢، ص ٨٢٠).
(٣) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٦.
(٤) المصدر السابق، ص ٨٢.

مناصاً من الثورة ضده سنة ٤٧٢ هـ؛ حيث حاصر الثوار قصر القادر، وكادوا يقتحمونه لولا أنه فرّ[١] من بعض الأبواب الخلفية حيث استقر بمدينة كونكة[٢].

ويذكر كل من ابن بسام[٣]، وابن الكردبوس[٤] أن القادر حينما استقر في مدينة كونكة بدأ بمراسلة ألفونسو طالباً منه المساعدة في إعادته إلىٰ طليطلة، وهكذا لم يستفد القادر من ذلك الدرس القاسي الذي اكتوىٰ بناره حينما تنكر له وخذله ألفونسو في ذلك الموقف الصعب.

وهذا الحدث له أكثر من دلالة لعلَّ من أهمها: أن القادر ابن ذي النون كان قد غرق في مستنقع التبعية للملك القشتالي لدرجة أنه أصبح لا يستوعب الدروس والعبر التي تُخلفها الأحداث، ومن تلك الدلالات أيضاً أن الملك القشتالي لم يكن يقيم أي تقدير لحلف أو معروف مع المسلمين، إنما كان هدفه ضرب المسلمين وإضعافهم واكتساح أراضيهم حتىٰ لو كان ذلك علىٰ حساب العهود والمواثيق فضلاً عن الوفاء وردِّ الجميل.

وعلىٰ أي حال فإن ألفونسو قد وجدها فرصة مواتية لإعانة القادر في استعادة طليطلة التي خرجت عن حكمه حينما دعا أهلُها المتوكلَ ابن الأفطس صاحب بطليوس ليتولىٰ أمرهم بعد فرار القادر منها.

ولم تكن نجدة ألفونسو للقادر بدافع من نخوة أو شهامة أو رغبة في نصرة

---

(١) بعد أن أفلت القادر من الثوار هرب بصورة مزرية؛ حيث لحقت به زوجته وابنته مشياً علىٰ الأقدام، وقد ضاقت به السبل فلجأ إلىٰ حصن وبذة لكن زعيم الحصن عامر بن لبون رفض استقباله، فسار شرقاً إلىٰ مدينة كونكة حيث استقر بها. (ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٥٧-١٥٨).

(٢) المصدر السابق، ق ٤، ج ١، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٣) المصدر السابق، ق ٤، ج ١، ص ١٥٩.

(٤) تاريخ الأندلس، ص ٨٣.

مظلوم كما عرفنا، بل كانت ثمناً زهيداً لاتفاق مجحف بين الرجلين، فقد اتفقا على أن يعطي القادر ألفونسو مقابل تلك الإعانة جميع أموال المدينة بعد استعادتها بالإضافة إلى حصني سرية وقورية[١]؛ ليكونا رهناً بيد ألفونسو الذي شحنهما بعد استلامهما بالمقاتلة، وجعلهما منطلقاً لعملياته العسكرية القادمة[٢]، وقد تمكن القادر ابن ذي النون من دخول طليطلة سنة ٤٧٣ هـ تحت مظلة السيوف القشتالية؛ حيث أخذ بعد ذلك يجمع الأموال من الناس، وعلى الرغم من كثرة الأموال التي استحوذ عليها؛ فإنها لم تقنع الملك النصراني مما اضطر القادر إلى إضافة أمواله الخاصة إليها، ودفعها إلى ألفونسو، ولكنها مع ذلك لم تقنعه حيث أخذ منه حصن قتالش[٣] رهناً ثم عاد إلى بلاده محملاً بأموال المسلمين التي أخذها القادر منهم غصباً وظلماً[٤].

هكذا جلس القادر مرة أخرى على عرشه المضطرب، والفوضى تسود المدينة، وأهلها في عيش ضنك، يتوقعون من حاكمهم الثأر والانتقام، وكان ذلك في آخر سنة ٤٧٤ هـ[٥].

وفي يوم عيد الأضحى من ذلك العام ثار أهل طليطلة ضد القادر مرة أخرى حيث أخذوا عليه استمراره في استنزافه لأموالهم وتقديمها لألفونسو؛ إذ كان يقدم له مائة وخمسين ألف مثقال من الذهب، وخمسمائة مد من الطعام ضيافة له

---

(١) حصنا قورية وسرية، حصنان صغيران من الحصون القريبة لطليطلة، ابن الكردبوس، (تاريخ الأندلس، ص ٨٣ حاشية(١)).

(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٢٥، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٣.

(٣) قتالش، هذا الاسم يطلق على عدة أمكنة في بلاد الأندلس، ولكن يبدو أن المقصود به هنا هو ذلك الحصن الذي يحمل هذا الاسم بين طليطلة ووادي الحجارة على الحدود القشتالية. (ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٣).

(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٢٥، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٣، رجب، العلاقات، ص ٣٧٨.

(٥) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ١٠٩.

كل ليلة طوال بقائه في حصن قتالش، وفي أثناء تلك الثورة طمع بنو عباد وبنو هود في امتلاك طليطلة، حينئذ لجأ القادر إلى الملك القشتالي حيث كتب إليه وتخلى له عن قتالش وعما يتبعها من حصون على أن يعينه على أخذ بلنسية وأقطارها عوضاً عنها[١]، وهكذا تدهورت الأحوال في طليطلة بسبب موقف حاكمها الموالي للنصارى كما سنرى ـ إن شاء الله ـ في آخر هذا الكتاب.

ولعل من المناسب أن نشير هنا إلى أن سقوط طليطلة بيد ألفونسو قد كشف لنا عن بعض الحقائق المهمة في قضية الموالاة عند ملوك الطوائف:

منها: أن ملوك الطوائف كانوا موالين للملك القشتالي حيث خذلوا إخوانهم أهل طليطلة أثناء الحصار، ثم بعد سقوط المدينة، وهذا بلا شك مما جعلهم يصغرون في أعين الناس جميعاً بمن فيهم الملك النصراني.

ومن تلك الحقائق أن القادر ابن ذي النون على الرغم من فقده لطليطلة حاضرة ملكه، وعلى الرغم ـ أيضاً ـ من خذلان النصارى له في أكثر من موقف فإنه بقي موالياً لهم، حتى بعد تلك الكارثة! وفي هذا يقول ابن بسام: «وخرج ابن ذي النون خالياً مما تمناه، شَرِقاً بعقبى ما جناه، والأرض تضج من مقامه، وتستأذن في انتقامه، واستقر عند الفونش محفور الذمة، مذال الهمة، ليس دونه باب، ولا دون حرمه ستر ولا حجاب، حدثني من رآه يومئذ بتلك الحال وبيده اصطرلاب يرصد فيه أي وقت يرحل! وقد أطاف به النصارى والمسلمون، أولئك يضحكون من فعله، وهؤلاء يتعجبون من جهله»[٢]. ولم يكن ابن بسام وحده هو الذي أنكر على القادر ذلك العمل، بل إن ابن الخطيب قد سخر منه

(١) انظر تفصيلات ذلك في: ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٢٩ ـ ١٣٠، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٨١، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٤، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ١٠٩ ـ ١١١.

(٢) الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٣٠.

ومن عمله المشين، كما بيَّن أن ما حل به إنما هو بسبب ركونه إلىٰ النصارىٰ حيث لم يفوا بوعدهم له[١].

كان هذا عرضاً سريعاً لمواقف حكام طليطلة من الدول النصرانية المجاورة لهم، وقد تبين لنا من خلاله أن ما قام به أولئك الحكام ولا سيما القادر لم يكن موالاة وتبعية فحسب بل كان رقّاً مغلظاً، ومع هذا لم ينفعه ذلك بشيء بل قذف به في مستنقع الذل والعبودية أولاً ثم فقدان السلطة والسلطان الذي كان من أهم أهدافه وأغلىٰ غاياته.

أما بنو عباد حكام إشبيلية فقد حاولوا في بادئ الأمر مقاومة القوىٰ النصرانية، وعدم الإذعان لها، ويتمثل هذا في الجيش الذي أرسله مؤسس دولة بني عباد القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد (٤١٤ ـ ٤٣٣ هـ) بقيادة ابنه إسماعيل سنة ٤٢٥ هـ إلىٰ مملكة ليون[٢]، لكن هذه الروح ما لبثت أن ضعفت في عهد خَلَفه المعتضد (٤٣٣ ـ ٤٦٤ هـ) الذي أعلن خضوعه لملك قشتالة فرناندو الأول حينما هدد أراضيه، فتم الاتفاق بين الملكين سنة ٤٥٥ هـ علىٰ أن يقدم ابن عباد لملك قشتالة إتاوة سنوية[٣]، ولما توفي فرناندو بعد تلك المعاهدة بثلاث سنوات وخَلَفه ولده سانشو ظل المعتضد يؤدي إليه الأموال أسوة بأبيه حتىٰ وفاته.

---

(١) أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٨١.

(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٠٣، دوزي، ملوك الطوائف، ص ٢٩.

(٣) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٤٨.

وبالإضافة إلىٰ ما ذكر أعلاه، فقد تم الاتفاق أيضاً علىٰ أن يسلم المعتضد جثمان القديسة خوستا شهيدة إشبيلية ـ كما يقولون ـ، فوعده بتحقيق ذلك، ثم جاء مندوب من قبل فرناندو وتسلم ذلك الجثمان. (محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٤٨، رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٣٨٤).

وحينما نشأ الخلاف داخل البيت القشتالي الحاكم - بعد وفاة فرديناند سنة (٤٥٨ هـ / ١٠٦٥م) وتنازع أبنائه على السلطة[١] - لم يحاول المعتضد ابن عباد الاستفادة من تلك الفرصة ونبذ طاعة النصارى، والسعي لأخذ الثأر منهم بل إنه آوى غرسية ملك جليقية الذي هرب حينما اختلف مع أخيه شانجة ملك قشتالة، وهذا بلا شك يعد مؤشراً قوياً على تأصيل الموالاة والتبعية للنصارى عند المعتضد.

وحينما خَلَف المعتمد ابن عباد (٤٦٤ - ٤٨٤ هـ) أباه المعتضد في حكم إشبيلية سار على خطاه في التعامل مع القوى النصرانية؛ وخصوصاً بعدما توحدت ممالك ليون وقشتالة، وجليقية، تحت سلطة ألفونسو السادس الذي اتبع سياسة أبيه فرديناند في استغلال الخلافات الواقعة بين المسلمين وجني ثمارها، مع السعي لإبقاء نار الفتنة مشتعلة كي يدوم لهم ولاء المسلمين وتبعيتهم، وكذلك مواصلة الحملات العسكرية حينما يرون الوقت المناسب، ففي سنة ٤٦٧ هـ قام ألفونسو بحملة ضد إشبيلية للمطالبة بتقديم المزيد من الأموال والخضوع لسلطانه، قد سعى وزير المعتمد ابن عباد لتوجيه تلك الحملة لغرناطة حيث عقد مع الملك النصراني حلفاً ينصّ على أن يتوجه الجيش إلى غرناطة، وفي حالة سقوطها تكون أموالها للنصارى، والمدينة لابن عباد، ولكن حاكم غرناطة عبد الله بن بلقين حينما علم بهذا الاتفاق حاول التصدي له بالتقرب إلى ألفونسو حيث اتفق معه على دفع الإتاوة السنوية، كما حذّر ابن بلقين ألفونسو من أن توسع حكم بني عباد ليس في صالح النصارى؛ حينئذ قَبِلَ ألفونسو ولاء الغرناطيين فكفّ عن حربهم[٢].

---

(١) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٤٨.
(٢) عبد الله بن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ٧٣ - ٧٥.

وكان طموح العباديين ورغبتهم في توسيع رقعة دولتهم إلىٰ جانب عدم اكتراثهم بمصالح المسلمين من العوامل القوية التي جعلتهم يرتمون في أحضان النصارىٰ ضد إخوانهم المسلمين طمعاً في معونتهم؛ فإن لم تكن.. فرضاهم وسكوتهم، ومما يدل علىٰ ذلك أنهم حينما أخفقوا في إخضاع غرناطة توجهوا نحو مرسية التي كان يحكمها أبو عبد الرحمن ابن طاهر (٤٥٥ ـ ٤٧١ هـ) حيث فاوضوا ملك برشلونة الكونت ريمون بيربخير الثاني، وقد تم الاتفاق علىٰ أن يدفع له المعتمد عشرة آلاف مثقال من الذهب نظير معاونته علىٰ الاستيلاء علىٰ مرسية، وأن يقدم كل واحد من الطرفين رهينة لضمان التنفيذ، ولكن هذا المشروع لم ينجح كسابقه؛ حيث لم يتمكن العباديون من دخولها إلا في سنة ٤٧١ هـ بعد أن ساءت العلاقة بين الدولتين[١]، ومما يدل علىٰ طموحات العباديين أن ألفونسو أبقىٰ فرقة من جيشه مع جيش غرناطة لكي يوجد قدراً من التوازن بينه وبين جيش العباديين الذين كانوا يطمعون دائماً في توسيع رقعة دولتهم علىٰ حساب جيرانهم ملوك الطوائف ولا سيما الغرناطيين[٢].

ومما لا شك فيه أن تلك التبعية الواضحة التي أبداها العباديون للنصارىٰ هي التي قلَّلت من هيبتهم؛ مما جرأ عليهم موظفي النصارىٰ فضلاً عن قادتهم وملوكهم، ولعل ازدراء الوزير اليهودي ابن شاليب وتهديده للمعتمد ابن عباد من الأدلة القوية علىٰ هذا الأمر ـ كما سنرىٰ إن شاء الله ـ[٣].

ويبدو أن الأنانية وحب الذات إلىٰ جانب الحرص علىٰ التوسع في السيطرة والعمل من أجل البقاء في السلطة قد أصلت في نفس المعتمد ابن عباد موالاته

---

(١) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٤٥ ـ ١٤٦، دوزي، ملوك الطوائف، ص ١٠ ـ ٣١.
(٢) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٣٨٨.
(٣) انظر تفصيلات ذلك في الفصل الثالث من هذا البحث.

للنصارىٰ وتبعيته لهم، بل وشعوره بأن هذه الأعمال هي القنوات والجسور المؤدية إلىٰ تلك الطموحات، وهذا ما جعله يقدم علىٰ كثير من الأعمال التي يناقض بعضها بعضاً، فقد ذكر المؤرخون أنه كان صاحب الفضل في قدوم المرابطين إلىٰ الأندلس؛ حينما استنجد بهم، وبيَّن لهم ضرورة دخولهم الجزيرة الأندلسية من أجل الوقوف في وجه الخطر النصراني، لكنه ما لبث أن تغير موقفه حيث عاد إلىٰ موالاة النصارىٰ ضد المسلمين(١).

وقد بقي هذا الولاء حتىٰ بعد دخول المرابطين الأندلس؛ إذ حاول أمراء كلٍّ من غرناطة، وإشبيلية، وبطليوس، وغيرهم الارتماء في أحضان النصارىٰ، وتقديم مزيد من التنازلات لهم، حيث أعطوهم عدداً من الحصون مقابل حمايتهم من أيّ خطر يحيط بهم، لكن هذا الأمر لم يُفدهم شيئاً؛ فقد تمكن المرابطون في النهاية من القضاء عليهم جميعاً(٢).

وبعد هذا العرض لمواقف ملوك الطوائف من القوىٰ النصرانية في شبه الجزيرة الأيبيرية؛ فإنه بوسعنا أن نقول إن تلك المواقف كانت نابعة من شعور معيّن عند أولئك القوم، ويتمثل هذا الشعور بالقناعة التامة بأن القوىٰ النصرانية هي القادرة وحدها علىٰ تثبيت أقدامهم في السلطة أو القضاء عليهم عند الاقتضاء، ونتيجة لهذه القناعة المتمخضة عن ذلك الشعور جاءت تصرفاتهم ومعاملاتهم مع تلك القوىٰ منسجمة مع الوسائل والأساليب التي كانوا يرون أنها تحقق تلك المصلحة لهم.

---

(١) سوف نفصل القول في هذه الفقرة في الفصل التالي إن شاء الله.

(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٣٠٥، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٩٨، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٣٢، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ٢٨٧ـ ٢٨٨.

وقد وصف هذه القناعة ابن بسام حين حديثه عن إسماعيل بن ذي النون حيث قال: «ولقد أساء من جاء بعده ـ يعني إسماعيل ـ ذهاباً في الكِبْر، وتهاوناً بالأمر، وقعوداً عن النصر، واستظهاراً بأحزاب الكفر، سلْمهُ باطلٌ وبطالةٌ، وحَرْبه غواية وجهالة، في المشركين نجومه وديمه، ولهم مواثيقه وذممه، وفي المسلمين همومه وهميمه، وعندهم بوائقهُ ونقمهُ»[١].

ومما لا شك فيه أن من أولىٰ تلك الوسائل هي إعلان التبعية والولاء الظاهر لتلك القوىٰ مهما كلّف هذا الأمر من تبعيات أدبية أو مادية، وهذا بلا ريب كان هدفاً أسمىٰ وغاية نبيلة لدىٰ النصارىٰ المتربصين، فقد شعروا بأنهم قد تمكنوا من تطويع أولئك القوم، وإرغامهم علىٰ الإذعان لهم؛ ولهذا قال الحاكم النصراني لطليطلة ـ بعد سقوطها بيد ألفونسو ـ: «إنه لن يجد عمّالاً أطوع من ملوك الطوائف»[٢].

ومما يجدر ذكره هنا أن تلك الموالاة لم تكن خاصة بملوك الطوائف، بل تجاوزتهم إلىٰ بعض العامة وضعاف النفوس من الموظفين والفقهاء، فالناس علىٰ دين ملوكهم[٣]، وقد صور الشاعر ابن عبد الجبار[٤] ذلك بقوله:

فَهُم أحمى لحوزتنا وأولى ... بنا وهم الموالي والعشيرُ
لقد ذهب اليقين فلا يقين ... وغرّ القوم بالله الغرورُ
رضوا بالرق يا لله! ماذا ... رآه وما أشار به مُشيرُ

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٤٥.
(٢) المصدر السابق، ق ٤، ج ١، ص ١٣٢، رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٣٨١.
(٣) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٣٨١، (وسوف نفصل القول في هذه القضية في الفصل التالي إن شاء الله تعالىٰ).
(٤) أبو طالب ابن عبد الجبار يعد من شعراء عصر ملوك الطوائف وأدبائهم، لكنه لم يكن ملتزماً بأخلاق الإسلام وآدابه كما ذكر ذلك ابن بسام. (ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ٩١٦ ـ ٩١٧).

مضى الإسلام فابكِ دماً عليه | فما ينفي الجوى الدمعُ الغزيرُ
ولا تجنح إلى سلم وحارب | عسى أن يُجبر العظمُ الكسيرُ[١]

وقد يكون من المناسب أن نذكر في نهاية هذا الموضوع ما ذكره ابن حيان من أن تلك الموالاة قد تأصلت عند أولئك القوم حيث قال: «وكانت طوائف الروم ـ مدة ملوك الطوائف بأفقنا ـ قد كَلِبَ داؤهم بكل إقليم؛ فلاطفوهم بالاحتيال، واستنزلوهم بالأموال، فلم يزل دأبهم الإذعان والانقياد، ودأب النصارىٰ التسلط والعناد، حتىٰ استصفوا الطريف والتلاد، وأتىٰ علىٰ الظاهر والباطن النفاد»[٢].

وقد تمخض عن تلك التبعية والموالاة للنصارىٰ كَسْر كل الحواجز التي كانت تفصل بين المسلمين والنصارىٰ؛ ولهذا أخذ المسلمون يتشبهون بهم في زيهم وأسحلتهم[٣]، كما أن بعض مسلمي الأندلس أخذ يقلد النصارىٰ في الاحتفال بأعيادهم ومناسباتهم الدينية[٤]، وهكذا أصبحت مخالطة النصارىٰ والتأسي بهم أمراً مألوفاً عند كثير من أفراد المجتمع الإسلامي هناك، وهذا ـ بلا شك ـ مما أذل الرئيس والمرؤوس، كما أزال من النفوس الأنفة الإسلامية[٥].

خامساً: حياة الترف والخلاعة والمجون:

كان من مظاهر الضعف المعنوي عند مسلمي الأندلس في عصر ملوك الطوائف انتشار كثير من الانحرافات الخُلُقية بينهم، كحياة الترف، وكالمجون، والخلاعة، وشرب الخمر، والاستغراق في الملذات الجسدية، والإكثار من

(١) المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٤٨٥.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٢٤٨.
(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ١، ص ١٣٦، اللمحة البدرية، ص ٣٩.
(٤) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٧٦.
(٥) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٧٧.

الجواري والنساء، وكان هذا الأمر قاسماً مشتركاً بين كثير من ملوك الطوائف[1].

ومما لا شك فيه أن وجود مثل هذه الأمراض الخُلُقية تعدُّ من أكبر معاول الهدم التي تقضي على الأمم والجماعات حتى الأسر والأفراد؛ إذ هي من سنن الله ـ عز وجل ـ في هذا الأمر: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾ [**الإسراء**: ١٦].

إنما الأمم الأخلاقُ ما بقيتْ ... فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبُوا

وقد فهم هذه الحقيقة ابن خلدون حيث عقد فصلاً في مقدمته بعنوان: (من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة، وبالعكس). وقد جاء في هذا الفصل قوله: «إذا تأذن الله بانقراض المُلك من أمَّة حَمَلَهم على ارتكاب المذمومات، وانتحال الرذائل وسلوك طرقها، فتُفتقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم... واستقرئ ذلك وتتبعه في الأمم السابقة تجد كثيراً مما قلناه ورسمناه»[2].

حياة الترف:

ولو حاولنا استقصاء ما قيل عن حياة الترف في مجتمع ملوك الطوائف لطال بنا المقام لكثرة ما دوّن عن هذا الموضوع، ولتعدد صوره وأشكاله، وتفننهم في التعامل معه؛ مما يدل على إيغالهم فيه وغرقهم في مستنقع رذائله وأوجاعه،

(١) رجب محمد عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٩٦، وقد تمخّض عن حياة الترف والمجون ثروة أدبية تمثلت في الشعر والنثر الذي قاله كثير ممن عشق تلك الحياة؛ مما أثرى الجانب الأدبي في ذلك العصر، وقد اعترف بذلك عدد من المؤرخين المسلمين والنصارى، انظر:

Menendez Pidal: Poesia, arabe Poesia Europes Coleccior austral No 19 Madrid, 1975 pp 94.

Jose Hagerty: Al-muctamid: Poesia Barcelona 1979.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج ١، ص ٢٥٢ ـ ٣٥٣.

ولكن حسبنا هنا إشارة تغنينا ونماذج تهدينا إلىٰ ما جرَّته عليهم تلك الانحرافات الخُلُقية من مآس وأمراض كانت عاملاً رئيساً لما أصابهم من ضعف معنوي. ومما يذكر هنا عن حياة الترف ما ذكره المؤرخون من أن (اعتماد الرميكية) زوجة المعتمد ابن عباد رأتْ ذات يوم بإشبيلية نساءَ البادية يبعن اللبن في القرب وهن رافعات عن سوقهن في الطين، فقالت له: أشتهي أن أفعل أنا وجواريّ مثل هؤلاء النسوة! فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد، وصيّرها جميعها طيناً في القصر، وجعل لها قرباً وصالاً من إبرسيم، وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين. ويقال: إنه لما خُلع وكانت تتكلم معه مرة، فجرىٰ بينهما ما يجري بين الزوجين، فقالت له: والله ما رأيت منك خيراً قط. فقال لها: ولا يوم الطين؟! تذكيراً لها بهذا اليوم الذي أباد فيه من الأموال ما لا يعلمه إلا الله تعالىٰ، فاستحيتْ وسكتتْ[1].

كان هذا مثالاً واحداً علىٰ ما حلّ بدولة بني عباد من ترف وبذخ، وقد سارت علىٰ هذا النهج دولة بني ذي النون التي بلغت في البذخ والترف إلىٰ الغاية كما يقول المقري[2]، وقد ذكر كدليل علىٰ هذا ما عرف عندهم بـ(الأعذار الذنوني) الذي كان يضرب به المثل عند أهل المغرب؛ إذ أصبح عندهم كـ(عرس يوران) عند أهل المشرق[3].

وقد ترك لنا ابن حيان وصفاً لوقائع ذلك الحفل الكبير الذي أقامه المأمون احتفالاً بختان حفيده يحيىٰ، وفيه من صور الترف والبذخ ما يدل علىٰ أن بني ذي النون قد استرسلوا في هذا الأمر[4]، كما بالغوا ـ أيضاً ـ في بناء القصور الفخمة

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ٤٤٠.
(٢، ٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٤٠.
(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٤٣ـ١٤٩.

التي كانت سبباً في هدم الدين والدنيا، وتسلُّط الأعداء من النصارىٰ، كما يقول ابن بسام[1]، وقد عدَّ الأموال التي أنفقت في هذه الأعمال بأنها من السحت[2].

وقد سَلَك مبارك ومظفر العامريان في إشادة البناء والقصور، والتباهي في عليَّات الأمور، مسلك المبذرين، وقد حذا نهجهما كتَّابهما ووزراؤهما وكثير من رعاياهما، حيث هاموا في ترَّهات مضلة، وأعمال متصلة، لاهين عما كانت فيه الأمة حينذاك من محن وأخطار[3]، كما ذكر ابن عذارىٰ أنهما بلغا في هذا الأمر منتهاه؛ حيث انغمسا في النعيم إلىٰ قمم رؤوسهما، وأخلدا إلىٰ الدعة، وسارعا في قضاء اللذة حتىٰ أربيا علىٰ من تقدم وتأخر[4].

ومما يذكر في ميدان حياة الترف التفنن في بناء القصور والمبالغة في الإنفاق عليها، والسهر والجهد في متابعة بنائها، وكان الواحد منهم حينما لا يظهر البناء بالشكل الموافق لرغبته، ولا يسد ما لديه من فراغ، ويملأ ما عنده من طموح؛ يصبح ويضحي وهو مكفهر الوجه، شارد الذهن كأنه قد أصابته فاجعة «لضياع ثغوره، وتشعث أموره، وامتشار الشرك بإزائه وظهوره»[5]. ولعل موقف المأمون ابن ذي النون من عريف بناء قصره بطليطلة دليل واضح علىٰ تأصل حياة الترف في نفوس أولئك القوم[6]، ومما يدل علىٰ هذا الأمر أيضاً أن ابن بسام أفرد حديثاً خاصاً لما تناهىٰ إليه المأمون من تشييد البنيان بقصور طليطلة[7].

(١) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٤٩.
(٢) المصدر السابق، ص ١٤٥-١٤٦.
(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦١.
(٤) المصدر السابق، ج٣، ص ١٦١.
(٥) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٤٦.
(٦) المصدر السابق، ص ١٤٨.
(٧) المصدر السابق، ص ١٤٧.

كانت هذه نماذج لحياة الترف في عصر ملوك الطوائف، وهي بلا شك تعطي دليلاً واضحاً على ما وصل إليه ذلك المجتمع من إيغال في تلك الحياة، بل إنها تدلنا دلالة واضحة على تفننهم في هذا المجال، بل حرصهم عليه مهما كانت النتائج المتمخضة عنه، ولهم في هذا الميدان وغيره من المجالات المشابهة له أخبار مأثورة كما يقول ابن حيان[١].

الخلاعة والمجون:

أسهب المؤرخون في الحديث عن هذا الأمر؛ إذ ذكر ابن حيان أن قرطبة حاضرة المسلمين هناك أصبحت مرتعاً خصباً لمزاولة الرذائل؛ حيث كان ملوك الطوائف إذا احتاجوا إلى شيء من الملهيات يرسلون رسلهم إلى قرطبة للبحث والتنقيب عن الأوصاف التي يريدونها من الجواري، وأنه في شوال سنة ٤٤٢ هـ ورد على أبي الوليد ابن جهور في قرطبة رسول المظفر ابن الأفطس يلتمس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن، فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار واشتراهما له[٢].

كما ورد على أبي الوليد ابن جهور بقرطبة من الكتب في يوم واحد كتاب من ابن صمادح صاحب المرية يطلب فيه جارية عوّادة، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة[٣].

وقد اشتهر المعتمد ابن عباد بأنه كان «له كلف بالنساء وخلط في أجناسهن، فانتهى في ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد نظرائه»، كما أن المعتمد ابن عباد كان مولعاً بالنساء حيث خلع ثمانيمائة امرأة من أمهات الأولاد، وجواري المتعة، وإماء الخدمة[٤].

---

(١) ابن عذارى، ج٣، ص ١٥٦. (نقلاً عن ابن حيان).
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢١٢. (نقلاً عن ابن حيان).
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٢.
(٤) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ٤٣، ٥٣.

وكان مجاهد العامري صاحب دانية والجزر الشرقية ذا شخصية مزدوجة، فطَوْراً كان ناسكاً، وطوراً يعود خليعاً فاتكاً لا يستتر بلهو ولا لذة، ولا يستفيق من شراب وبطالة، ولا يأنس بشيء من الحقيقة، له ولغيره من سائر ملوك الطوائف في ذلك أخبار مأثورة[١]، أما هذيل بن خلف بن زرين صاحب شنتمرية فقد كان من أرفع ملوك الطوائف همة في اقتناء القينات حيث اشترىٰ جارية بثلاثة آلاف دينار[٢].

هكذا غرق أولئك القوم في أوحال الفحش والرذيلة، ومستنقع المجون والخلاعة، وقد استغل هذا الأمر بعض الوزراء والموظفين الذين رغبوا أن يستبدوا بالحكم والسلطان، فأشغلوا حكامهم بإغراقهم في الملذات، وإشغالهم بالنساء اللائي كثرن، وأخذت الكثيرات منهن تطمح في ولاية من تربِّيه من أبناء السلطان ليكون لها الحظوة والغلبة[٣]، ويذكر الأمير عبد الله بن بلقين أن إشغال الحكام بالنساء كان أمراً مألوفاً عند وزراء دولة بني بلقين في غرناطة[٤].

أما شرب الخمر في قرطبة وغيرها من بلدان ملوك الطوائف فيبدو أنه كان أمراً لا غرابة فيه في ذلك العصر؛ ولهذا لما حاول أبو الحزم ابن جهور منعها مدحه الشعراء ومنهم ابن زيدون، وعبد الرحمن بن سعيد المصغر[٥]، كما ذكر المقري أن وادي إشبيلية لا يخلو من جميع أدوات الطرب، وأن شرب الخمر فيه غير منكر[٢].

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٥٦. (نقلاً عن ابن حيان).
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص ٣٠٨.
(٣) رجب محمد عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٩٦.
(٤) مذكرات الأمير عبد الله، ص ٨٥.
(٥) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٣٨٨.
(٦) المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ١٩٩.

ولعل القارئ لدواوين الشعر في ذلك الوقت يدرك كيف أن وصف الخمر والتغني بها كان أمراً مألوفاً عند كثير من شعراء ذلك العصر حتىٰ قال أحدهم[١]:

جرت مني الخمر مجرى دمي فجل حياتي من سكرها

ولم يكن هذا الأمر قاصراً علىٰ فئة معينة من الناس، بل كان كثير من الناس يقضون لياليهم أيقاظاً يجتمعون علىٰ الكؤوس حتىٰ الصباح[٢].

وكان للطرب والغناء نصيب عند أولئك القوم، فقد كانوا يتفاخرون بكثرة آلاته ومدىٰ جودتها حيث يقولون: عند فلان عودان وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك[٣].

ولو حاولنا استقصاء ما ذكره المؤرخون حول الطرب والغناء في عهد ملوك الطوائف لطال بنا المقام، ولكن قد يكون من المناسب أن نكتفي بذكر ما قاله أحد الباحثين المعاصرين حول هذا الموضوع حيث قال: «فانتشرت مجالس الغناء وأصبح هذا الفن بجملته جزءاً من ثقافة الشعب حتىٰ لنجد الفلاح في حقله، والعامل في مصنعه، والفقير في كوخه، لا يقل ولع أحدهم بالغناء عن الأمراء والعظماء»[٤].

وقد بدأت أعراض تلك الأمراض التي حلت بالمجتمع الإسلامي في الأندلس في تلك الفترة تظهر عياناً، فقد استخف بعض الناس بالدين، وتجردوا من الأخلاق والقيم الإسلامية، ولم يعد هناك وازع من دين أو ضمير، حيث انتشر العهر بين النساء والبنات، بل إن بعض زعماء ذلك العصر أباح لرجاله محارم

(١) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٣٦٩.
(٢) رجب محمد عبد الحليم، العلاقات، ج ١، ص ٣٠٠.
(٣) العذري، نصوص عن الأندلس، ص ١٨.
(٤) محمد عبد الوهاب خلاف، قرطبة الإسلامية، ص ٣٢١.

الناس، فكانوا يأخذون النساء من أزواجهن، والبنات من آبائهن، بل إن أحدهم زنىٰ بزوجة أبيه وبعمته غير مبال بحرمة أو مرتدع بوازع من دين أو سلطان[١]، وقد ذكر ابن حزم أن إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة في الأندلس، عشق غلاماً نصرانياً فوضع له كتاباً في تفضيل التثليث على التوحيد تقرباً إليه[٢]، كما يذكر ـ أيضاً ـ أنه في ذلك العصر قد عظم البلاء فهان القبيح ورق الدين حتىٰ رضي الإنسان بالفضائح والقبائح مقابل وصوله إلىٰ مراده وشهوته، وقد حكىٰ لنا كثيراً من القصص حول هذا الموضوع، منها ما ذكره حول «عبيد الله بن يحيىٰ الأزدي المعروف بـ (ابن الحريري)؛ فإنه رضي بإهمال داره، وإباحة حريمه، والتعريض بأهله طمعاً في الحصول علىٰ بغيته من فتىٰ كان علقه»[٣].

كما ذكر ابن بسام أن ابن السقا[٤] وزير بني جهور كان رجلاً عَهِر الخلوة لزهده في النساء، وكلفه بالغلمان، حيث اتخذ داراً آخر مدته للخلوة بهم؛ فكان لا يخدمه فيها ولا يحف به غير خاصة غلمانه، كما كان لا يأذن لأحد من طبقات الناس بالدخول إليه فيها؛ ولهذا أكثر الناس القول في هذه الدار وسمّوها: (دار اللذة)[٥].

ومن العجب أن هؤلاء القوم علىٰ الرغم من وقوعهم أسرىٰ لملذاتهم

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٣١٣.
(٢) طوق الحمامة، ج ١، ص ١٣.
(٣) المصدر السابق، ص ١٣٠.
(٤) هو أبو الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيىٰ المعروف بابن السقاء، كان في أول أمره فقيراً كابد من شظف المعيشة، وكان يسكن مع إخوته بدار صهره بجوار المسجد الجامع في قرطبة، لكنه لما تولىٰ الإمامة أثرىٰ علىٰ حساب الآخرين، حيث يذكر ابن حيان أنه لما تحمل الأمانة جعلها أسفل رجله، كما تحول إلىٰ جُرذ للسرقة والخيانة؛ حيث ابتنىٰ القصور المنيعة. (ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٣٨ ـ ١٤٠).
(٥) الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

وشهواتهم فإنهم كانوا وهم في تلك الحال لا يعفون عمن يشعرون بأنه يسيء إليهم، أو يهدد سلطانهم؛ فالمعتمد ابن عباد حينما غنت له إحدىٰ الجواري فوقع في نفسه أنها تعرّض بالمرابطين ألقاها في النهر فهلكتْ(١).

وكان ممن غرق في تلك المستنقعات المنتنة، ولأَّدة بنت المستكفي الأموي، فقد أعلنت وقوعها في هذا الأمر، حيث كتبت بالذهب علىٰ طرازها الأيمن(٢):

أنا والله أصلح للمعالي ... وأمشي مشيتي وأتيه فيها

وكتبت علىٰ الطراز الأيسر:

وأمكّن عاشقي من صحن خدّي ... وأعطي قبلتي من يشتهيها

هذه صور من مظاهر الضعف في الجانب الخُلُقي التي حلت بالمجتمع الإسلامي في عهد ملوك الطوائف، وقد انعكست آثار ذلك علىٰ قوة المسلمين فأضعفتها؛ ذلك لأن النصارىٰ كانوا يراقبون واقع المسلمين فلما رأوا أنهم قد غرقوا في مستنقع الفحش والرذيلة، وأنهم أصبحوا يعيشون في حياة طابعها الخلاعة والمجون، عدّوا ذلك من أهم المثالب التي يأخذونها عليهم، ومن أحسن الفرص للإطاحة بهم، وقد بيّن هذا الأمر القمبيطور في خطابه إلىٰ أعيان بلنسية، ومما جاء فيه: «من كانت له قضية عادلة فليأت إليَّ متىٰ شاء، وسأستمع إليه، فإني لا أحتجب عنكم، ولا أخلو مع النساء للشراب والغناء كما كان يفعل أولو أمركم ممن لم يمكنكم قط رؤيتهم»(٣).

هكذا زالت هيبة ملوك الطوائف من نفوس أعدائهم، وكُسر حاجز القوة

(١) المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٢٧٦.
(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٠٥.
(٣) راجع طاهر مكي، ص ٤١٧.

بينهم بسبب تردي أخلاقهم وانغماسهم في حياة المتع والملذائذ، ولم يكن هذا الشعور عند النصارىٰ فقط، بل إنهم هانوا حتىٰ عند إخوانهم المسلمين لما عرفوا حقيقتهم، وقد بيّن هذا الأمر السلطان يوسف بن تاشفين (٤٦٥ ـ ٥٠٠ هـ)؛ حيث كان يردد في مجالسه قوله: «إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم لما رأينا استيلاءهم علىٰ أكثرها، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو، وتواكلهم وتخاذلهم، وإيثارهم الراحة، إنما همة أحدهم كأس يشربها، وقينة تُسمعه، ولهو يقطع به أيامه، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم طوال هذه الفتنة إلىٰ المسلمين، ولأملأنها عليهم ـ يعني الروم ـ خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، وإنما هَمُّ أحدهم فرس يروضه ويستفرهه، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يلبي دعوته»[١].

ومما لا شك فيه أن هذا الضعف الذي مني به ملوك الطوائف قد جعل مسلمي الأندلس يصابون بخيبة أمل؛ لأنهم أدركوا أن زمام الموقف أصبح بيد النصارىٰ المتربصين، وقد عبَّر عن هذا الشعور الشاعر الأندلسي ابن العسال حينما قال:

حثُّوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها إلا من الغلطِ
السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسطِ
من جاور الشر لا يأمن عواقبه ... كيف الحياةُ مع الحياتِ في سفطِ؟![٢]

ولم يكن هذا الشعور قاصراً علىٰ المسلمين بل تعداهم إلىٰ العدوّ النصراني الذي أدرك أن حصون المسلمين الداخلية قد ضعفت، وأن الفرصة أصبحت مهيأة له لدخول الثغور والحصون الخارجية؛ ولهذا وضع خطة حربية تتناسب مع ذلك

(١) المراكشي، المعجب، ص ٢٤١ـ٢٤٢.
(٢) ابن سعيد، رايات المبرزين، ص ٥٠، المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٣٥٢.

الواقع، وقد أبان هذه الاستراتيجية الحربية فرناندو بن شانجة ملك جليقية أثناء حصار النصارىٰ لمدينة طليطلة سنة ٤٧٨ هـ، حيث قال لأهلها الذين خرجوا يطلبون الصلح معه لما أعيتهم المقاومة: «ما أجيبكم إلىٰ سلم، ولا أعفيكم من حرب؛ فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم، فقد سكنتموها ما قضي لكم، وقد نُصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلىٰ عدْوَتكم - يعني بلاد المغرب - واتركوا لنا بلادنا، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم»(١)، كما أبانها ألفونسو السادس - ملك قشتالة - حيث قال لرسول المعتمد ابن عباد حينما قدم إليه: «كيف أترك قوماً مجانين تسمَّىٰ كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم... وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا علىٰ المغاني والعيدان! وكيف يحل لبشر أن يقر منهم علىٰ رعيته أحداً، وأن يدعها في أيديهم سدىٰ»(٢).

كما قال أحد قادة النصارىٰ بعد إحدىٰ المعارك التي خاضها مع المسلمين: «كنا نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة؛ فإذا القوم لا دين لهم، ولا شجاعة فيهم، ولا عقول معهم»(٣)، وقد أكد هذا الأمر الكاتب النصراني (انخل بالنثيا) فقد ذكر أن ملوك الطوائف وَهَن أمرهم بسبب ما حل بهم من ترف وبذخ، وسعي للمطامع والنزوات(٤).

وقد صرَّح بتلك النيات والخطط وزير ألفونسو السادس ششنندو (مسنندو)؛

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٨٢.

(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٩.

(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٩٠.

(٤) انخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، (ترجمة حسين مؤنس)، ص ٧٧ - ٧٨.

حيث يذكر الأمير عبد الله بن بلقين في مذكراته أن هذا الوزير النصراني قال لمسلمي غرناطة قبيل سقوط مدينة طليطلة بأيدي النصارىٰ سنة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م): «إنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر حتىٰ غلبهم العرب وألحقوهم بأنخس البقاع جليقية، فهم الآن عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم، فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة، حتىٰ إذا لم يبق مال ولا رجال أخذناها بلا تكلف»[١].

وقد كان انشغال الظافر ابن المعتمد ابن عباد حاكم قرطبة ووزيره (ابن مرتين) باللهو والشراب سبباً في دخول ابن عكاشة مدينة قرطبة وقتله إياهم[٢].

كان هذا عرضاً لبعض ما سجله المؤرخون عن حياة الترف والمجون والخلاعة في المجتمع الإسلامي في عصر ملوك الطوائف، ومما لا شك فيه أن هذا التحول في حياة الناس في ذلك العصر يعد منزلقاً خطيراً، وسابقة لها ما بعدها من النتائج والآثار كما رأينا، ويبدو أن من الأسباب القوية في إيغال أولئك القوم في تلك المستنقعات الموبوءة هو ما منوا به من ضعف معنوي، إلىٰ جانب ما تعرضوا له من نكبات نفسية، وشعور بالقلق؛ مما جعلهم يتوقعون أن في مقارفة مثل تلك السلوكيات مخلصاً لهم من تلك المعاناة والأوجاع النفسية، أو ساتراً ما هم فيه من ضعف وحيرة.

ويضاف إلىٰ ما سبق ما ذكره ابن عذارىٰ من أن المعتضد ابن عباد والىٰ حرب ابن الأفطس صاحب بطليوس عدة شهور من سنة ٤٤٢ هـ؛ فغير بلده، كما دمر عمارات واسعة، وأفسد غلاتها، وأوقع في رعيته المجاعة الطويلة، فلما انتهىٰ ابن عباد من تدويخ بلاده ورجع إلىٰ إشبيلية، أرسل المظفر ابن الأفطس رسولاً إلىٰ قرطبة ليشتري له وصائف ملهيات يأنس بهن نافياً بذلك الشماتة عن نفسه،

(١) التبيان، ص ٧٣.
(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٣، ص ١٥١.

ولم تكن له عادة بمثل هذا الأمر، وقد وجد له رسوله صبيتين ملهيتين عند بعض التجار فاشتراهما بغالي الثمن(١)، وقد تعجب الناس «مما شهر به نفسه من البطالة ـ أيام الحروب ـ المحرمة لإظهار النساء على فحول الرجال العاقدة الآزرة على ما كان يدعيه لنفسه من الأدب والمعرفة»(٢).

هكذا كان أولئك القوم يلقون بأنفسهم في أوحال الترف، ومستنقعات الرذيلة، ظناً منهم أن في تلك الأعمال خلاصاً مما هم فيه من ضعف ونكسة نفسية، وما علموا أنهم بهذا العمل كالمستجير من الرمضاء بالنار، فإلى جانب ضعفهم في ميادين الجهاد ومقاومة الأعداء، فإن هذا التحرر من الأخلاق والعادات والقيم قد أدى إلى ضعف دولهم، وتراخي سلطانهم، فقد أصبحوا أسرى لملذاتهم وشهواتهم حيث وصف أحدهم تلك الحال بقوله(٣):

لعمرك إني بالمدامة قوّال ... وإني لما يهوى الندامى لفعّالُ
قسمت زماني بين كدّ وراحة ... فللرأي أسحار وللطيب آصالُ
فأمسي على اللذات واللهو عاكفاً ... وأضحي بساحات الرئاسة ختالُ
ولست على الإدمان أغفل بغيتي ... من المجد إني في المعالي لمحتالُ

ويقول الآخر:

علل فؤادك قد أبلّ عليل ... واغنم حياتك فالبقاء قليلُ
لو أن عمرك ألف عام كامل ... ما كان حقاً أن يقال طويلُ
أكذا يقود بك الأسى نحو الردى ... والعود عود والشمول شمولُ
لا يستبيك الهم نفسك عنوة ... والكأس سيف في يديك صقيلُ
بالعقل تزدحم الهموم على الحشا ... فالعقل عندي أن تزول عقولُ(٤)

---

(١) البيان المغرب، ج٣، ص ٢١٢.
(٢) المصدر السابق، ص ١٤٨، ٢٣٢.
(٣) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ٤٦.
(٤) المراكشي، المعجب، ص ١٥٢.

وكان هاجس المتعة والملذات الجنسية يسيطر على عقول أولئك القوم حتى وهم في ساحات الوغى وميادين القتال، فالمعتمد ابن عباد حينما كان يحكم شلب أرسله أبوه ليحتل مالقة، لكنه في الطريق إليها انشغل في اللهو والسرور بصحبة مغنيات كان يلتقطهن أثناء مسيره إليها، فلم يستعد لمنازلة الخصوم فهُزم، فلما عاد إلى أبيه ـ وكان غاضباً عليه ـ أرسل إليه قصيدة جاء فيها:

لم أُوتَ من زمني شيئاً ألذُّ به ... فلست أعهد ما كأس ولا وتَرُ
ولا تملّكني ذلٌّ ولا خفر ... ولا سبى خلدي غُنْجٌ ولا حَوَرُ
هو المدام التي أسلو بها فإذا ... عدمتها عَبَثتْ في قلبي الفِكَرُ[1]

ومما لا ريب فيه أن هذا الانحدار في ميادين الفحش والرذيلة كان من أكبر معاول الهدم وأسباب الضعف المادي والمعنوي لأولئك القوم الذين أصبحوا أسرى لملذاتهم وشهواتهم، وقد أدرك خطورة مثل هذا المنزلق الخطير المسلمون الأوائل؛ حيث كانوا يحُذِّرون رعاياهم وجنودهم من مقارفة المعاصي، أو الوقوع في متاهات الذنوب، ومن ذلك ما روي عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ في رسالته التي وجهها إلى قادة جيش المسلمين في معركة اليرموك حيث خاطبهم بقوله: «ولن يؤتى مثلكم من قلة، ولكن من تلقاء الذنوب فاحترسوا منها»[2].

وكذلك ما روي عن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في رسالته التي كتبها إلى سعد بن أبي وقاص، ومن معه من المسلمين يأمرهم فيها بتقوى الله، والاحتراس من الذنوب والمعاصي؛ لأنها هي العدو الأول لهم، ومما جاء في رسالته: «وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله»[3].

---

(١) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ٤٦، هنري بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ٣١٨.
(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٥.
(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١، ص ١٥٣.



الفصل الثالث

آثار الضعف المعنوي ونتائجه

١ ـ ضعف المسلمين عسكرياً، وانقطاع الجهاد.

٢ ـ ازدياد المد النصراني ضد مسلمي الأندلس، وضعف الثغور الإسلامية وعجزها عن مقاومة العدو.

٣ ـ الانهزام الفكري عند بعض مفكري الأندلس.

٤ ـ تدهور الحياة العامة عند مسلمي الأندلس.

آثار الضعف المعنوي ونتائجه

أولاً: ضعف المسلمين عسكرياً، وانقطاع الجهاد:

كان من بين الآثار القوية التي تمخضت عن الضعف المعنوي الذي انتاب مسلمي الأندلس في عصر ملوك الطوائف ذلك التحول الخطير الذي أصاب القوىٰ الإسلامية التي كانت تقف سداً منيعاً في وجه الأخطار النصرانية المتربصة بالإسلام والمسلمين هناك، حيث يدرك المتتبع لأحداث الصراع بين الإسلام والنصرانية في تلك الديار أن ميزان القوىٰ كان منذ الفتح الإسلامي وحتىٰ أواخر القرن الرابع الهجري مائلاً لصالح المسلمين، وهو ما جعل القوىٰ النصرانية تقف مكتوفة الأيدي أمام الإسلام وأهله هناك.

ولكن هذا الوضع بدأ يتغير بتغير واقع المسلمين في مطلع القرن الخامس الهجري، حينما ضعفت ثم سقطت دولتهم الموحدة، وقام علىٰ أنقاضها العديد من الدويلات الإسلامية المتداعية التي ولد الضعف معها، وأصبح الوهن هاجساً ملازماً لقادتها، ولا شك أن هذا التحول في واقع المسلمين تمخض عنه ضعف قوتهم العسكرية بعد أن كانت هي القوة الضاربة في شبه جزيرة أيبيريا[١]، وهذا التغير في ميزان القوىٰ لم ينشأ من فراغ كما لم يكن وليد يومه أو ليلته؛ وإنما جاء نتيجة لعدد من العوامل، وكان له كثير من المظاهر والصور، ومن أهمها ما يأتي:

١ ـ التفكك السياسي وانعدام الوحدة بين المسلمين:

إن تعدد الولاء السياسي لأي قوة مما يجزئ القوة العسكرية، ويعدد مهامها، ويغير أهدافها، فبعد أن كان للمسلمين في الأندلس جيش واحد قوي أصبح لهم

(1) Angel Masea, p.120.

عدد من الجيوش الضعيفة، وكما تعددت وتباينت تلك الجيوش، فقد تعددت أهدافها، وتباينت أغراضها بحسب المصالح والوجهات السياسية والعصبية التي كان يخضع لتأثيرها ملوك الطوائف، حيث اختفى المثل الأعلى الذي كان الأمويون ومن قبلهم يسعون من أجله وهو المحافظة على البلاد ووحدتها(١)، فملوك الطوائف حينما تقاسموا ملك الأندلس، ففرّقوا وحدة البلاد إلى أشلاء عديدة، ولم يكتفوا بذلك بل إنهم أيضاً مزقوا قوتهم العسكرية بدلاً من أن يتحدوا ويجعلوا للمسلمين جيشاً موحّداً يسعى لوقف الخطر النصراني، فقد أنشأ كلٌّ نظام سياسي جيشاً خاصاً به يهدف إلى تحقيق ما يريده زعيم الدولة بغضِّ النظر عن مشروعيته أو أهميته، ولهذا نستطيع القول إنه لم يكن لدول الطوائف جيش حسب المصطلح السياسي أو العرف السائد بين الدول، يهدف إلى المحافظة على وحدة البلاد، وأمن العباد، والمدافعة عن حوزة الدين، بل إن هذه المعاني وغيرها كانت غائبة عن أذهان أفراد تلك الجيوش، كما أن التنظيم الحربي كاد أن يكون معدوماً؛ حيث إنها كانت أشبه ما تكون بتجمعات قبلية تعمل لمصلحتها الخاصة، وكثير من هذه التجمعات ربما فقدت الكثير من العناصر الذين ينفضّون من حولها حينما يرون أن مصالحهم في خطر، أو أن هناك مصالح أهم وأقوى في نظرهم، وتاريخ ملوك الطوائف حافل بالأمثلة والشواهد على هذا؛ حيث كانت المعارك تنشب لأتفه الأسباب، كما أنها كانت تقع بين الجيران والأقارب وربما بين الآباء وبنيهم(٢).

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد كان بعض قادة الجيش يعلنون تمردهم حينما يحرزون نصراً على عدوهم كما فعل معن بن صمادح التجيبي حينما أسند إليه صهره عبد العزيز بن أبي عامر حاكم بلنسية سنة ٤٣٩ هـ مهمة قيادة الجيش

(١) رجب، العلاقات، ص ٢٧٣.
(٢) انظر في تفصيلات ذلك الفصل الثاني من هذا الكتاب.

ومدافعة مجاهد العامري عن بلنسية، فما أن أحرز التجيبي النصر حتىٰ أعلن استقلاله في المرية معلناً عصيانه لأبي عامر[١]، بل إن قائد حامية المدينة كان يتخلىٰ عنها حينما يرىٰ أن مصلحته في خطر، ومن الأمثلة علىٰ ذلك ما فعله ابن الريولة وزير علي بن مجاهد صاحب دانية حيث سلَّم هذا الوزير مدينة دانية للمقتدر ابن هود صاحب سرقسطة[٢]، كذلك حينما حاصر النصارىٰ مدينة قلمرية سنة ٤٥٦ هـ، خذلها قائدها راندة حيث ترك المدينة ولجأ إلىٰ المعسكر النصراني بعد أن أمَّنوه علىٰ نفسه وماله وأهله[٣].

هكذا كان واقع جيوش ملوك الطوائف؛ فلا إعداد معنوي، ولا عدة مادية، كما أنه لا انضباط في الجانب القيادي والعسكري بل إن جيش كل دولة كان أشبه ما يكون بتجمع عشائري، أو منفعي، ما يلبث أن يتبدد حينما يبدو لأفراده أن هناك مصلحة أهم أو خطراً داهماً، ولعل من أقوىٰ الأدلة علىٰ الضعف في الجانب القيادي والعسكري ما قاله أبو إسحاق الطرسوني[٤] واصفاً حال أهل بلنسية، وهم خارجون لملاقاة العدو النصراني في معركة بطرنة[٥] سنة ٤٥٦ هـ، حيث قال:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستمُ حُلَلَ الحرير عليكمُ ألوانَا
ما كان أقبحهمْ وأحسنكمْ بها لو لم يكن ببطرنة ما كانَا[٦]

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٣٢٧.
(٢) عبد الله بن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ٧٨.
(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٨٤، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.
(٤) هو الشاعر أبو إسحاق إبراهيم بن معلىٰ الطرسوني من شعراء المقتدر ابن هود. (ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ٢، ص ٢٦٤، ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٤٥٧).
(٥) بطرنة، قرية من قرىٰ بلنسية يكثر فيها معدن التوتيا. (ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٣٥٥، والمقري، نفح الطيب، ج ١، ص ١٤٢).
(٦) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ٢، ص ٨٥٠، المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ١٨١.

ومما لا شك فيه أن انعدام وجود مقومات الجيش الضارب في عصر ملوك الطوائف كان من أسبابه الرئيسة تفكك الوحدة السياسية الذي نتج عنه تعدد الولاءات السياسية؛ مما فرق الكلمة، وأضعف الهمة، وغيَّر النيات والأهداف.

٢ ـ الركون إلى الآخرين وإهمال الإعداد الذاتي في مدافعة الخطر:

من المظاهر الواضحة في الضعف العسكري الذي انتاب جيوش ملوك الطوائف أن قيادتهم السياسية والعسكرية لم تكن تفكر تفكيراً جاداً في ساعات الخطر وأوقات الشدة في المدافعة والتصدي لأي خطر يهدد بلادهم، بل إنهم تعوَّدوا الاعتماد على غيرهم من نصارى أو مسلمين، كما أنهم لكي يُخرجوا أنفسهم من مأزق المواجهة كانوا يلجؤون إلى المكر والحيلة والخديعة، بل وربما نقض العهود، وعدم الوفاء بالمواثيق. ولعل ما سبق ذكره ـ في الفصل الثاني من هذا الكتاب، وفي مبحث الموالاة ـ دليل واضح، وبرهان أكيد على أن ملوك الطوائف قد تأصل في نفوسهم هذا الأمر، وفي هذا يقول ألفونسو السادس ملك قشتالة حينما قدم إليه رسول المعتمد ابن عباد: «كيف أترك قوماً مجانين، تسمَّى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم... وكل واحد منهم لا يَسلُّ في الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً؟»[1].

وقد تمخض عن هذا الشعور انهزام نفسي واضح لدى العامة والخاصة من مسلمي الأندلس، حيث أصبح الواحد منهم حينما يلقى عدواً يوليه الدبر، حتى ألف الخصوم والأعداء منهم هذا السلوك[2]، بل إن بعضهم ربما خرجوا لخوض المعركة وهم في لباس الزينة غير مبالين بعدو[3].

---

(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٩.

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٨٠.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ١٨١.

ويدرك المتتبع للتاريخ العسكري لملوك الطوائف أن أولئك القوم وقادتهم وحماة ثغورهم لم يكن التصدي للخطر هدفاً مهماً عندهم، كما لم تكن مقاومة العدو بالأساليب العسكرية والمعارك المنظمة منهجاً للكثيرين منهم؛ وإنما منهجهم في هذا الأمر الاستغاثة والاستنجاد والركون إلى الآخرين؛ فإن لم يكن فالمكر والخديعة ونقض العهود والمواثيق.

أما المنهج الأول وأعني به الاستغاثة والاستنجاد والركون إلى الآخرين، فأمر واضح وجلي ولا سيما مع المماليك النصرانية؛ حتى لو دفعهم ذلك إلى التنازل عن المدن والحصون ودفع الأموال الطائلة، وقد اعترف بذلك أحدهم وهو عمر المتوكل ابن الأفطس في رسالته التي وجهها لأمير المرابطين قبل سقوط طليطلة، وقد جاء فيها: «فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها أهلكهم الله عند إفراط تسلطها واعتدائها، وشدة كلبها واستشرائها، تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيرة، وتسترضى بكل خطيرة، ولم يزل دأبها التشطط والعناد، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى نفد الطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد»(١).

ومن أمثلة ذلك ما فعله القادر ابن ذي النون مع ألفونسو السادس حينما أعانه على القضاء على ثورة طليطلة سنة ٤٧٣ هـ(٢)، أما المكر والخديعة ونقض العهود فأمر مألوف، وما موقف ابن عباد من رسل البربر(٣)، وكذلك موقف المؤتمن ابن المقتدر ابن هود من ابن عبد العزيز حاكم بلنسية(٤)، إلا أدلة حية ونماذج واضحة

---

(١) الحلل الموشية، ص ٢٠.

(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٢٥، انظر: تفصيلات هذه الفقرات في: الفصل الثاني، مبحث الموالاة.

(٣) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ٥١.

(٤) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٨٦.

لهذا النوع من السلوك.

وقد تمخض عن ذلك الانهزام النفسي عدد من النتائج التي أصبحت ظواهر ملموسة ألفها الناس على الرغم من كونها مثالب قوية ووصمة عار واضحة في تاريخ ملوك الطوائف، وكان من أهمها أن دول الطوائف لم تسع إلى تكوين جيش قوي منظم له نظمه الحربية، وقواعده العسكرية، وقيادته الماهرة كما هو شأن الدول الإسلامية التي تعاقبت على حكم الأندلس، بل إن جيش كل واحد من أولئك القوم كان أشبه ما يكون بتجمع عشائري يتسم أصحابه بالحرص على مصلحتهم الذاتية إذ يقدمونها على كل مصلحة، ويبدو أن السبب في هذا القصور عند ملوك الطوائف هو خشيتهم أن تكون جيوشهم حربة في نحورهم في يوم ما، أو أن تقف سداً منيعاً أمام مصالحهم؛ ويدل على ذلك اعتمادهم على الجند المرتزقة على نطاق واسع بغضِّ النظر عن أصلهم أو دينهم؛ حيث ضمت قصورهم أعداداً كبيرة من النصارى وغيرهم، وقد وصف ابن عذارى هذه السياسة عند مبارك ومظفر العامريين حاكمي بلنسية وشاطبة، وذلك بقوله: «ولحق بهم لأول أمرهم من موالي المسلمين ومن أجناس الصقلب والإفرنج والبشكنش. . . حتى تلاحق ببلنسية ونواحيها من هؤلاء الأصناف فوارس برزوا في البسالة والفتح على المسلمين ببلاد الأندلس أمر شديد في إباقة العبيد؛ إذ نزع إليهم كل شريد طريد، وكل عاق مشاق، وزهدوا في الأحرار وأبنائهم»[(١)].

وكان الهدف الرئيس من جلب هؤلاء الأخلاط هو إعدادهم ليكونوا حرساً خاصاً لهم، يدافعون عنهم في النوائب والملمات التي قد تحيط بهم[(٢)]، لكن إعداد قوة تقف سداً منيعاً أمام العدو المتربص فهذا أمر شبه معدوم؛ حيث إن

(١) البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٠.

(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٥٩، رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٨١.

الجيوش النصرانية كانت تجتاح البلاد دون أن تلقىٰ أية مقاومة؛ حيث إن المسلمين لا يملكون دفاعاً كما يقول ابن عذارىٰ[١]. أما ابن حيان فقال في وصف تقاعس أهل الأندلس إنهم كانوا ما بين جاهل غر، ومترف مغر، قد حلوا بشهواتهم غافلين عما تتعرض له بلادهم من الأخطار حيث عطلوا الجهاد[٢].

ومما لا شك فيه أن هذه الاتكالية التي اتصف بها كثير من ملوك الطوائف فتقاعسوا عن إعداد الجيوش وتنظيمها قد خلقت بين ظهرانيهم جيلاً لا يعرف عن الحرب سوىٰ اسمها، ولا عن الجهاد سوىٰ نصوصه، ولعل وصف ابن عذارىٰ لبعض أولئك القوم أثناء خروجهم لمعركة بطرنة، يعطينا تصويراً دقيقاً لتلك الحالة؛ حيث يقول: «وانخدعوا بإغفاء الدهر عن عثراتهم مُغفلين للتدبير، غافلين عما يتعاور أطرافهم من التغيير، فطار سهم الذعر كل مطار، وسارت عن زعمائهم في ذلك أعجب أخبار، ثم كابدهم العدو بإظهار الاضطراب، والاستتار عن عيوبهم ببعض تلك الهضاب، استدراجاً لهم واستطراداً، وجداً في طلب مكروههم واجتهاداً؛ فماج رعاعهم، وتنادىٰ بالنفير مهنتهم وصناعهم، حتىٰ قيل إن مخنثين تناديا إلىٰ الخروج! وقد أيقنا بسبي العلوج. . . وخرجا ولا سلاح إلا رشاً تجاذباه، ثم اصطلحا بعد فاقتسماه، لا يستهيبان ضيق المنهاج. . . وساعد أولئك الرعاع الخائنين أميرهم يومئذ المترف عبد العزيز بن أبي عامر، فخرج بالعير والنفير، والجم الغفير، يحسب الطعن كالقتل، وبطن السيوف كالمقل، ويتخيل صليل الحسام، بين القصرتين والهام، ما كان اتسع له ذرعه، ومرن عليه سمعه»[٣].

---

(١) البيان المغرب، ج٣، ص ٢٧٨.

(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ٢، ص ٨٥٠، ٨٥٥. (نقلاً عن ابن حيان).

(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٥٢.

٣ ـ ومن المظاهر التي برزت في الساحة العسكرية في ذلك العصر : تبلُّد الإحساس، وغياب هاجس الجهاد ونصرة المسلمين:

ذلك الشعور الذي ظل ملازماً لمعظم الحكام والقادة في الدول الإسلامية التي تعاقبت على حكم الأندلس بكل عصوره، لكن ملوك الطوائف فقدوا هذا الأمر؛ ولهذا جاءت تحركاتهم السياسية والعسكرية حسبما تمليه عليهم مصالحهم الذاتية لا مصلحة المسلمين؛ إذ لم يكن شعارهم رفع شأن الإسلام، وتوسيع نفوذه، والتصدي للخطر النصراني، والتضحية بالأهداف الثانوية من أجل الهدف السامي الذي عاش له من سبقهم من حكام الأندلس، وهذا بلا شك هو الذي جعل النصارى يطمعون في الاستيلاء على البلدان الإسلامية حينما رأوا المسلمين ينظرون إليهم ولا يفكرون في التصدي لهم أو الوقوف في وجوههم لنصرة الإسلام والذود عن حياض المسلمين، بل أصبح الهدف عندهم للجيش والمعركة هو المحافظة على المصالح الذاتية، والذود عن جناب السلطان، وقد وضّح هذه السياسة قائلهم حينما قال: «أحق بالملك من استقل به، ولو نازعني فيه كبار الصحابة والخلفاء الراشدون لضربت عنقهم»(١).

كما ذكر ابن حيان نقلاً عن أبي العباس السكري الإسكندراني أنه قال: إن إسماعيل بن ذي النون حفظ عنه أصحابه كلمات عدُّوها زيادة في مساوئه، ومنها قوله: «والله! لو نازعني سلطاني هذا الصديق لقاتلته ولما سلمت له، أحقهم بالملك من استقل به، والله ما أولي غير نفسي، ولا أقوم إلا بسلطاني، ولو نازعنيه فلان وفلان ـ وذكر السلف الصالح الذين كرم الله ذكرهم ـ لضربتهم دونه بسيفي ما استمسك بيدي»(٢).

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ١٤٤.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٤٤ ـ ١٤٥. (نقلاً عن ابن حيان).

وعن هذه الظاهرة يقول ابن حيان واصفاً لها: «عدموا الراعي العنوف منذ حقب، فنبذوا السلاح، وكلفوا بالترميح، ونافسوا في النشب، وعطلوا الجهاد، وقعدوا فوق الأرائك مقعد الجبابرة المتفاتنين... ينتظرون من ينبعث من أهلها للقتال عنهم حسبة، ولا يرفدون المختل ممن رابط إليهم بعليقه.. فتباً لهم! فتضعضع ثغرهم بتوالي هذه النكبات»[١].

وهذه السياسة لم تنشأ من فراغ، كما أنها لم تكن خاصة ببعض دون بعض، بل إنها تكاد تكون شاملة لهم جميعاً، ولو حاولنا ذكر الأمثلة والشواهد على غياب هاجس الجهاد من نفوسهم؛ ومن ثم عن تحركاتهم العسكرية لطال بنا المقام، ولكن حسبنا في هذا التذكير بمواقفهم من طليطلة سنة ٤٧٨ هـ، ومن بربشتر سنة ٤٥٦ هـ[٢]، ومن بطليوس التي أغار عليها فردناند ملك ليون حيث دمرها واستباح حريمها، وفعل بها الأفاعيل، وبعد أن ورد هذا الخبر على المأمون ابن ذي النون صاحب طليطلة، دخل عليه وزيره ابن مثنى فوجده شديد الإطراق والضيق، قد بدت علامات الحزن عليه، فأخذ الوزير يفرِّج عنه معتقداً أن ذلك لما سمعه مما أصاب المسلمين في بطليوس، لكن ابن مثنى ذُهل حينما التفت إليه المأمون وقال له: «ألا ترى هذا الصانع الحقير الذي يتولى بنيان قصري، إنه لا يمتثل لأمري، وينغِّص عليّ لذتي، ويستخف بإمرتي»[٣].

إن هذا الموقف من ابن ذي النون يؤكد لنا أن هاجس الجهاد ونصرة المسلمين قد خبا عند أولئك القوم حيث لم يعد له حيز في نفوسهم، بل إن ذكره أو الحث عليه كان أمراً يقلقهم، وينغص عليهم صفو حياتهم، ولعل موقف المعتضد ابن

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ٢، ص ٨٥٠-٨٥١.
(٢) سوف نفصل القول في هذين الموضوعين وغيرهما في نهاية هذا الفصل -إن شاء الله تعالى-.
(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٢٥.

عباد من الهوزني أقوىٰ دليل علىٰ ذلك؛ إذ ذكر ابن بسام أن ابن عباد أرسل رسالة إلىٰ الهوزني كانت رقيقة في ظاهرها، حيث أبدىٰ موافقته علىٰ كثير من القضايا التي أثارها الهوزني في رسالته إليه، ومما جاء في تلك الرسالة: «وردني كتابك الأثير . . . واقتضيت ما تلا ذلك لمن وعظك المبرور، واحتسابك المشكور، في الحال التي أشرت إليها فأقنعت، ورمزت بها فأسمعت؛ بصحة دينك وبر يقينك، حتىٰ نظرت إلىٰ ما دهم المسلمين من كلب لعدو علَّهم يجوسون البسيط من ديارهم . . . قد تبين لهم أن تخاذلنا لهم علينا ناصر، وتواكلنا مظاهر مؤازر . . . ولقد شرحت من تلك النصب ما يسهر النواظر ويبلد الخواطر . . . وأما ما ندبت إليه وحضضت عليه من إحفاد السعي فيما يقمع المشركين ـ بددهم الله ـ ويجمع عليه كلمة المسلمين؛ فيعلم الله أن قد ناجيت بذلك وناديت، وراوحت فيه وغاديت، وبثثت رسلي إلىٰ ذلك داعين يصلون التذكرة، ويؤكدون التبصرة»[١].

ويذكر المؤرخون أن هذه الرسالة لم تكن علىٰ ظاهرها، بل إنما كان ترفُّق ابن عباد فيها للهوزني، وطلبُه منه العودة إلىٰ إشبيلية؛ إنما هو استدراج إلىٰ ملحده؛ حيث أذهله عما كان استشعر، وأنساه ما كان حذر، وقد باشر ابن عباد قتله بيده، وذلك يوم الجمعة لإحدىٰ عشرة ليلة من ربيع الأول سنة ٤٦٠ هـ رحمه الله[٢].

وقد عدَّ كثير من الكتاب والمفكرين الذين عايشوا ملوك الطوائف هذا الأمر من أكبر المآخذ عليهم، فقد ذكر ابن حزم أن تعطيل الجهاد عندهم كان من الأسباب الرئيسة في ضعفهم وتسلط النصارىٰ عليهم[٣]، أما ابن عبد البر فقد

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ١١٨ـ١١٩.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٨٣، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٢٣٩، المقري، نفح الطيب، ج ٢، ص ٩٣.
(٣) ابن حزم، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، ج ٣، ص ١٧٦.

استغل حادثة بربشتر ليكتب رسالة على لسان أهلها، بيّن فيها أن ما أصاب مسلمي الأندلس إنما كان بسبب تخليهم عن الجهاد في سبيل الله، ومما جاء في تلك الرسالة: «وقد ندب الله مسلمي عباده إلى الجهاد في غير ما آية من الكتاب، يضيق عن نصها الخطاب، ترغيباً وترهيباً. . . فتنبهوا قبل أن تُنبهوا، وقاتلوهم في أطرافهم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغورهم قبل أن يجاهدوكم في دوركم»[1].

كما ذكر ابن حيان ـ شيخ مؤرخي الأندلس ـ أن ملوك الطوائف قد سلكوا غير طريق الرشد، واستدل على هذا الأمر بـ «غفلتهم عن سد ثغورهم، حتى ظل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم يتبجح عراص دورهم، ويستقرئ بسائط بقاعهم»[2]، ثم ذكر في موضع آخر أن استعداد مسلمي الأندلس للجهاد إنما هو الفزع إلى حفر الخنادق وتعلية الأسوار، وسد الأركان، وتوثيق البنيان، كاشفين لعدوهم عن السوأة السوداء»[3]، وحينما استشرى هذا المرض العضال في مجتمع المسلمين في عصر ملوك الطوائف هوّن من شأنه بعض المفكرين والأدباء والشعراء، لكن ابن بسام تصدى لهؤلاء المنافقين الذين حاولوا مخادعة ملوك الطوائف، حينما حسّنوا لهم واقعهم فصوروا لهم الهزيمة نصراً، والخضوع للعدو وعدم مجاهدته سلماً، حيث وصف عملهم هذا بأنه مدح غرور، وشهادة زور، وخديعة ماكر[4].

وقد أجمع مفكرو الأندلس وشعراؤها وأدباؤها في عصر ملوك الطوائف على أن ما حلّ بالمسلمين هناك إنما كان بسبب ضعفهم المعنوي الذي كان من أهم

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٨٧ ـ ١٨٩.
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٥٥. (نقلاً عن ابن حيان).
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٥٤.
(٤) الذخيرة، ق ٢. ج ١، ص ٢٤٩.

مظاهره غياب هاجس الجهاد، والتخلي عن المسلمين الذين هددهم الخطر النصراني، وممن طرق هذا الموضوع الشاعر أبو محمد عبد الله العسال حينما قال:

ولقد رمانا المشركون بأسْهُم ... لم تخط لكن شأنها الإصماءُ
هتكوا بخيلهم قصور حريمها ... لم يبق لا جبل ولا بطحاءُ
ماتت قلوب المسلمين برعبهم ... فحماتنا في حربهم جبناءُ
لولا ذنوب المسلمين وأنهم ... ركبوا الكبائر ما لهنَّ خفاءُ
ما كان ينصر للنصارى فارس ... أبداً عليهم فالذنوب الداءُ[(١)]

كما صوره الهوزني بقوله:

أيا أسفاً للدين إذ ظل نهبة ... بأعيننا والمسلمون شهودُ
أفي حرم الرحمن يلحد جهرة ... ويجعل إشراك الإله يهودُ
ويُثلب بيتُ الله بين بيوتكم ... وقادرُه عن ردٍّ ذاك قعيدُ
أعيذكم أن تدهنوا فيمسكم ... عقاب كما ذاق العذاب ثمودُ
وأقبح بذِكْرٍ يستطير لأرضكم ... يؤم به أقصى البلاد وفودُ[(٢)]

وقد سمَّىٰ الحميري ذلك العصر بأنه زمن نزول الهمم، وزمن خامل لخلوه من الجهاد في سبيل الله[(٣)].

كما بيّن أبو عبد الله البزلياني في إحدىٰ رسائله التي وجهها إلىٰ بعض ملوك الطوائف أن تخليهم عن الجهاد في سبيل الله واستعانتهم بالنصارىٰ علىٰ بعضهم؛ من الأسباب الرئيسة لضعفهم وهوانهم علىٰ الناس، كما بين أن تلك الحال ستفضي في النهاية إلىٰ سقوط دولة الإسلام وخروج المسلمين من شبه جزيرة أيبيريا[(٤)].

---

(١) الحميري، الروض المعطار، ص ٩٠-٩١.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٩٢-٩٣.
(٣) الروض المعطار، ص ٢٩٢.
(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٤٥٨.

هكذا استشرف ذلك المفكر الأندلسي أن ضعف ملوك الطوائف وتخليهم عن الجهاد سيؤدي في النهاية إلىٰ خروج المسلمين من تلك الديار، وهذا ما وقع بالفعل، فقد كان عصر ملوك الطوائف بداية لانحسار القوة الإسلامية هناك، حيث بدأ النصارىٰ بالتحرك الفعلي لطرد المسلمين بينما بقي المسلمون متساهلين وغافلين عن هذا الأمر؛ فألفونسو ظل أربع سنوات يضع خطة مدمرة من أجل السيطرة علىٰ طليطلة «وملوك الطوائف جميعاً إلا واحداً منهم هو أمير بطليوس الشهم - يعني ابن الأفطس - يشهدون اقتراب النكبة جامدين، إما بدافع الأثرة والخوف، أو عدم الاهتمام والتخاذل»(١).

وبعد هذا العرض يتبين لنا أن ملوك الطوائف قد تخلىٰ معظمهم عن الجهاد في سبيل الله الذي كان أساس بقاء المسلمين هناك، بل إن الجهاد وذكره ربما أقض مضاجعهم، ونكد عليهم صفو حياتهم، حيث عاشوا لذواتهم وشهواتهم لا للإسلام والمسلمين، وقد حاول بعضهم كسب الناس وتحقيق مصالح معينة برفع بعض الشعارات الدينية، ولكنهم لم يكونوا جادين ولا صادقين في هذا العمل، ومما يُذكر في هذا الموضوع مقولة المعتمد ابن عباد: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير»؛ حيث يدرك المتتبع لتاريخ المعتمد ابن عباد أن تلك الكلمات لا تعدو أن تكون شعاراً دينياً أراد الكسب من ورائه، ويدل علىٰ هذا أقوال وتصرفات ابن عباد المتزامنة مع تلك المقولة ومنها:

١ - أن السياسة التي نهجها ابن عباد في تعامله مع خصومه وأعدائه هي أن يضرب بعضهم ببعض حتىٰ يخرج من بينهم سالماً غانماً، وما المرابطون - بلا شك - إلا أحد خصومه؛ حيث بدا له أن خطرهم أصبح قريباً منه بعد أن صاروا قوة ضاربة في بلاد المغرب، أما النصارىٰ فلم يكونوا يقبلون منه بغير الذل والعبودية؛ ولهذا رأىٰ أن يضرب هذين العدوين أحدهما بالآخر حينما دعا المرابطين وقال

---

(١) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٣٩٦.

مقولته المشهورة، وقد كشف عن هذه السياسة الأمير عبد الله بن بلقين حينما قال: «وجرت بين المعتمد والفونش محالفات كثيرة، وسأله أن يتخلىٰ له عن معاقل كان الموت عنده أولىٰ به من إعطائها؛ فوجست نفسه - يعني خافت - منه بالجملة، ورام كسره بطوائف المرابطين وضرب بعضهم ببعض»(١)، ويدل علىٰ ذلك - أيضاً - أن المعتمد كان مهدداً بقوة المرابطين حيث خاطب ألفونسو حينما طلب منه مروحة بقوله: «سأنظر لك في مراوح من الجلود الملطية المرابطية تريح منك لا تروح عليك»(٢).

٢ - أن ابن عباد قد بين في مخاطبته لألفونسو أنه حينما استدعىٰ المرابطين لم يكن جاداً حيث قال: «اضطرتني الضرورة إلىٰ ذلك للمدافعة عن نفسي وبلدي ولو يوماً واحداً»(٣)، ثم عاد ابن عباد إلىٰ موالاة النصارىٰ ولعلَّ خضوعه لهم بعد ذلك مما يؤكد هذا الأمر.

٣ - من تتبع تعامل المعتمد ابن عباد مع المرابطين يدرك أنه علىٰ الرغم من كونه قد دعاهم إلىٰ الجواز للأندلس إلا أنه حاول المماطلة في تسليمهم الجزيرة الخضراء لتكون قاعدة لجيوشهم، حيث أمسك رسل ابن تاشفين عنده مدة في إشبيلية فلما أطلقهم أرسل معهم رسالة يطلب فيها من ابن تاشفين التعهد بعدم الجواز إلىٰ الأندلس إلا بعد مرور ثلاثين يوماً، حتىٰ يتمكن من إخلاء الجزيرة الخضراء له(٤).

ومما لا شك فيه أن المعتمد ابن عباد كان يهدف من وراء هذا الشرط كسب الوقت لكي يعلم ألفونسو بقدوم المرابطين، ومن أجل أن يبقوا ورقة قوية في يده ضد النصارىٰ، لكن يوسف بن تاشفين أدرك قصده، ولهذا لم يلتزم بما شرطه عليه المعتمد بل أرسل قوة من جيشه نزلت بالمدينة(٥).

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٠١ - ١٠٢.
(٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٢٨٨.
(٣) المصدر السابق، ص ١٦٩.
(٤) ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٠٢ - ١٠٣.
(٥) المصدر السابق، ص ١٠٢ - ١٠٣.

ثانياً : ازدياد المد النصراني ضد مسلمي الأندلس:

تبين لنا من خلال الفقرة السابقة أن انقطاع الجهاد في عصر ملوك الطوائف، قد أدىٰ إلىٰ ضعف المسلمين وبالتالي تسلط النصارىٰ عليهم، ومحاولة مد سلطانهم علىٰ حساب المسلمين؛ حيث أعلنوا حرباً صليبية شعواء تقوم سياستها علىٰ استرداد بلاد الأندلس كلها من المسلمين، وقد أبان هذه السياسة عدد من قادة النصارىٰ في تلك الحروب، ومن ذلك ما قاله فرناندو بن شانجة ملك جليقية أثناء حصارهم لطليطلة سنة ٤٧٨ هـ حينما خرج أهلها ليعقدوا الصلح مع النصارىٰ بعد أن أعيتهم المقاومة حيث خاطبهم بقوله: «ما أجيبكم إلىٰ سلم، ولا أعفيكم من حرب... فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم، قد سكنتموها ما قضي لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلىٰ عدوتكم، واتركوا لنا بلادنا، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم»[(١)].

كما أبان هذه السياسة وزير ألفونسو السادس (ششنند)[(٢)]، فقد ذكر الأمير عبد الله بن بلقين أن هذا الوزير قال لمسلمي غرناطة قبيل سقوط طليطلة سنة ٤٧٨ هـ: «إنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر، حتىٰ غلبهم العرب، وألحقوهم بأنخس البقاع جليقية، فهم الآن عند التمكن طامعون بأخذ ظلاماتهم! فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة، حتىٰ إذا لم يبق مال ولا رجال أخذناها بلا تكلف»[(٣)].

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٨٢.

(٢) ششنند: وقد سماه الأمير عبد الله في مذكراته سنندو، نصراني مستعرب عمل قائداً ومستشاراً لألفونسو السادس، وكان قبل ذلك يعمل سفيراً بين المعتضد ابن عباد والنصارىٰ، ثم نزح إلىٰ جليقية وخدم فرناندو ثم ولده من بعده، وكان يؤلب النصارىٰ ضد مسلمي الأندلس. (ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٢٩، محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص ١١٢).

(٣) التبيان، ص ٧٣.

هكذا كانت خطط النصارىٰ كما أفصحوا عنها، حيث كان يدفعها عدد من العوامل الدينية والتاريخية، كما تحركها روح صليبية حاقدة علىٰ الإسلام والمسلمين؛ ولهذا كشروا عن أنياب عدائية واضحة حيث يذكر ابن بسام أنه حدثه من سمع ألفونسو السادس يقول: «علىٰ لذريق فتحت هذه الجزيرة، ولذريق يستنقذها»[1] - يعني نفسه -، بل إنه لما دخل طليطلة سنة (٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م) أعلن أنه لن يلبس التاج حتىٰ يستولي علىٰ قرطبة حاضرة المسلمين هناك، وأنه قد أعد قوساً كبيراً لجامعها حينما يحوله إلىٰ كنيسة[2].

أما المسلمون فإن الانهزام النفسي والضعف المعنوي الذي منوا به، قد جعلهم لا يحاولون التصدي لذلك الخطر، بل ربما فهموا تلك الادعاءات النصرانية علىٰ أنها أمر واقع لا محالة ومن ثم فلا سبيل للوقوف في طريقها، وهذا بلا شك مما زاد من أطماع النصارىٰ، ودفع تحركاتهم نحو بلاد المسلمين، يقوي عزيمتهم في ذلك ثقتهم بأنفسهم، وهوان عدوهم في عيونهم.

ويدرك المتتبع للتاريخ السياسي لمسلمي الأندلس أن الخريطة السياسية في عهد الدولة الأموية بالأندلس كانت تمتد بين نهر دويرة شمالاً إلىٰ مضيق جبل طارق جنوباً، ومن بحر الروم شرقاً، حتىٰ المحيط الأطلسي غرباً[3]، أما في عصر ملوك الطوائف فقد بدأت بالانحسار أمام حركة المد النصراني حيث تقلصت حدودها ولا سيما الجهة الشمالية والغربية.

ولو حاولنا تتبع التحركات العسكرية النصرانية ضد مسلمي الأندلس في عصر ملوك الطوائف لطال بنا الحديث وانقطعت بنا السبل؛ وذلك بسبب كثرة

---

(١) الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٩٩.

(٢) المصدر السابق، ق ٤، ج ١، ص ١٦٩.

(٣) محمد عبد الله عنان، الدولة العامرية، ص ٨، عبد الحليم عويس، ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضارة، ص ٢٣.

أحداث تلك التحركات واتساع إطارها الزماني والمكاني؛ ولهذا سيأتي الحديث مقتصراً على أهم المدن والقواعد والحصون التي استولى عليها النصارى وبالتالي خرجت من حكم المسلمين، ومن أهمها:

١ ـ سقوط قلمرية:

تعد مدينة قلمرية أعظم مدن البرتغال الشمالية، وكان قد افتتحها المنصور ابن أبي عامر سنة ٣٧٥ هـ[١]، ولما تولى بنو الأفطس حكم بطليوس أسند المظفر ابن الأفطس قيادتها لأحد مواليه، ويدعى راندة؛ حيث كان تحت إمرته خمسة آلاف من الفرسان[٢].

وكان بنو الأفطس خلال العقد الخامس من القرن الخامس الهجري منشغلين في حروبهم مع جيرانهم المسلمين، ولا سيما بنو عباد، ثم بنو ذي النون، وهذا مما أعطى جيرانهم من النصارى فرصة للانقضاض على أطراف مملكته الشمالية ولا سيما المنطقة الواقعة بين نهري التاجة ودويرة، وذلك لبعدها ولكونها شبه مجردة من وسائل الدفاع القوية، فقد أغار عليها ملك قشتالة فرناندو الأول سنة ٤٤٩ هـ واستولى على مدينتي لاميجو وبازو الواقعتين شمال البرتغال، ولم يلق النصارى أية مقاومة، كما لم يتحرك ابن الأفطس لمساعدتهما؛ وذلك ليقينه من عقم المحاولة، وقد استرق فرناندو سكان المدينتين الإسلاميتين وأسكن بهما النصارى[٣].

ويبدو أن هذا النصر الذي أحرزه النصارى، إلى جانب سلبية المسلمين في مؤازرة إخوانهم مسلمي الثغور قد دفعت النصارى إلى مواصلة هجماتهم على

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٣٨.
(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٨٤، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٣٨.
(٣) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٨٥ ـ ٨٦.

تلك المناطق، ولم تمض بضعة أعوام حتىٰ أرسل فرناندو جيشاً كبيراً قوامه ثلاثون ألف رجل، منهم عشرة آلاف فارس، وقد توجه ذلك الجيش نحو مدينة شنترين التي تعد من أهم قواعد مملكة بطليوس [١]، فلما علم بذلك المظفر ابن الأفطس توجه إليها لمساعدتها، فوصل إليها قبل وصول الجيش النصراني، وكان أهلها قد خامرهم الخوف فقالوا لأميرهم ابن الأفطس حينما وصل إليهم: «لقد هممنا أن نستسلم للعدو ولو لم تأتنا لضعفنا عن دفاعه»[٢].

وحينما وصل الجيش النصراني إلىٰ شنترين، وجدها قد قويت بمقدم ابن الأفطس إليها، ولكن بالرغم من ذلك فإن ابن الأفطس لم يحاول مدافعة النصارىٰ والتصدي لهم، واستثمار معنويات المسلمين المرتفعة بل إنه أرسل إلىٰ القائد النصراني القومس، حيث تقابل الاثنان علىٰ نهر شنترين وتفاوضا طويلاً ثم اتفقا بعد جهد ومشقة علىٰ أن يدفع ابن الأفطس للنصارىٰ مبلغ خمسة آلاف دينار يؤديها إليهم كل عام[٣].

هكذا أذعن ابن الأفطس للنصارىٰ؛ حيث اكتفىٰ بعقد الهدنة وتقديم الإتاوة السنوية، فلم يحاول التصدي لهم، وردِّ عاديتهم عن شنترين وبلاده، ولا سيما وقد جاؤوا إليه في بلاده، ومما لا شك فيه أن هذا الإذعان إلىٰ جانب الموقف السلبي من عامة مسلمي الأندلس هو الذي جرأ النصارىٰ علىٰ أن يواصلوا هجماتهم علىٰ منطقة الثغر الأعلىٰ؛ حيث أعدوا في سنة (٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م) جيشاً كبيراً، وكان يهدف في هذه المرة إلىٰ الاستيلاء علىٰ مدينة قلمرية؛ فما أسباب ذلك؟ ثم كيف تم؟

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٣٩، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٨٦.
(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٣٨.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٣٨.

أما الأسباب فهي بلا شك ضعف المسلمين، وتخاذلهم عن الجهاد والمقاومة، إلىٰ جانب دور القائد النصراني سنندو الذي كان يعمل مستشاراً لفرناندو حيث أشار عليه بغزو قلمرية، وكان في الأصل من أهل هذه الناحية(١)، ويذكر ابن الخطيب أن فرناندو سار بنفسه إلىٰ قلمرية في جيش كبير حيث أحكم حصارها مدة ستة أشهر، وخلال مدة الحصار ساء وضع المسلمين المحصورين، وقد تباطأ ابن الأفطس في إمدادها فضعف قائدها راندة حيث خاطب فرناندو سراً وطلب منه أن يؤمِّنه علىٰ نفسه وأهله، ويخرج إليه من البلد ليلاً فأعطاه الملك النصراني ما طلب، حينئذ خرج قائد المدينة ليلاً إلىٰ معسكر النصارىٰ، وترك المدينة دون قائد(٢).

فلما أصبح أهل البلد وكانوا قد أخذوا الأهبة للقتال، قال لهم النصارىٰ: كيف تقاتلون وقائدكم عندنا؟ وبعد علمهم بذلك ازدادت معاناتهم فعرضوا التسليم علىٰ أن يُمنحوا الأمان، لكن القائد النصراني رفض ذلك لعلمه بضعفهم، إلىٰ جانب أن أقواتهم قد نفدت، حيث جد في محاصرتهم حتىٰ دخل المدينة فأسر خمسة آلاف رجل وقتل الباقين، كما سبىٰ النساء والذرية، وذلك في سنة (٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م)(٣).

وتذكر الرواية النصرانية أن مؤن الجيش النصراني المحاصر لقلمرية قد نفدت، وكاد يرفع الحصار عن المدينة لكن رهبان لورفان القريب أمدوا الجيش بما يحتاج من مؤن مما دفع الجيش إلىٰ مطاولة الحصار(٤).

---

(١) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٨٦.
(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٨٤، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٨٦.
(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٨٤، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٣٨.
(٤) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٣٨٥.

هكذا اقتحم النصارىٰ مدينة قلمرية بسبب خيانة قائدها، وخذلان ابن الأفطس والمسلمين لها حيث عين فرناندو قائده ومستشاره ششنند حاكماً لقلمرية وأعمالها، كما منحه لقب الكونت أو الوزير[١]، أما قائدها السابق راندة فبعد سقوطها توجه إلىٰ بطليوس، وكان قد لجأ إلىٰ المعسكر النصراني، فاستقبله ابن الأفطس بجفاء حيث وبخه علىٰ سوء عمله، ثم أمر بضرب عنقه[٢]، ومما لا شك فيه أن تصرف ابن الأفطس مع ذلك القائد الخائن أمر يُحسب له، لكن ألم يكن من الأَوْلىٰ بعد ذلك أن يحاسب ابن الأفطس نفسه؛ إذ إنه في نظر الناس والتاريخ من المتخاذلين عن نصرة تلك المدينة ولا سيما أنه قد امتد حصارها قرابة نصف السنة، ولم تقتحم علىٰ حين غفلة منه؟!

وعلىٰ أية حال فقد أعطىٰ هذا الموقف ثم ذلك النصر القوىٰ النصرانية دفعة لتحقيق طموحاتها وأهدافها في بلاد المسلمين؛ حيث لم تعد تقنعهم المدن والحصون، فقد عمد فرناندو بعد ذلك إلىٰ إجلاء المسلمين من جميع الأراضي الواقعة بين نهري دويرة ومنيو؛ وذلك تنفيذاً لخطة طرد المسلمين عن جميع الأراضي المتاخمة لمملكته شيئاً فشيئاً[٣].

٢ ـ سقوط بلنسية:

بعد أن تمكن فرناندو من تثبيت أقدامه في قلمرية وما جاورها، رغب في توسيع نفوذه وبسط سيطرته علىٰ المزيد من بلاد المسلمين؛ إذ توجه في أوائل سنة ٤٥٧ هـ (أوائل سنة ١٠٦٥ م) نحو بلنسية[٤]، وكانت تخضع لحكم

(١) المرجع السابق، ص ٨٦.
(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٣٩.
(٣) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٨٦ ـ ٨٧.
(4) Angel Masia: Ho de Espania. p. 195.

عبد الملك بن عبد العزيز (٤٥٢ ـ ٤٥٧ هـ)، وفي طريقه مر الجيش النصراني بالأراضي الجنوبية لمملكة سرقسطة حيث عاث فيها فساداً؛ وذلك معاقبة لأميرها المقتدر ابن هود الذي تأخر في دفع الإتاوة السنوية[١]، إلىٰ جانب الأخذ بالثأر للنصارىٰ الذين عاقبهم المسلمون حينما استعادوا بربشتر منهم[٢].

ولما وصل فرناندو بجيشه إلىٰ بلنسية ضرب حولها الحصار، وكان حصاراً قاسياً روع أهلها وملكها الضعيف عبد الملك، ولكن بالرغم من ذلك فقد قاوموا النصارىٰ، فلما رأىٰ فرناندو مناعة أسوارها وعزم أهلها علىٰ التصدي والمقاومة لجأ إلىٰ الحيلة في محاولة دخولها؛ حيث تظاهر بالانسحاب من أمامها نحو الشمال إلىٰ بلدة تسمىٰ بطرنة، فلما رآهم أهل المدينة اعتقدوا أنهم لم يفلحوا في محاولتهم، وأنهم ارتدوا عن مدينتهم خائبين، فخرجوا بقيادة زعيمهم عبد الملك لمطاردة الفارين، وكانوا يلبسون ثياباً فخمة وكأنهم في يوم عيد غير آخذين أهبة للقتال[٣]، فلما رآهم النصارىٰ علىٰ تلك الحال، انقضُّوا عليهم، وهاجموهم بشدة فقتلوا وأسروا الكثير منهم، لكن عبد الملك تمكن من النجاة، ثم بعد ذلك استأنف النصارىٰ حصار المدينة مرة ثانية[٤].

وإزاء هذا الوضع المضطرب استغاث عبد الملك بصهره المأمون ابن ذي النون صاحب طليطلة الذي هب لمساعدته، لكن هدفه لم يكن نصرة مسلميها، بل أملاً

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٥٢، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٢٤، ٣٨٦.

(٢) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٣٤٨.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ٢، ص ٨٥٠، المقري، نفح الطيب، ج ١، ص ١٨١، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٥٢، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٢٤.

(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق٣، ج ٢، ص ٨٥٠، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٢٤.
Angel Masia. p.121.

في استخلاصها منه لنفسه إلا أن ذلك الحصار لم يدم طويلاً؛ حيث إن فرناندو شعر بالمرض وهو تحت أسوار المدينة، فآثر الارتداد بقواته إلىٰ ليون حيث توفي هناك بعد قليل من وصوله.

أما المأمون فقد استغل فرصة رفع الحصار عن المدينة؛ إذ دخلها وعزل صهره عن حكمها ثم ضمها إلىٰ مملكة طليطلة، وذلك في ذي الحجة عام ٤٥٧ هـ.

هكذا كان واقع مدينة بلنسية أثناء حصار النصارىٰ لها، فلم تكن قيادتها حازمة جادة في مقاومة ذلك الخطر، كما أن أهلها قد قبلوا بذلك الواقع وكأن الأمر لا يعنيهم، بل كأن ذلك الخطر النصراني المتربص ليس بقريب منهم، حيث خرجوا بزينتهم لمقاومته، ومما زاد الأمر سوءاً أن مسلمي الأندلس بقوا متخاذلين عن نصرتهم كأن جرحهم ليس بمفض إليهم، ومن خرج منهم لم يكن بنية الجهاد، بل كان أملاً في ضم المدينة إلىٰ حوزته، ولا شك أن ذلك الواقع هو السبب الرئيس في ضعف الثغور، وضرب الديار، وتسلط الأعداء كما يقول ابن بسام[1].

وقد أسند المأمون حكم مدينة بلنسية للوزير أبي بكر أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز (٤٥٧ ـ ٤٧٨ هـ) الذي أحسن إدارتها لكنه ما لبث أن استقل بها بعد وفاة المأمون عام ٤٦٧ هـ، بيد أنه واجه أطماع بني هود، ذلك أن المقتدر ابن هود حينما استولىٰ علىٰ دانية في عام ٤٦٨ هـ من يد إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري ـ ومن ثم أصبحت أملاكه محيطة ببلنسية ـ خاف منه أبو بكر بن عبد العزيز، فخاطب ألفونسو السادس ملك قشتالة، ثم انضوىٰ تحت حمايته وقام بدفع الإتاوة له، لكن هذا الإجراء لم يحد من أطماع بني هود ضده؛ إذ كان المؤتمن ابن المقتدر يتطلع إلىٰ امتلاك بلنسية لأهمية موقعها ووفرة خيراتها؛ ولهذا

(١) الذخيرة، ق ٣، ج ٢، ص ٨٥١.

خاطب ألفونسو السادس ودفع إليه مائة ألف دينار لمعاونته في السيطرة عليها[١].

هكذا تسابق ذانك الزعيمان المسلمان من أجل كسب ود الملك النصراني، الذي وجدها فرصة لتحقيق مآربه حيث زحف نحو بلنسية متجاهلاً معاهدته مع زعيمها ابن عبد العزيز الذي خرج إلىٰ ألفونسو وخاطبه برقة ولباقة، وأقنعه بعقم محاولته فانصرف عنه ووعده بحمايته، وبهذا أخفقت محاولة المؤتمن[٢].

ويبدو أن أبا بكر بن عبد العزيز كره التمادي في موالاة النصارىٰ؛ ولهذا سعىٰ إلىٰ إصلاح ما بينه وبين خصمه المؤتمن حيث فاوضه، وقدم إليه ابنته عروساً لابنه أحمد المستعين فوافق المؤتمن؛ إذ رأىٰ أن هذه المصاهرة قد تكون سبيلاً لضم المملكتين سرقسطة وبلنسية في مملكة قوية واحدة حيث احتفل بعقد الزواج بسرقسطة في رمضان سنة ٤٧٧ هـ، لكن أبا بكر لم يعش طويلاً بعد ذلك؛ إذ توفي في السابع من صفر ٤٧٨ هـ بعد أن حكم عشرة أعوام، وقد خلفه في الحكم ابنه أبو عمر عثمان[٣].

وفي تلك الأثناء سقطت مدينة طليطلة بيد ألفونسو السادس، وقد أثر سقوطها في وضع المسلمين هناك؛ إذ كان ألفونسو قد وعد القادر ابن ذي النون حاكم طليطلة المعزول أن يمكّنه من استرداد بلنسية التي خرجت عن طاعته.

أما أهل بلنسية فقد انقسموا علىٰ أنفسهم بعد تطور الأحداث هناك، فمنهم من يرىٰ أن تنضوي بلنسية تحت حكم المستعين ابن هود؛ بينما رأىٰ فريق آخر أن يخضعوا لحكم القادر باعتباره الحاكم الشرعي للمدينة، وقد كثر الجدل وافترق

---

(١) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٨٦، خليل السامرائي، الثغر الأعلىٰ، ص ١١٠.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشىٰ، ج ٥، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٢٦.
(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٣٠٤، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٢٦.

الناس حول هذا الموضوع، حينئذ رأىٰ القادر ضرورة الاستفادة من هذه الفرصة، فتوجه نحو المدينة ومعه فرقة نصرانية أمده بها ألفونسو السادس، وحينما اقترب جيش القادر من المدينة، خاف أهلها من أن تتعرض لهجوم نصراني؛ حينئذ أعلن أصحاب الرأي فيها خلع عثمان بن عبد العزيز وانضواءهم تحت حكم القادر، وكان ذلك في شوال سنة ٤٧٨ هـ.

هكذا عاد حكم بني ذي النون لمدينة بلنسية تحت ظلال الحراب النصرانية التي آزرت ذلك الملك الضعيف فدخل المدينة، وقد ساءت أحوالها بسبب سوء السياسة التي نهجها القادر، فقد أرهق أهلها بالضرائب لسداد مطالب القشتاليين الذين كثر عبثهم وأصبحت لهم السيادة الحقيقية علىٰ المدينة[١].

وقد حاول المنذر ابن هود صاحب طرطوشة ودانية والجزء الشرقي من سرقسطة الاستفادة من تلك الأجواء المضطربة في بلنسية ولا سيما أنها تشطر أراضي مملكته، فطمع في الاستيلاء عليها؛ حيث حاصرها بجيش تؤازره سرية من المرتزقة القطلان، ففكر القادر في التسليم، لكنه أرسل إلىٰ ألفونسو السادس يستغيث به، كما أرسل إلىٰ المستعين ابن هود صاحب سرقسطة، وخصم المنذر الذي أراد أن يحقق حلم أبيه المؤتمن في السيطرة علىٰ بلنسية؛ حيث توجه إلىٰ بلنسية في أربعة آلاف فارس ومعه حليفه القمبيطور في ثلاثة آلاف فارس، وذلك عام ٤٨١ هـ[٢].

ولما اقترب الجيشان من بلنسية حاول القادر ضرب بعضهما ببعض؛ حيث تحالف مع القمبيطور سراً بعد أن أعطاه ما يريد من المال؛ حينئذ كفَّ القمبيطور عن

(١) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص ٣٦٨.

(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٩٨، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

دخول المدينة محتجاً بأنها تابعة لألفونسو السادس؛ حيث إن القادر خاضعٌ له، وفي مقابل ذلك تعهد القادر بأن يدفع مائة ألف دينار سنوياً مقابل حمايته(١).

وقد أثار هذا التصرف من قِبَل القادر أهل بلنسية ضده؛ حيث عزموا على التخلص منه، والبراءة من النصارىٰ بنبذ موالاتهم والخضوع لهم(٢)، ولا سيما بعد أن ساءت أحوالهم السياسية، وغدت السيادة الحقيقية فيها للنصارىٰ، واستهين بالدين إرضاء لأنانية القادر ومن أجل بقائه في السلطة(٣).

وقد تزعم هذا الاتجاه قاضي بلنسية أبو أحمد ابن جحاف، حيث أصر علىٰ التخلص من ذلك الواقع السيئ وإصلاح وضع المسلمين، ومن هنا بدأت جهوده الإصلاحية، حيث خاض الميدانين السياسي والعسكري لهذا الغرض، وهو بهذا النهج يختلف عن كثير من زملائه المصلحين الذين حاولوا الإصلاح عن طريق المنهج الفكري أو الميدان السياسي السلمي.

وقد كانت الخطوة الأولىٰ لابن جحاف في هذا السبيل أنه فاوض القائد المرابطي داود بن عائشة الموجود بالأندلس آنذاك ليعينه في التخلص من ذلك الحكم السيئ، فأجابه القائد المرابطي، وأرسل سرية إلىٰ بلنسية أعانته في الثورة ضد ابن ذي النون؛ حيث تمكن من القبض عليه وقتله ثم إعلان خروج المدينة عن طاعته وطاعة النصارىٰ، وكان ذلك في الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٨٥ هـ(٤).

---

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٠، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٩٣.
Angel Masia.pp,120.

(٢) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

(٣) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٦٨.

(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٩٥ ـ ٩٦، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص٢٠٣ ـ ٢٠٤، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٣٠٥، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١، الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٦٨.

وبعد أن أطاح بابن ذي النون، حشَدَ الجند، وحصَّن المدينة، واستعد لأي خطر نصراني متوقع[١]. بهذا المنهج بدأ ابن جحاف برنامجه الإصلاحي؛ حيث لجأ إلىٰ أسلوب الثورة والصدام المسلح بدلاً عن الأسلوب السلمي الذي نهجه كثير من الدعاة إلىٰ الإصلاح.

هكذا وصل القاضي ابن جحاف إلىٰ السلطة، بعد أن تمكن بمؤازرة أهل بلنسية من القضاء علىٰ المتغلب عليها القادر ابن ذي النون، وبالرغم من وضوح السبب الذي حرك ابن جحاف لهذه الثورة، فإن آراء المؤرخين قد تباينت في تفسيرهم للأسباب التي دفعته إلىٰ هذا العمل، فابن بسام يرىٰ أن السبب الذي دفعه إلىٰ ذلك هو طمعه في الرياسة لما أحس بكراهية أهل بلنسية لابن ذي النون، وتيقن من مساعدة المرابطين له، كما يرىٰ ابن بسام ـ أيضاً ـ إن إقدام ابن جحاف علىٰ هذا العمل، إنما هو من باب المجازفة؛ لأنه ولج ميداناً لا يحسن العمل فيه، فقد «دفع إلىٰ النظر في أمور سلطانية لم يتقدم قبل في غوامض حقائقها، وإلىٰ ركوب أساليب سياسية لم يكن له عهد باقتحام مضايقها، ولا بالدخول في ضنك مآزقها، ولم يعلم أن تدبير الأقاليم غير تلقين الخصوم، وأن عقد ألوية البنود غير الترجيح بين العقود وانتحال الشهود»[٢].

أما ابن عذارىٰ، وابن الخطيب، فيريان أن السبب الذي دفع ابن جحاف لخلع القادر، وتولي الأمر مكانه هو رغبة أهل بلنسية في الخلاص من واقعهم السيئ المتمثل في خضوع مدينتهم للنصارىٰ، قال ابن عذارىٰ عن هذا: «لما مَلَك القادر بلنسية أحدث فيها أحداثاً، وغيَّر أحكاماً، وأظهر منكراً كثيراً، وصادق

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٣٠٥، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٤١.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٩٧.

الفونش وهاداه وراسله، فخاف أهل بلنسية منه أن يملكها للفونش، كما ملكه طليطلة، فاجتمعوا وعزموا على قتله وتقديم ابن جحاف»[١]، أما ابن الخطيب فقال إن ابن جحاف «سئم إضافة عدو الله الكنبيطور ببلنسية، وسَوْمه أهلها خطة الخسف، وسئم الذل، وضاق صدره بحقد ابن ذي النون المنتقل إليها بعد تمكين النصارى من طليطلة، فقوي بمكانة دولة اللتمونين، وانتشل على أيديهم كشف المحنة والخروج من ذل الكنبيطور»[٢].

هذه أهم آراء المؤرخين في تفسير خروج ابن جحاف على القادر ابن ذي النون في بلنسية، ويبدو أن ما ارتآه كل من ابن عذارى وابن الخطيب هو الرأي الصحيح؛ حيث ذكرا أن خروج ابن جحاف لم يكن بسبب رغبته في السلطة، وإنما كان تلبية للرغبة العامة التي أظهرها أهل بلنسية لابن جحاف للخلاص من واقعهم السيئ، ويدل على صحة هذا الرأي ما يأتي:

١ ـ أن الخطر النصراني الذي اتخذه البلنسيون مع ابن جحاف ذريعة لخلع القادر كان موجوداً، فالنصارى أصبحوا هم الحكام الحقيقيون لتلك المدينة، أما ابن ذي النون الذي لم يدخل المدينة إلا ومعه جيش نصراني، أمده به ألفونسو السادس ـ ملك قشتالة ـ مقابل تعهده بالخضوع له، ودفع إتاوة سنوية قدرها مائة ألف مثقال كل عام[٣]، فلم يعد له أي سيطرة على البلد، وقد أدرك هذا الأمر ابن عذارى حيث قال: «فخاف أهل بلنسية منه ـ يعني القادر ـ أن يُملّكها للفونش كما ملّكه طليطلة فاجتمعوا وعزموا على قتله»[٤].

---

(١) البيان المغرب، ج ٣، ص ٣٠٥.
(٢) أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٠٤.
(٣) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٦، ١٠٠.
(٤) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٣٠٥.

٢ ـ لو كان ابن جحاف يسعىٰ للرياسة والسلطان ـ كما يقول ابن بسام ـ لحذا حذو القادة الذين يسعون لهذا الغرض، فأظهر موالاة النصارىٰ والخضوع لهم، حتىٰ يبقوه في السلطة، لكنه لم يكن هذا هدفه الأسمىٰ؛ إذ إنه ما أن تولىٰ الأمر حتىٰ حَشَدَ الجند، وحصَّن المدينة، واستعد لمواجهة الخطر النصراني[١]، فلما حاصره الكنبيطور ودعاه إلىٰ أن يسلمه أموالاً طائلة مقابل فك الحصار عنه رفض ابن جحاف ذلك، وأغلق أبواب المدينة في وجه جيشه، وكتب إلىٰ قائد المرابطين يطلب منه المدد والنجدة، كما بعث إلىٰ المستعين بالله ابن هود ملك سرقسطة يدعوه لمساعدته ثم عزم علىٰ مقاومة العدو النصراني حتىٰ آخر رمق[٢].

ومما لا شك فيه أن النصارىٰ قد فوجئوا بهذا الموقف الجاد من قبل ابن جحاف، وهو موقف لم يألفوا مثله من زعماء وملوك الطوائف، وهذا مما أغضب القائد النصراني الكنبيطور حيث حاصر بلنسية، وضيَّق الخناق علىٰ أهلها[٣]، حتىٰ عدم الناس الطعام، وأكلوا الفئران، والكلاب، والجياف إلىٰ أن أكل الناسُ الناسَ، ومن مات منهم أكلوه، فبلغ الناس من الجهد ما لا يطيقون[٤].

ولما مضىٰ علىٰ حصار بلنسية عشرون شهراً، كان خلالها القاضي ابن جحاف يستصرخ المرابطين لنجدته لكنهم لم يتمكنوا من مساعدته لبعد الشقة، كما استصرخ ابن هود صاحب سرقسطة ورغَّبه في المال والبلد مع الأجر والمثوبة إن هو تمكن من استنقاذ المسلمين من القتل والأسر، لكنه لم يجبه سوىٰ

(١) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٢٧.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق٣، ج ١، ٩٧ ـ ٩٨، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.
(٣) انظر: Angel Masia. pp.123.
(٤) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٣٠٥.

بالتسويف والمطل[١].

حينئذ بلغ السيل الزبى حيث عدمت المدينة من ينهض لمساعدتها من جيرانها المسلمين، فاجتمع الناس إلى الفقيه أبي الوليد الوقشي وطلبوا منه أن يقنع ابن جحاف بالاستسلام حقناً لدماء المسلمين، كما اجتمع أعيان المدينة وألحوا عليه بمفاوضة النصارى في التسليم، وعقد الصلح معهم فأذعن لرأيهم، وترك لهم أمر المفاوضة حيث «ألجأتهم الحال إلى دخول العدو بحكم الاضطرار لا بحكم الاختيار»[٢].

هكذا تصدى ابن جحاف للخطر النصراني حتى أعياه الأمر، فلم يغيِّره ترغيبهم أو يستفزه ترهيبهم، حتى عظم البلاء، وعدم الناس الصبر، وأصبح الصلح مع العدو مطلباً عاماً لأهل بلنسية، فضلاً عن كونه ضرورة ملحّة؛ حينئذ نزل ابن جحاف على رأيهم لما في ذلك من مصلحة عامة للمسلمين، فلو كان ابن جحاف - كما يقول ابن بسام - يرغب في السلطان[٣] لما صبر هذا الصبر، وجاهد حتى آخر رمق، ولأظهر موالاة النصارى حتى يحافظ على السلطة والسلطان ويبقى فيما كان يسعى إليه.

ويبدو أن ثقل تسليم المدينة على نفس ابن جحاف منعه من أن يباشر مفاوضة النصارى بنفسه؛ ولهذا توجه وفد من أهل بلنسية لهذا الغرض؛ حيث فاوضوا الكنبيطور في ذلك، ثم سلموا له المدينة مقابل عدد من الشروط، منها: أن يبقى

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٩٥-٩٦، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٤، ص ٣٤، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٤٣، عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٧٦-٣٧٧.

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٤، ص ٣٤.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٩٥-٩٦.

ابن جحاف قاضياً للمدينة، وحاكماً لها، وأن يتولىٰ مندوب الكمبيطور الإشراف علىٰ تحصيل الضرائب، وأن تحتل المدينة حامية من النصارىٰ المعاهدين المستعربين الذين يعيشون بين المسلمين، وأن لا يغير شيئاً من شرائع المدينة وأحكامها[١].

وبعد أن أعلن النصارىٰ موافقتهم علىٰ تلك الشروط، فتحت المدينة أبوابها، حيث دخلها النصارىٰ في يوم الخميس منسلخ جمادىٰ الأولىٰ سنة ٤٨٧ هـ (حزيران ١٠٩٤ م) بعد حصار[٢] دام عشرين شهراً[٣]، وما أن وطئت أقدام النصارىٰ أرض المدينة حتىٰ بدؤوا يتحللون من شروطهم التي قطعوها علىٰ أنفسهم للمسلمين؛ إذ احتلوا معظم دور المدينة وضياعها، كما لم ينصفوا أحداً من المسلمين[٤]، بل إن الأمر تجاوز ذلك حيث يذكر ابن عذارىٰ أنه لما دخل شهر شعبان من عام ٤٨٧ هـ أصدر القائد النصراني المحتل لبلنسية قراراً بأن «من وُجد عنده شيء من آلات الحديد فماله ودمه حلال! فبرئ الناس منه حتىٰ من الإبر والمسامير، ووضعوا ذلك بباب القصر، وقد تضاعف الجزع والخوف، ثم مشىٰ بريحه[٥] من الغد بالخروج إلىٰ البحر لجر القطع التي فيه إلىٰ البر، فلما تكامل

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٤، ص ٣٤، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٤٤.

(٢) كان حصار النصارىٰ لبلنسية قد بدأ منذ آخر شهر رمضان سنة ٤٨٥ هـ. (ابن الأبار، ج ١، ص ٢٩٨).

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعمال، القسم الثاني، ص ٢٠٤، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٠٣، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٤، ص ٣٤.
ويذكر ابن بسام، وابن عذارىٰ في رواية ثانية له أن استسلام بلنسية كان في سنة ٤٨٨ هـ. (الذخيرة، ق٣، ج ١، ص ٩١ـ٩٢، البيان المغرب، ج ٣، ص ٣٠٦).

(٤) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٤٥، عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٧٧.
Memendez Pidal. R. EL-Cidampeador, 7o Ed. Madrid 1973, pp. 197 - 199.

(٥) مشىٰ بريحه يعني أصدر أمره.

الناس لحق بهم المترجم من زعماء الروم فميزهم؛ فمن كان من أهل اليسار صرف إلىٰ المدينة، ومن كان من أهل النجدة جُرِّد ونضي، وغلب الظن أنهم قتلوا»[١].

ولعل هذا النص الذي قاله ابن عذارىٰ يكفينا التعليق علىٰ نقض النصارىٰ لعهدهم الذي أعطوه للمسلمين، وقد سجل هذه المآسي المروعة أبو العباس أحمد بن علقمة وهو ممن شهد تلك الأحداث، وعانىٰ من الحصار في كتاب أسماه: (البيان الواضح في المسلم الفادح)[٢].

وقد أغاظ النصارىٰ ذلك الموقف البطولي الذي وقفه القاضي ابن جحاف ضدهم، حينما تولىٰ قيادة حركة المقاومة الإسلامية ببلنسية، فقضىٰ علىٰ أذنابهم، وتولىٰ مدافعتهم عن المدينة؛ ولهذا لم يجدوا ما يطفئ غيظهم عليه سوىٰ إحراقه بالنار بعد أن ثبتوا أقدامهم بالمدينة؛ حيث لقي ذلك المجاهد مصيره بشجاعة مؤثرة، وصفها لنا شاهدها ابن علقمة بقوله: «أمر بتعذيبه فعُذّب عذاباً شديداً، ثم أمر به فجُمع له حطب كثير، وحُفرت له حفرة وأقيم فيها، وأصبر الحطب حوله، وأوقدت فيه النار، فكان يضم النار إليه بيديه؛ ليكون ذلك أسرع لخروج روحه»[٣].

كما ذكر ابن بسام ـ معاصر هذه الأحداث ـ وصفاً آخر لهذه المأساة حينما قال: «حدثني من رآه في ذلك المقام، وقد حفروا له حفيراً إلىٰ رفغيه، وأضرمت

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٤، ص ٤٠.

(٢) هذا الكتاب مفقود الآن، وقد تحدث عنه ابن الأبار في كتابه التكملة، ج ١، ص ٢١٢، ٢٨٦، كما نقل منه ابن عذارىٰ فقرات جيدة في كتابه: البيان المغرب، ج ٤، ص ٣١، ٤١.
ويذكر الدكتور عبد الرحمن الحجي أنه يوجد ترجمة إسبانية لهذا الكتاب لكنها غير أمينة (التاريخ الأندلسي، ص ٣٧٨)، انخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١١٦).

(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٣٠٦.

النار حواليه، وهو يضم ما بَعُدَ من الحطب بيديه؛ ليكون أسرع لذهابه، وأقصر لمدة عقابه، كتبها الله في صحيفة حسناته، ومحا بها سالف سيئاته... وهمَّ الطاغية يومئذ ـ لعنه الله ـ بتحريق زوجه وبناته فكلمه فيهن بعض طغاته، فعدل عن رأيه وتخلصن من يدي نكرائه، وأضرم هذا المصاب الجليل يومئذ أقطار الجزيرة ناراً، وجلل سائر طبقاتها خزياً وعاراً»[١]، هكذا كانت نهاية ذلك العالم المجاهد الذي سعىٰ لإصلاح واقع أمته.

وبالرغم من السطوة التي كانت للنصارىٰ آنذاك في بلنسية خاصة، وفي بلاد الأندلس عامة، فإن النصارىٰ لم يجرؤوا علىٰ إظهار حقدهم علىٰ ابن جحاف بسبب موقفه البطولي ضدهم، بل إنهم اصطنعوا سبباً جعلوه مسوِّغاً لمقتله، حيث اشتهر بين المؤرخين أن الكنبيطور لما دخل مدينة بلنسية تسلم من ابن جحاف أموال حاكمها السالف القادر ابن ذي النون وذخائره، ولكن الكنبيطور اتهمه بأنه أخفىٰ بعض المال، ثم طلب منه أن يُقسم علىٰ ذلك، وأنه إن وجد شيئاً منها بعد ذلك فسيسفك دمه، فأقسم القاضي علىٰ ذلك أمام شهود من المسلمين والنصارىٰ، لكن الكنبيطور أعلن اتهامه بإخفاء بعض المال، ثم أصدر حكمه بإعدام القاضي ابن جحاف حرقاً بالنار في ساحة المدينة[٢].

وعلىٰ الرغم من أن المؤرخين قد ذكروا هذه الرواية، واشتهرت بينهم فإن المعاصرين لها والذين يعرفون حقيقة الأمر وملابساته أجمعوا علىٰ بطلانها، فابن بسام ذكر أن هذه التهمة كانت حيلة منه أراد من ورائها القضاء علىٰ ابن جحاف[٣]، أما ابن علقمة فقال عنها: «إن الكنبيطور طلبه في الأموال فأخرج له

(١) الذخيرة، ق ٣، ص ٩٩.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٩٨ ـ ٩٩، ابن الأبار، التكملة، ج ١، ص ١٩٥، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ج ١، ص ٣٠٦.
(٣) الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٩٨ ـ ٩٩.

أسباباً كثيرة، وأثاثاً كثيرة، فقال له الكنبيطور: من تكون عنده ما يكون عنده مال؟ فغضب وأمر بتعذيبه، فعُذّب عذاباً شديداً، ثم أمر به فجُمع له حطب كثير، وحُفرت له حفرة وأقيم فيها. . . ولم يكن غضب الطاغية عليه إلا لشدة صبره على تلك الأزمة، واجتهاده في طلب النصرة، ودفعه إياه بالمطاولة، رجاء استمساك البلدة وإبقاء الكلمة»[1].

وبالإضافة إلى هذا فقد ذكر ابن علقمة ـ في مكان آخر ـ ما يدل على أن تلك التهمة قد جُعلت سبباً وذريعة لإحراق ابن جحاف؛ وذلك لأن الكنبيطور لم يثبت على تهمة واحدة، بل تعددت التهم التي وجهها ضد ابن جحاف؛ حيث ذكر ابن علقمة أنه لما أضرمت النار لإحراق ابن جحاف حشر الكنبيطور الناس من المسلمين والنصارى، ثم خاطب المسلمين قائلاً: «ما جزاء من قتل أميره عندكم في شرعكم؟ فصمتوا فقال لهم: جزاؤه عندنا الإحراق بالنار. وأمر به وبجملته إلى ذلك الضرم»[2].

وهناك دليل آخر يضاف إلى ما سبق، للدلالة على أن ما قام به الكنبيطور ضد ابن جحاف إنما كان بسبب موقفه البطولي منه ومن صنائعه، وهذا الدليل هو أنه ما أن فرغ الكنبيطور من القضاء على ابن جحاف، حتى عمد إلى الجلة من أهل بلنسية فثقفهم وأعزمهم، فاستولى على كل ما عندهم حتى عمّتهم المحنة، وهلك الكثير منهم[3]، كما أحرق بعضهم بالنار[4] ـ رحمهم الله أجمعين ـ.

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٣٠٦، (نقلاً عن ابن علقمة).
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٤، ص ٣٧.
(٣) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٢٦، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٤، ص ٣٨.
(٤) عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٧٢.

وهكذا فَقَد مسلمو الأندلس صفوة من خيرة علمائهم ومجاهديهم بسبب الحقد النصراني، والعداء المتأصل في نفوسهم ضد المسلمين المخلصين الذين رفعوا راية الجهاد وتصدوا للخطر النصراني.

وبعد هذا العرض يتبين لنا أن قتل الكنبيطور لابن جحاف إنما كان سببه الحقيقي هو أنه ثبت وثـبّت أهل المدينة أمام الخطر النصراني، أما ما ادعاه الكنبيطور من أسباب أخرىٰ فهي في الحقيقة أسباب مختلقة، وتعللات باطلة أراد أن يستتر بها لإخفاء حقيقة هدفه[1].

ولم يكتف النصارىٰ بهذا العمل ضد أهل بلنسية الذين انضووا تحت لواء القاضي ابن جحاف، بل إنهم فتنوا الأحياء في دينهم، حيث ذكر ابن الكردبوس أن النصارىٰ بعد تلك المحنة أَسَرُوا عدداً كبيراً من مسلمي بلنسية «إلىٰ أن انتهىٰ بيعهم المسلم الأسير بخبزة وقدح خمر، ورطل حوت، ومن لم يفد نفسه قُطع لسانه، وفُقئت أجفانه، وسلطت عليه الكلاب الضارية. . . وفتنوا فتنة عظيمة في أديانهم، وسلبوا جملة أيمانهم»[2].

ولكن بالرغم من هذا الكيد النصراني فإن النصارىٰ لم يتمكنوا من الوقوف أمام صولة الحق، ولم تذهب تلك الجهود المخلصة سدىٰ؛ ذلك أن الأندلس اهتزت لسقوط بلنسية، ثم لمقتل قاضيها وخيرة رجالها، حيث بكاها الأدباء، ورثاها الشعراء، وكان مما قيل في هذا قصيدة للشاعر ابن خفاجة جاء فيها[3]:

عاثت بساحتك الظِّبا يا دار ... ومحا محاسنك البِلى والنّارُ
فإذا تردد في جنابك ناظرٌ ... طال اعتبار فيكِ واستعبارُ

---

(١) كريم عجيل حسين، الحياة العلمية في مدينة بلنسية، ص ١٣٦.
(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٣) المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٤٥٥.

أرض تقاذفت الخطوبُ بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدارُ
كتبت يدُ الحدثان في عرصاتها لا أنْتِ أنْتِ ولا الديارُ ديارُ

ولما وصلت أخبار بلنسية إلىٰ السلطان يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين، أهمه أمرها، فسيَّر جيشاً لنصرتها واستعادتها.

٣ ـ سقوط بربشتر:

أدىٰ ضعف المسلمين في عصر ملوك الطوائف إلىٰ أن يصبحوا هدفاً ليس لنصارىٰ شبه جزيرة أيبيريا فحسب، بل للنصارىٰ كافة حتىٰ لو لم يكونوا مجاورين لهم، وقد استغلت البابوية هذا التوجه عند النصارىٰ فدعتهم إلىٰ محاربة المسلمين بالأندلس، وكان من بين من دعا إلىٰ ذلك البابا إسكندر الثاني حينما وجه النورمان إلىٰ حرب المسلمين في الأندلس[١].

وقد استجاب النصارىٰ النورمان والذين كانوا يقيمون في فرنسا لذلك التوجيه؛ إذ أعدوا جيشاً قوامه أربعون ألف فارس أو يزيدون، تولىٰ قيادته (جيوم دي موتري) أو (البطين) كما تسميه الرواية العربية، حيث توجه بجيشه جنوب فرنسا متجهاً نحو الأندلس ثم اجتازوا مملكة سرقسطة، وكانت تحمي مؤخرة الجيش أراض نصرانية هي مملكة برشلونة، وقد قصدوا أولاً مدينة وشقة ـ إحدىٰ قواعد سرقسطة الرئيسة ـ فنازلوها أياماً، ولما لم يفلحوا في اقتحامها تركوها متوجهين نحو مدينة بربشتر والتي لا تقل أهمية عن وشقة[٢].

---

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٦٩ ـ ٨٠.

(٢) البكري، جغرافية الأندلس، ص ٩٣، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٦٩، الحميري، الروض المعطار، ص ٩٠، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤، الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٦٣٠ ـ ٦٣١.

ضرب النصارى الحصار على مدينة بربشتر في أوائل سنة ٤٥٦ هـ (ربيع سنة ١٠٦٤ م) ، وقد استمروا في حصارهم أربعين يوماً عانى المسلمون خلالها كثيراً بسبب قلة القوت وخذلان المسلمين لها ، ووقوع الهرج والتنازع بين أهلها ، وبالمقابل فقد كان الجيش النصراني قوياً ؛ ولهذا شددوا قبضتهم وضاعفوا جهودهم ، وقد جرت بين الطرفين معارك خارج المدينة تمكن النصارى خلالها من اقتحام المدينة الخارجية بعد أن قتل منهم نحو خمسمائة رجل . أما المسلمون فقد تحصنوا بالقصبة والمدينة الداخلية ؛ إذ كانوا عازمين على المقاومة حتى آخر لحظة ، لكن حدث ما لم يكن بالحسبان فقد تعرّف النصارى على مجرى الماء الذي يقع في سرب داخلي تحت الأرض متصل بالنهر وتشرب منه المدينة ، فقطعوا الماء عن المحصورين فاشتد بهم العطش ، حينئذ عرضوا على النصارى التسليم بشروط منها : أن يؤِّمنوهم على أنفسهم وأولادهم ، وأن يخرجوا من المدينة دون مال ، لكن النصارى رفضوا ذلك حيث دخلوها عنوة دون قصبتها التي احتمى بها بعض الجند[١] .

كانت هذه ظروف سقوط مدينة بربشتر البائسة بيد النصارى ، ويلحظ المتتبع لأحداث ذلك السقوط أن السبب الرئيس فيه كان عطش المحصورين الناجم عن سد القناة المائية التي كان يشرب منها الناس ، فكيف تعرَّف النصارى عليها؟

تباينت آراء المؤرخين حول هذه القضية ؛ فابن حيان فيما يرويه عنه ابن بسام يذكر أن سد القناة المائية لم يكن بفعل النصارى المحاصِرين ، وإنما كان بسبب سقوط صخرة عظيمة في نفس السرب حيث سدته بأسره ، فعدم المحصورون الماء

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٨٩ ـ ١٩٠ ، البكري ، جغرافية الأندلس ، ص ٩٥ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج٣ ، ص ٢٢٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، المقري ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤١ ، ٤٥ ، الحميري ، الروض المعطار ، ص ٩١ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٢٧٥ ، عبد الرحمن الحجي ، التاريخ الأندلسي ، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ .

وأيسوا من الحياة(١).

أما ابن عذارىٰ فيرىٰ أن أحد الخونة هو الذي دلَّ النصارىٰ علىٰ السرب الذي فيه الماء فهدموه، وألقوا فيه صخرة عظيمة فانقطع الماء عن المحصورين(٢)، وقد ذكر هذا الرأي بعض الكتاب المعاصرين لكنهم لم يجزموا به(٣).

وعلىٰ أي حال فإن النصارىٰ دخلوا المدينة الباسلة دخول الوحوش المفترسة حيث استباحوها بكل ما فيها ومن فيها، وقُدِّر عدد القتلىٰ والأسرىٰ بين أربعين ومائة ألف؛ إذ إن المحصورين كانوا قد أضناهم العطش، فلما رأوا الماء تطارحوا عليه لإرواء ظمئهم حينئذ أعمل النصارىٰ السيوف في رقابهم(٤).

ثم بعد ذلك أعطىٰ القائد النصراني الأمان لأهل بربشتر فخرجت جموع المسلمين من المدينة في ظل الأمان المعطىٰ لهم، فلما رأىٰ القائد النصراني كثرتهم هاله ذلك، فأمر جنده بإعمال السيوف في رقابهم للتقليل منهم فقتل منهم ما يزيد علىٰ ستة آلاف، كما هلك أثناء الزحام كثير من النساء والشيوخ والأطفال، وقد ترك لنا ابن حيان وصفاً دقيقاً لتلك المعاناة، ومما جاء فيه: «ولما برز جميع من بقي من أهل المدينة عنها إلىٰ فناء بابها ـ بعد من خفف منهم بالقتل، وهلك في الزحمة ـ ظلوا قياماً ذاهلين منتظرين لنزول القضاء بهم، نودي فيهم بأن يرجع كل ذي دار منهم إلىٰ داره ووطنه بأهله وولده، وأزعجوا لذلك، فنالهم من الازدحام قريب

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق٣، ج ١، ص ١٨٢. (نقلاً عن ابن حيان).

(٢) البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٥.

(٣) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٧٥، عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٦١.

(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج٣، ص ٢٤٧، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٥٣، ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ٢٤٧، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٧١، عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٦٠ـ٣٦١.

مما نالهم في خروجهم عنها، فلما استقروا فيها مع عيالهم وذرياتهم اقتسمهم المشركون بأمر سلطانهم قسمة قرروها بينهم، فكل من صارت في حصته دار حازها، وحاز ما فيها من أهل وولد ومال، يحكم كل علج منهم فيمن سُلِّط عليه من أرباب الدور بحسب ما يبتليه الله به منهم، يأخذ كل ما أظهره عليه من نشب، ويقرره علىٰ ما أخفاه عنه يعذبه به أنواعاً من العذاب حتىٰ يبلغ نفسه عذرها منه، فربما زهقت نفس المسلم دون ذلك فاستراح، وربما أنظره أجله إلىٰ أسوأ من ذلك، فإن عداة الله كانوا يومئذ مولعين بهتك حرم أسراهم وبناتهم بحضرتهم وعلىٰ أعينهم إبلاغاً في تعذيب قلوبهم، يغشون الثيب، ويفتضون البكر، وزوج تلك، وأبو هذه موثق بقيد إساره، ناظر إلىٰ سخنة عينيه؛ فعينه تدمع، ونفسه تقطع، ومن لم يرض ذلك منهم في خادم أو ماهنة[1] أو وخش[2]، أعطاهن خوله وغلمانه يعبثون بهن عبثه، فبلغ الكفرة فيهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة علىٰ الحقيقة»[3].

وبعد مضي ثلاثة أيام من دخول النصارىٰ بربشتر حاولوا اقتحام قصبتها للقضاء علىٰ المتحصنين فيها من المسلمين، فلما أحاط النصارىٰ بالقصبة نزل المحصورون علىٰ أمان وقد شهبت وجوههم، وتغيرت خلقهم من شدة العطش حيث أذن لهم النصارىٰ بمغادرة المدينة فخرجوا يريدون مدينة منتشون أقرب مدن الإسلام إليهم، وفي الطريق إليها قابلتهم سرية نصرانية لم يشهد أفرادها دخول بربشتر ولم يعلموا بخبر هؤلاء المؤمنين فقتلوهم جملة ما عدا قليل منهم نجوا بأنفسهم[4].

---

(١) ماهنة: ذات مهنة.

(٢) وخش: أراذل الناس وسقاطهم يوصف به الرجل والمرأة.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق٣، ج ١، ص ١٨٤ ـ ١٨٥. (نقلاً عن ابن حيان).

(٤) ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٢٨١، الحميري، الروض المعطار، ص ٩٠ـ ٩١.

ويذكر المؤرخون أن القائد النصراني بعث بخمسة آلاف فتاة من سبي بربشتر إلىٰ صاحب القسطنطينية، كما غنموا منها أوقار الأمتعة والحلي والكسوة، ويضيف ابن حيان أن النصارىٰ حصلوا من غنائم بربشتر علىٰ ما لا يحصىٰ لكثرته[1].

هكذا كان خَطْب بربشتر أعظم من أن يوصف أو يتقصىٰ كما يقول ابن حيان[2]، وبالرغم من هول الفاجعة إلىٰ جانب طول مدة الحصار، فقد كانت لدىٰ المسلمين رغبة صادقة في المقاومة، فلم يستسلموا إلا بعد أن أضناهم العطش، إلا أنه يلحظ أن مسلمي الأندلس ظلوا مكتوفي الأيدي أثناء تلك المعاناة؛ فلم يحاولوا مساعدة إخوانهم مسلمي بربشتر أو الشد من أزرهم خلال مدة الحصار.

أما بنو هود وهم القريبون منهم فقد تذرع المقتدر بأنها من أعمال أخيه المظفر ولهذا لم يبادر لنصرتها، وهذا الموقف منه يدل علىٰ منتهىٰ الأنانية والجبن والخسة والنذالة، أما المظفر يوسف فلم يستطع نصرتها إذ كان وضعه السياسي والعسكري مضطرباً بسبب نزاعه مع أخيه المقتدر[3].

ويذكر المؤرخون أن صدىٰ تلك المأساة التي حلت بمسلمي بربشتر كان قوياً، إذ ما لبث أن طرق خبرها آذان المسلمين في الأندلس فتألموا لما حل بأهلها من محنة؛ ولهذا انبرىٰ عدد من العلماء والمفكرين إلىٰ كشف حقيقتها وأسبابها

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق٣، ج ١، ص ١٨٢. (نقلاً عن ابن حيان).
(٢) المصدر السابق، ق٣، ج ١، ص ١٨٣. (نقلاً عن ابن حيان).
(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق٣، ج ١، ص ١٨٩، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٢٥ـ ٢٢٦، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٧٥.

وشرح ظروفها، وكان من بين من تصدىٰ لهذا الموضوع الفقيه أبو محمد[١] عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن عبد البر، حيث كتب رسالة علىٰ لسان أهل بربشتر بيَّن فيها هول الفاجعة وعظم المأساة، كما دعا المسلمين إلىٰ توحيد الصف والنفرة إلىٰ الجهاد لأن ما أصابهم إنما كان بسبب التخلي عن الجهاد، وإهمال الثغور[٢]. ومن العلماء الذين أهمهم هذا الأمر أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد ابن طاهر[٣]؛ حيث آلمته تلك المحن التي حلت بمسلمي بربشتر، فكتب العديد من الرسائل إلىٰ بعض قادة الأندلس يبين لهم فيها شدة محنة المسلمين وخطر العدو النصراني المتربص[٤].

---

(١) أبو محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري أحد فقهاء الأندلس ومفكريها العظام، قال عنه ابن بشكوال: إنه من أهل الأدب والبلاغة والتقدم في العلم والذكاء. كما ذكر ابن عذارىٰ أن الناس كانوا يعدُّونه آية في البلاغة والقدرة علىٰ الكتابة، وقد تولىٰ الوزارة للمعتضد ابن عباد، لكن منافسه ابن زيدون وشىٰ به فسجنه المعتضد فشفع له أبوه فأخرج من السجن.

(ابن فرحون، الديباج المذهب، ص ٣٥٧، الفتح ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٢٠٦، الضبي، بغية الملتمس، ص ٢٥٤، ابن بشكوال، الصلة، ج ١، ص ١٧٩، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٤٥).

(٢) انظر: في تفصيلات هذه الرسالة ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٢٢٨.

(٣) أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر، وقد اشتهرت أسرته في الميدان السياسي في عصر ملوك الطوائف حيث تولىٰ والده أبو بكر أحمد بن طاهر الذي تولىٰ حكم مرسية ستة وثلاثين عاماً حتىٰ توفي سنة ٤٥٢ هـ، وبعد وفاة أبيه تولىٰ حكم مرسية مع اعترافه بالتبعية الاسمية لعبد الملك بن عبد العزيز بن المنصور (٤٥٢ ـ ٤٥٧ هـ)، ثم لما أسقط المأمون ابن ذي النون حكومة آل عامر أعلن ابن طاهر استقلاله ببلنسية وذلك سنة ٤٥٧ هـ، حيث حكمها حتىٰ سنة ٤٧١ هـ حينما استردها من ابن عباد، وقد كان من ذوي النزعة الأدبية والعلمية. (ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص ١٨٧، ابن بسام، الذخيرة، ق٣، ج ١، ص ٢٤، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٣٦١، الفتح ابن خاقان، قلائد العقيان، ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٤) الحميري، الروض المعطار، ص ٩٠ ـ ٩٢.

كما نظم الشعراء العديد من القصائد التي صوروا فيها تلك المأساة، كما بينوا أسبابها وعواملها، ومن ذلك قصيدة للشاعر عبد الله بن العسال، ومما جاء فيها:

ولقد رمانا المشركون بأسْهمٍ ... لم تخط لكن شأنها الإصماءُ
هتكوا بخيلهم قصور حريمها ... لم يبق لا جبل ولا بطحاءُ
جاسوا خلال ديارهم فلهم بها ... في كل يوم غارة شعواءُ
ماتت قلوب المسلمين برعبهم ... فحماتنا في حربهم جبناءُ
كم موضع غنموه لم يرحم به ... طفل ولا شيخ ولا عذراءُ
لولا ذنوب المسلمين وأنهم ... ركبوا الكبائر ما لهن خفاءُ
ما كان ينصر للنصارى فارس ... أبداً عليهم فالذنوب الداءُ[(١)]

وقد كان لهذه الصيحات التي أطلقها العلماء والمفكرون أثرها الواضح في شحذ الهمم، وإثارة النخوة الإسلامية، وإحياء روح الجهاد عند المسلمين هناك ولو لفترة يسيرة، وكان من بين من تأثر بذلك المقتدر بالله أحمد بن هود؛ إذ جهز جيشاً انضم إليه من المتطوعة والعلماء ستة آلاف رجل، كما انضم إليهم خمسمائة فارس بعثهم ابن عباد لنصرة بربشتر[(٢)].

وقد تمكن هذا الجيش من هزيمة النصارىٰ، وإعادة بربشتر إلىٰ حكم المسلمين، وكان ذلك في جمادىٰ الأولىٰ من سنة (٤٥٧ هـ/ ١٠٦٦ م)، حيث ضرب المسلمون حولها الحصار فامتنع النصارىٰ داخل المدينة حينما رأوا كثرة جيش المسلمين، لكن المسلمين نجحوا في إحداث فتحة في سورها ثم اقتحموا المدينة من خلالها، فلما رآهم النصارىٰ غادروها من الناحية الأخرىٰ، ثم حملوا علىٰ المسلمين حيث نشبت بين الفريقين معركة قاسية هلك فيها معظم النصارىٰ، كما أسر من بالمدينة من أهلهم ونسائهم، ويقدر المؤرخون عدد القتلىٰ من

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٨٧ ـ ٩٢.
(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٢٧.

النصارىٰ بألف فارس وخمسة آلاف رجل، كما غنم المسلمون عدداً كبيراً من الأموال والسبايا؛ إذ أرسل إلىٰ سرقسطة نحو خمسة آلاف سبية، ونحو ألف فرس، وألف درع، وأموال كثيرة(١).

هكذا استعاد المسلمون مدينة بربشتر بعد أن بقيت في حوزة النصارىٰ تسعة أشهر؛ وبذلك جبر الصدع، ورفعت المعرة، وأثلجت صدور المسلمين، كما عاد لهم شيء من هيبتهم وقدرهم(٢)، فما الذي غيَّر الحال وانتشل المسلمين من مستنقع الجبن والخور إلىٰ ساحة الجهاد والتضحية والفداء؟

وللإجابة عن هذا التساؤل يقال: إن الناظر لأحداث تلك المعركة يدرك أن الجيش الذي هب لنصرتها كان أفراده ينتمون إلىٰ جيش نظامي أعده المقتدر بالله ابن هود كما ساهم فيه ابن عباد، وبالإضافة إلىٰ هؤلاء فهناك مجموعة من المتطوعة والمجاهدين الذين حميت نفوسهم فرغبوا في المشاركة بالجهاد ونصرة مسلمي بربشتر؛ فما الذي حرّك هؤلاء وأولئك حيث خرجوا بروح معنوية جيدة، حتىٰ وصفهم الحميدي بأنهم من أهل الجدّ والحدّ(٣)، كما قال عنهم ابن حيان بأنهم أهل الحفيظة الشجعان حماة المسلمين الجادين لنصر الدين؟(٤).

أما المقتدر بالله ابن هود فجاء تحركه وسعيه لإصمات سوء القالة فيه بسبب تخاذله عن نصرتها في بادئ الأمر؛ إذ لحقه بسبب ذلك لوم كثير ـ كما يقول ابن حيان(٥).

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٨٩ ـ ١٩٠، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٢، ص ٢٢٧، الحميري، الروض المعطار، ص ٩٠ ـ ٩١، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٧٩.

(٢) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٧٩.

(٣) الروض المعطار، ص ٩١.

(٤) المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٤٥٤. (نقلاً عن ابن حيان).

(٥) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

وقد جاء تحرك المتطوعة وعامة الناس بسبب هول الفاجعة، وشدة الخطب الذي أصاب المسلمين، كما كان لرسائل العلماء والشعراء أثرها الواضح في تحريك مشاعر هذه الفئة من الناس وإحياء روح الجهاد لديهم، فقد كان ما يصدر منهم من رسائل أو دعوات إلىٰ الجهاد تقرأ علىٰ الناس في منتدياتهم، ومن ذلك تلك الرسالة القوية التي أرسلها ابن عبد البر في هذا الشأن[١].

وهكذا نرىٰ كيف استطاع مسلمو الأندلس أن ينفضوا عنهم غبار الضعف، وأن يشمروا عن سواعد الجد، حينما وجدوا من يأخذ بأيديهم إلىٰ هذا الميدان، وهذا مما يؤكد لنا أن مسلمي الأندلس قد تأصل في نفوسهم حب الخير والرغبة في الجهاد في سبيل الله، وأن الضعف الذي قد انتابهم إنما يطرأ لأسباب معينة يزول بزوالها.

٤ ـ سقوط طليطلة:

كان بنو ذي النون يحكمون شنتمرية، وبعد سقوط الخلافة الأموية بخمس سنوات أرسل أهل طليطلة إلىٰ عبد الرحمن بن ذي النون حاكم شنتمرية يعرضون عليه ولاية بلدهم، فأرسل ابنه إسماعيل إليهم الذي تولىٰ حكم تلك المدينة (٤٢٧ ـ ٤٣٥ هـ) ثم تسمَّىٰ بالظافر، وقد اعتمد في حكمها علىٰ أحد أعيانها المسمَّىٰ أبو بكر الحديدي الذي كانت له جهود طيبة في تثبيت أقدام بني ذي النون في طليطلة[٢].

وبعد وفاة الظافر تولىٰ ابنه يحيىٰ بن إسماعيل الأمر وقد لقب بالمأمون (٤٣٥ ـ ٤٦٧ هـ)، وفي عهده بدأت دولة بني ذي النون في طليطلة علاقاتها الخارجية

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٧٨ ـ ١٧٩.
(٢) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٣٨٣.

مع النصارىٰ، وذلك حينما هاجم ملك قشتالة فرديناند الأطراف الشمالية والشرقية لطليطلة في عام ٤٥٤ هـ، ومن أجل أن يكف عن غارته ذهب المأمون إليه، وقدم له الهدايا، وأعلن اعترافه بطاعته، كما تعهد له بأداء الإتاوة[١].

هكذا أعلن المأمون موالاته لملك قشتالة الذي حاول الاستفادة من هذا الخضوع في توسيع دائرة الخلاف بين المسلمين؛ إذ ساعدوا المأمون ضد صهره عبد الملك بن عبد العزيز صاحب بلنسية حيث تمكن المأمون من مداهمة بلنسية، مع القوات النصرانية، فهزمت جيشها وأسرت حاكمها في معركة (بطرنة)، وذلك في ذي الحجة من سنة (٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م)[٢].

وبعد وفاة فرديناند ملك قشتالة سنة (٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م)، وظهور الخلاف بين أولاده الثلاثة لم يحاول المأمون استغلال ذلك الضعف الذي أصاب القوىٰ النصرانية والتحرر من تبعيتها، بل إنه أبدىٰ تعاطفاً مع ألفونش بن فرديناند ـ ألفونسو السادس فيما بعد ـ حينما انتصر عليه أخوه شانجة، واغتصب ملكه حيث استقبل المأمون ألفونش فبقي عنده تسعة أشهر حتىٰ توفي شانجة سنة (٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢ م) فرجع ألفونش إلىٰ بلاده بعد أن زوده المأمون بالأموال، وفي مقابل ذلك وعده الملك النصراني بدوام العلاقات الحميمة بينهما، وأن يساعده ضد خصومه ملوك الطوائف[٣].

وبهذا العمل توفرت لألفونش الحماية، ثم أعطي الفرصة ليزيد الفتنة بين مسلمي الأندلس متذرعاً بحجة الوفاء لصديقه المأمون، فما أن عاد إلىٰ بلاده، وثبت أقدامه بالسلطة حتىٰ بدأ يؤجج نار الفتنة بين المأمون وابن عباد[٤]، وهذا

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٨٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٢ـ٢٨٦.
(٣، ٤) المرجع السابق، ص ٣٩٤.

بلا شك مما أفاد النصارىٰ، وأضعف المسلمين؛ حيث نشأت الحروب بينهم مما أضعفهم جميعاً.

هكذا نرىٰ كيف سعىٰ النصارىٰ لإضعاف المسلمين بكل الوسائل الممكنة معلنين في الظاهر أنهم إنما يقومون بتلك الأعمال وفاء لأصدقائهم، وقياماً بالواجب إزاءهم؛ بينما هم في الحقيقة يعملون لإضعاف المسلمين جميعاً ومن ثم اكتساح بلدانهم، وقد بدا هذا الأمر واضحاً بعد وفاة المأمون سنة ٤٦٧ هـ وتولي حفيده يحيىٰ الملقب بالقادر؛ حيث كثرت اعتداءات النصارىٰ ضد مملكة طليطلة، ومما ساعدهم علىٰ ذلك سياسته في إدارة بلاده فقد كانت سياسة خرقاء؛ إذ لم يستطع رد عادية المعتدي، كما لم يحسن إدارة الشؤون الداخلية لمملكته، فملَّ الناس منه ومن حكمه؛ حيث قامت فتنة في طليطلة بسبب تحزب أهلها ضده فلجأ القادر لألفونسو السادس ليعينه ضد رعيته الذين تبرموا منه ومن حكمه، لكن الملك النصراني خيب آماله حينما خاطبه قائلاً: «إن كنت تريد الدفاع عن أنحائك وجه إليّ مالاً، وإلا سلمتك لأعدائكم»[1].

وفي ظل تلك الظروف الصعبة والمعاناة النفسية القاسية التي كان يمر بها أهل طليطلة خاصتهم وعامتهم جمع القادر أهل المدينة رعيةً، وأعياناً، حاضرة، وبادية، وهددهم بجعلهم هم وأبنائهم رهينة عند الملك النصراني إذا لم يجمعوا له المال المطلوب لتقديمه لألفونسو، فلما رأىٰ أهل المدينة عزمه علىٰ ما صرّح به أعلنوا الثورة عليه عام ٤٧٢ هـ، فلم يستطع القادر مقاومتهم والقضاء علىٰ ثورتهم، ففر من المدينة ليلاً قاصداً حصن وبذة[2]، لكن صاحبه لم يمكّنه من

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨١.
(٢) وبذة: مدينة غربي كونكة، كانت من الحصون الشمالية الشرقية لمملكة طليطلة. (ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٣).

دخوله فلجأ إلى مدينة كونكة[١]، ومنها أرسل إلى ألفونسو يستصرخه ويطلب منه المساعدة لإعادته إلى حكم طليطلة[٢]. خشي الملك النصراني أن يفلت الأمر من يده، فبادر إلى نجدة القادر؛ إذ توجه إلى طليطلة التي استدعى أهلها المتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس ليتولى أمرهم بعد فرار القادر منها[٣].

وقد اتفق ألفونسو مع القادر على أن يعطيه كل أموال المدينة بعد استعادتها، كما حصل ألفونسو على حصون صورية وقورية، وحينما حاصروا المدينة فر منها ابن الأفطس حيث لم يجد من يعينه على مقاومة الحصار، فتمكن القادر من دخولها تحت حماية الجيش النصراني وذلك عام ٤٧٣ هـ[٤].

وبعد أن استقر ابن ذي النون في المدينة قام فجمع أموالاً عظيمة أضافها إلى أمواله الخاصة، وقدمها لألفونسو، لكنها لم تف بما اتفقا عليه فأخذ منه ألفونسو حصن قتالش رهناً، ثم عاد إلى بلاده محملاً بأموال المسلمين التي أخذها القادر ظلماً وغصباً[٥].

وقد ذكر ابن بسام أن القادر ابن ذي النون لما استعاد حكم طليطلة استخف بأهلها فضرب مدبرهم بمقبلهم، وولى آخرهم كبر أولهم، حتى طمع فقيرهم في

(١) كونكة، حصن من أمنع حصون الثغر الأدنى. (ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨١).
(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨١-٨٢.
(٣) يذكر ابن بسام أن دعوة أهل طليطلة لابن الأفطس لم تكن بإجماع من أهلها، وإنما كانت برغبة من أبي محمد يوسف بن القلاس البطليوسي أحد عفاريت الضلال، حيث دعا صاحبه عمر المتوكل ابن الأفطس، وقد حكمهم قرابة عشرة أشهر، وكان أضل من يد في رحم، وأذل من لحم على وضم. (الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٥٩).
(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٥٩، Angel Masia. p.120.
(٥) المصدر السابق، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٣.

غنيهم، وأصبح الرجل منهم يرتاع من ظله[١]، هذا إضافة إلىٰ استنزافه الأموال لإعطائها للملك النصراني؛ حيث أعطاه نظير الحصنين المرتهنين لديه مائة وخمسين ألف مثقال من الذهب، وخمسمائة من الطعام ضيافة له كل ليلة طوال مدة بقائه في هذا الحصن، وقد أدت هذه التصرفات من قبل القادر إلىٰ تبرم الناس منه ومن حكمه، حتىٰ حاولوا قتله في يوم عيد الأضحىٰ عام ٤٧٤ هـ حينما زحفوا إلىٰ قصره لكن الجنود صدوهم عنه، حينئذ حاولوا الاتصال بألفونسو حيث شكوا إليه القادر لكنه لم يسمع منهم، فيئس أهل المدينة من تغير الحال، فأخذ الكثير منهم بالهجرة إلىٰ سرقسطة وغيرها من المدن الأندلسية[٢].

وقد تأزم الوضع الاقتصادي والأمني في طليطلة بعد تلك الحملات النصرانية التي قام بها ألفونسو ضدها حيث «أخذ ينتسف مرافقها، ويقعد لجالية أهلها ثناياها ومضايقها يأسر ويقتل، ويحرق ويمثل، وسما السعر، وتفاقم الأمر، وانكسرت الموارد والمصادر، وبلغت القلوب الحناجر»[٣].

وكان ملوك الطوائف المجاورين لطليطلة يراقبون الوضع فيها طمعاً في امتلاكها لا رغبة في نصرتها ضد النصارىٰ حيث بدأ ابن عباد يشن هجماته عليها من الغرب، كما حاول ابن هود اقتحامها من الشرق، وهذا مما زاد الوضع فيها اضطراباً، فخاطب زعيمها ألفونسو طالباً منه المساعدة، لكن الملك النصراني اشترط عليه التخلي عنها وما يتبعها من حصون، فوافق له القادر علىٰ ذلك علىٰ أن يعينه علىٰ أخذ بلنسية عوضاً عنها[٤].

---

(١) الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٦٤.

(٢) المصدر السابق، ق ٤، ج ١، ص ١٦٤، ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ٧٧، ابن الكردبوس، الاكتفاء، ص ٨٣، Angel Masia. pp,120.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٦٤.

(٤) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٤، ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٦٦.

وفي ظل ذلك الوضع المضطرب في طليطلة، إضافة إلىٰ خذلان مسلمي الأندلس لأهلها أدرك الزعيم النصراني أنه أصبح سيد الموقف بلا منازع، وأن الوجود الإسلامي هناك وإن كثر عدده فهو كغثاء السيل؛ ولهذا أخذ في حصار المدينة، فلما ضيق عليها الخناق وفد عليه جمع من أعيانها، فلما مثلوا بين يديه قال لهم: إلىٰ متىٰ تتخادعون، وبأي شيء تطمعون؟ قالوا: بنا بغيّة، ولنا في فلان وفلان أمنية. وسمّوا له بعض ملوك الطوائف فصفق بيديه، وتهافت حتىٰ فحص برجليه ثم قال: أين رسل ابن عباد؟ فجيء بهم يرفلون في ثياب الخناعة، وينبثُون بألسنة السمع والطاعة . . . ولم يبق ملك من ملوك الطوائف إلا أحضر يومئذ رسله، وكانت حاله حال من كان قبله»(١)، وقد أدرك هذا الخذلان من قبل ملوك الطوائف ألفونسو السادس؛ إذ قال في إحدىٰ رسائله للمعتمد ابن عباد: «وقد أبصرتم ما نزل بطليطلة وأقطارها، وما صار بأهلها حين حصارها؛ فأسلمتم إخوانكم، وعطلتم بالدعة زمانكم»(٢).

هكذا تخاذل ملوك الطوائف عن نصرة إخوانهم لأهل طليطلة بل إن ابن بسام ذكر أن مسيرة العدو النصراني قد نفدت، ولم يكن بموسوعه مطاولة الحصار؛ حيث إن فصل الشتاء هجم عليه فمنعه من مسيرة تأتيه أو مدد يوافيه، «ولولا اهتبال ملوك الطوائف بإقامة مرافقه، وإصغاؤهم إلىٰ هدر شقاشقه؛ لطار شعاعاً، وذهب ضياعاً»(٣).

ولما رأىٰ أعيان طليطلة ذلك الموقف الذليل من قِبَل ملوك الطوائف، خرجوا من عنده وقد سُقط في أيديهم؛ إذ عادوا وقد تحقق لديهم سقوط مدينتهم، ومما

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٦٦.
(٢) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٣٩.
(٣) الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٦٥.

زاد الأمر سوءاً انقسام أهلها على أنفسهم بعد أن أضناهم الحصار الذي دام تسعة أشهر[١]، وبعد عودة أعيانها بثلاثة أيام من مقابلتهم لألفونسو دون اتفاق أو صلح معه، عرضت المدينة التسليم بالشروط الآتية:

١ ـ تأمين مسلمي طليطلة على أنفسهم، وأموالهم، وأولادهم، وألا يلحق ضرر بأملاكهم.

٢ ـ أن يسمح لمن أراد أن يخرج من المدينة بالخروج، ومن أراد البقاء فله الحق بالبقاء؛ على أن يدفع الجزية على عدد ما عنده من الأشخاص.

٣ ـ أن من عاد من أهل طليطلة إليها فإن له الحق في أن يعود إلى أملاكه دون معارضة.

٤ ـ يبقى المسجد الجامع في حوزة المسلمين[٢].

دخل ألفونسو السادس مدينة طليطلة في المحرم[٣] من عام (٤٧٨ هـ/ مايو ١٠٧٥ م)، وكان جيشه يتكون من جنسيات مختلفة؛ إذ ضم جنوداً من قشتالة، وليون وأرغونة، كما صحبه متطوعة من فرنسا وغيرها من البلاد الأوروبية،

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٦٦، عبد المجيد نعنعي، الإسلام في طليطلة، ص ٣٠٣، رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٣٧٩.

(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٥، ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١٤٦، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ١١٣.

(٣) تباينت الروايات التاريخية حول تحديد اليوم الذي سقطت فيه طليطلة؛ فابن علقمة فيما يرويه عنه المقري حدد ذلك اليوم بأنه اليوم العاشر من شهر محرم، (نفح الطيب، ج ٤، ص ٣٥٤)، ويروي المقري عن بعض المؤرخين أن ذلك كان في منتصف شهر المحرم، (ج ٤، ص ٣٥٢).
أما ابن خلكان فيرى أن ذلك كان في غرة شهر صفر من سنة ٤٧٨ هـ. (وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٢٧)، ويبدو أن التاريخ الأول هو الصحيح؛ وذلك لأنه رواية مؤرخ أندلسي معاصر، كما أنه يتوافق مع التاريخ الميلادي، (ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١٤٦).

وهذا التجمع النصراني يؤكد الطابع الصليبي في استرداد طليطلة(١).

لم يكتف ألفونسو بطليطلة، بل إنه بعد أن ثبت أقدامه فيها، أخذ يشنّ الغارات علىٰ كل نواحيها، كما سيطر علىٰ كل أعمال مملكة طليطلة من وادي الحجارة إلىٰ كليبرة حيث ضم ثمانين حصناً سوىٰ القرىٰ والمدن العامرة(٢).

أما ملوك الطوائف، فإن ذلك الحدث الجسيم الذي هز الأمة الإسلامية عامة ومسلمي الأندلس خاصة لم يأبهوا به؛ إذ لم تتحرك نخوتهم، كما لم تثر حميتهم الإسلامية، بل ازدادوا وهناً علىٰ وهنهم، كما تأصل في نفوسهم الانهزام النفسي والضعف المعنوي حيث تهافتوا علىٰ ألفونسو مهنئين ومباركين، ومعلنين أنهم في خدمته، وأنهم ليسوا إلا جباة لأمواله، وتابعين لسلطانه، بل بلغ بهم ضعفهم وانهزامهم النفسي، وشعورهم بالنقص أن ألفونسو حينما استولىٰ علىٰ الثغور الإسلامية أهدىٰ إليه كل ملك من ملوك الطوائف هدية جليلة، فرد علىٰ أحدهم وهو حسام الدولة يحيىٰ بن عبد الملك بن هذيل صاحب شنتمرية بقرد مقابل هديته، فكان يفخر بذلك القرد علىٰ ملوك الطوائف، ويَعُدُّ ذلك القرد رمزاً لرضا ألفونسو عنه(٣).

أما زعيم طليطلة القادر ابن ذي النون، فقد رحل عن حاضرته بعد احتلال النصارىٰ لها، وقد صور لنا تلك المأساة ابن بسام حيث قال: «وخرج ابن ذي النون خائباً مما تمناه، شرقاً بعقبىٰ ما جناه، والأرض تضج من مقامه، وتستأذن في انتقامه . . . واستقر بمحلة ألفونش مخفور الذمة، مذال الحرمة، ليس دونه باب، ولا دون حرمه ستر ولا حجاب، حدثني من رآه يومئذ بتلك الحال وبيده

(١) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٣٨٠.
(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٨.
(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٣١١.

اصطرلاب يرصد فيه أي وقت يرحل، وعلىٰ أي شيء يعول، وأي سبيل يتمثل، وقد أطاف به النصارىٰ والمسلمون، أولئك يضحكون من فعله، وهؤلاء يتعجبون من جهله»[١].

وبعد أن استقر ابن ذي النون بمحلة ألفونسو عدة أيام غادرها ومعه أهله وأمواله قاصداً بلنسية، وكان ألفونسو قد وعده بمساعدته في الوصول إليها، وفي طريقه نزل بحصن قونقة، ثم تمكن من دخول بلنسية[٢]، أما طليطلة فقد عين ألفونسو وزيره ششند الذي حاول التقرب إلىٰ المسلمين بإظهار اللين والتسامح معهم؛ حيث «هوّن عليهم الرزية، وسبب إليهم إعطاءه الدنية، مما أراهم من سهولة مراميه، وبسط فيهم من عدل أحكامه»[٣].

وحينما ثبت ألفونسو أقدامه في طليطلة قاعدة الثغر الأوسط وأهم معاقل مسلمي الأندلس، كشف عن سياسته ونياته إزاء المسلمين هناك، بل إنه أعلنها حرباً صليبية ضد الإسلام والمسلمين في تلك الديار، فقد حول مسجدها الجامع بعد شهرين من دخوله لها إلىٰ كنيسة[٤]، كما أعلن أنه لن يكتفي بهذا القدر، بل إنه سيواصل تلك الحرب حتىٰ يستولي علىٰ كل الأندلس، حيث قال ـ حينما أشار عليه بعض مستشاريه بلبس التاج في طليطلة ـ: «لا حتىٰ أطأ ذروة الملك، وآخذ قرطبتهم واسطة السلك، وكان أعد لمسجدها الجامع . . . ناقوساً تألق في إبداعه»[٥].

ويبدو أن ذلك الموقف السلبي الذي أظهره ملوك الطوائف إزاء إخوانهم

(١) الذخيرة، ق ٤، ص ١٦٧.
(٢) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص٣٨١.
(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٦٧.
(٤) المصدر السابق، ق ٤، ج ١، ص١٦٧، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ١١٤.
(٥) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤. ج ١، ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

مسلمي طليطلة حين حصارها كان سبباً في هوانهم عند ألفونسو، وبالتالي عدم اكتراثه بهم، وفي هذا يقول أحدهم وهو عبد الله بن بلقين: «وكنا رأينا كلب النصراني على الجزيرة، وأخذه طليطلة للضعف المتوالي عليها عاماً بعد عام، وكذلك من شأنه في أخذ البلاد؛ إذ كان مذهبه ألا ينازل معقلاً، ولا يفسد أجناده على مدينة لبعد مراميها، ومن فيها من مخالفي ملته، وإنما كان يأخذ منها الجزية عاماً بعد عام، ويعنف عليها بما شاء من أصناف التعدي إلى أن تضعف وتلقي بيده كما فعلت ـ يعني طليطلة»[١].

ومن طليطلة الجريحة أرسل ألفونسو رسالة إلى المعتمد ابن عباد يحذره فيها من مثل مصير طليطلة إن لم يسارع بتسليمه ما أراد من الحصون والمعاقل التي يسيطر عليها[٢]، ولم يخف ألفونسو ازدراءه لملوك الطوائف واحتقاره لهم، فقد ذكر ابن الكردبوس أن ألفونسو قال لرسول المعتمد ابن عباد: «كيف أترك قوماً مجانين، تسمَّى كل واحد منهم باسم خلفائهم، وملوكهم، وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً»[٣]، كما أنه حينما عسكر قبالة قصر المعتمد في إشبيلية ومكث ثلاثة أيام أرسل رسالة إلى المعتمد ساخراً منه، ومما جاء في تلك الرسالة: «كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب، واشتد علي الحر، فألقني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي، وأطرد بها الذباب عني».

وقد استفزت تلك العبارات المعتمد ابن عباد؛ ولهذا رد عليه؛ إذ كتب على ظهر رسالته: «قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك، وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود الملطية، في أيدي الجيوش المرابطية، تروح منك، لا تروح

---

(١) التبيان، ص ١٠١.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ١، ص ٥٢، وابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.
(٣) ابن الخطيب، الحلل الموشية، ص ٢٦.

عليك إن شاء الله» [١]، لكن ألفونسو لم يأبه بهذا التهديد فقد استمر في حملته حتىٰ وصل إلىٰ جزيرة طريف.

كان هذا عرضاً سريعاً لأحداث سقوط مدينة طليطلة قاعدة الثغر الأوسط، ومما لا شك فيه أن هذا السقوط كان ضربة قوية ضد مسلمي الأندلس عامة، وملوك الطوائف خاصة؛ حيث أدركوا أنهم أصبحوا جميعاً في خطر، وأن ألفونسو لم يعد يقبل منهم الإتاوة التي كان يرضىٰ بها سابقاً، بل أصبح يخطط لاجتياح ما تبقىٰ من المدن والثغور والقواعد الإسلامية هناك[٢]، ويبدو أن الضعف المعنوي الذي منوا به قد ضرب بجذوره في أعماق ملوك الطوائف؛ ولهذا لم يحاولوا إصلاح الحال والنهوض من ذلك الواقع السيئ بتهيئة الجيوش وإعداد القوة، بل إن محسنهم في هذا أخذ يسعىٰ للاستنجاد بمسلمي المغرب الذين كان يمثلهم آنذاك المرابطون.

وبعد هذا العرض لضعف الثغور الإسلامية في الأندلس، وعجزها عن مقاومة النصارى نخلص إلى الحقائق الآتية:

١ ـ أن ذلك الضعف الذي تمخض عنه ضعف ثغور الأندلس ثم سقوط العديد منها بيد النصارىٰ، لم يكن وليد يومه أو ليلته، بل إنه جاء نتيجة حتمية للضعف المعنوي الذي أصاب الناس عامة في تلك الديار، فأصبح ظاهرة ملموسة لا يمكن إنكارها أو الإقلال من شأنها، وفي هذا يقول ابن بسام نقلاً عن إحدىٰ الرسائل التي خوطب بها قادة الأندلس آنذاك: «ولما كَلُب العدو ـ قصمه الله ـ في ذلك التاريخ وأعضل داؤه، وجعل يطأ بلاد المسلمين آمناً لا يخاف، وآنساً لا يستوحش، مقدماً لا يركع، ومجترئاً لا يرتدع، ينزل ساحات القواعد

(١) ابن الخطيب، الحلل الموشية، ص ٢٦.
(٢) عبد الله بن بلقين، التبيان، ص ١٠١.

الرفيعة، والقلاع المنيعة، يعفي الآثار، ويستبيح الدمار، ويهتك مصون الأستار، ورميت لها الأنوف، واستعذبت معها الحتوف، وحميت منها النفوس الأبية، والعدو في كل ذلك ثلج الفؤاد، رابط الجأش، لا يرقب سنان دافع، ولا يبدو له وضح سيف مدافع؛ لأن أكثر ملوك هذا الإقليم كانوا يداخلون طوائف الروم، ويشتري كل واحد منهم عسكراً بجملة من المال يخرجه إلىٰ بلد كاشحة، ويسلطه علىٰ معانده ممن يجاوره من البلاد»[1].

إن هذا النص ليوضح لنا بجلاء أن المسلمين إنما أُوتوا من قبل أنفسهم، حيث تضافرت عدد من العوامل علىٰ إضعافهم جميعاً، كان من أهمها الضعف المعنوي، وهكذا أصبحوا غنيمة سهلة لعدوهم المتربص بهم.

٢ ـ أن من العوامل المباشرة والقوية لذلك الاجتياح النصراني تفرق مسلمي الأندلس أمام الخطر النصراني: حيث إن الراضي منهم كان ينوي التوسع علىٰ حساب إخوانه المسلمين؛ بينما كان الساخط يضمر الثأر والانتقام، بل إن علاقاتهم فيما بينهم لم تكن علىٰ بر أو تقوىٰ، بل كانت تحكمها وتحركها المصالح الذاتية مهما كانت الوسائل الموصلة لها أو النتائج المفضية إليها، وقد أدرك النصارىٰ هذه الأمور؛ ولهذا حاولوا استثمارها لصالحهم، وتوظيفها لخدمة مخططاتهم السياسية والحربية.

٣ ـ أن سقوط تلك الثغور والقواعد كان ضربات موجعة أيقظت بعض مفكري الأندلس وعلمائها؛ من ثم بدؤوا يدعون إلىٰ إصلاح الحال وتغيير الواقع، وقد سار في هذا الاتجاه كل من ابن عبد البر، والهوزني، وابن حزم، وأبو الوليد الباجي الذي سعىٰ إلىٰ جمع الأمة وتوحيدها ضد الخطر النصراني، ومما لا شك فيه أن هذه الجهود مع غيرها كانت هي السبب الرئيس في دخول المرابطين إلىٰ الأندلس؛ ومن ثم تغير حال المسلمين هناك.

---

(١) الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٢٥٤.

ثالثاً : الانهزام الفكري عند مسلمي الأندلس:

يدرك المتتبع لتاريخ المسلمين أن الأمة الإسلامية لها شخصيتها المستقلة في عبادتها، ونظمها، وعاداتها وتقاليدها، ومنهج تفكيرها، بل وفي كل شؤونها، وهذه النظم التي تتكون منها الشخصية الإسلامية تنطلق كلها من مصادر التشريع الإسلامي، وإن لم يكن ذلك؛ فهي لا تتعارض معها أو تتنافى مع ما جاء فيها.

وحينما دخل الإسلام بلاد الأندلس، وانتشرت تعاليمه وتشريعاته في تلك الديار انصهر أهله في بوتقته حيث طبقوا تشريعاته في كل شؤون حياتهم، وقد بدا هذا الأمر واضحاً خلال القرون الثلاثة الأولى للوجود الإسلامي هناك؛ حيث صار ذلك المجتمع من أقوى المجتمعات الإسلامية تمسكاً بدينه، واعتداداً بشخصيته الإسلامية، وبهذا قال المقري: «ذكر غير واحد من علماء المسلمين ـ منهم ابن حزم ـ أن دولة بني أمية بالأندلس كانت أنبل دول الإسلام، وأنكاها في العدو، وقد بلغت من العز والنصر ما لا مزيد عليه»[1].

وبعد سقوط الدولة الأموية بالأندلس انتاب المسلمين الضعف في كل شؤون حياتهم ـ سنة الله في خلقه ـ، وكان الانهزام الفكري من الصور الواضحة لآثار الضعف المعنوي الذي منوا به آنذاك، وقد كان لهذا الانهزام أسباب وعوامل أدت إليه، كما كان له مظاهر وصور بدت واضحة في مجتمع المسلمين هناك؛ حيث أدركها كل من قرأ في التراث الفكري لأولئك القوم، فضلاً عمن عايشها أو اكتوى بنارها.

أما الأسباب والعوامل التي أدت إلى ذلك الانهزام فمن أهمها ما يأتي:

١ ـ ما حل بالمسلمين هناك من ضعف سياسي وعسكري جعلهم في مؤخرة

(١) نفح الطيب، ج ١، ص ٣٢٧.

القوىٰ السياسية والعسكرية في شبه جزيرة أيبيريا؛ إذ لم يعد لهم وزن في موازين القوىٰ، وقد تمخض عن ذلك خلل في تعامل المسلمين عامتهم وخاصتهم مع القوىٰ السياسية والعسكرية التي أصبحت أقوىٰ منهم، ويهددهم خطرها في كل وقت وحين.

ومن أجل تفادي هذا الخطر فقد ضعف المسلمون في قضية البراء من النصارىٰ[١]؛ حيث ظهرت موالاتهم واضحة، بل ربما تسابق كثير من المسلمين من أجل كسب ود القوىٰ النصرانيــة في تقديم الإتــاوات والتنازلات لهــم، وهذا بلا شك مما أزال كثيراً من الحواجز النفسية والسياسية بين الطرفين؛ ومن ثم لم يجد بعض المسلمين غضاضة في إظهار تأثرهم الفكري بل وربما إعجابهم بالنصارىٰ، ومن هذا المنطلق حضر المنذر بن يحيىٰ صاحب سرقسطة احتفالات النصارىٰ، كما جرىٰ بحضرته عقد مصاهرة بينهم، وقد فسر ابن عذارىٰ هذا التنازل من قبل المنذر بقوله: «وقد قيل إن رأي المنذر كان في ذلك أحصف ممن قدح فيه لنظره في صلاح وقته، وعلمه بانصداع عصا أهل كلمته؛ فآثر من الموادعة ما ستر به العورة وسدها بيسير الكلفة، وانخدع به عظيما الجلالقة ريمنده وشانجة المحدِّثان أنفسهما يومئذ بمناهضة أهل الأندلس، فألهاهما عن الحرب وحبب إليهما الدعة»[٢]، ولكن هذا التعليل والتفسير من قبل ابن عذارىٰ غير مقبول؛ إذ إن الأمر جلل، والقيمة المقدمة جزلة، كما أن من قدمت له غير مأمون العاقبة، وقد دلت الأحداث بعد ذلك علىٰ خلاف ما ارتآه ابن عذارىٰ.

٢ ـ ومما ساعد علىٰ ذلك الأمر مصاهرة المسلمين للنصارىٰ، ومخالطتهم لهم في أيام السلم والحرب؛ فقد كان عدد غير قليل من النصارىٰ يقيمون في كبريات

---

(١) انظر تفصيلات ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب.
(٢) البيان المغرب، ج٣، ص ١١٧.

المدن الإسلامية بالأندلس[١]؛ حيث عاشوا بين ظهراني المسلمين فخالطوهم في شوارعهم ومنتدياتهم وتجارتهم بل في وظائف حكومتهم وبيوتهم، وهذا بلا شك كان له أثره السلبي على المسلمين هناك[٢]؛ حيث أدى ذلك الاختلاط المستمر إلى انتشار عادات النصارى وتقاليدهم بين أفراد المجتمع الإسلامي على اختلاف شرائحه، كما أدى إلى كسر الحاجز النفسي والمعنوي بين المسلمين والنصارى؛ مما سهل قبول بعض أفكار النصارى، وعدم تميز المسلمين بشخصيتهم الإسلامية المستقلة في بعض المواقع.

٣ ـ ومن العوامل الرئيسة ما مني به المسلمون من هزائم عسكرية قوية في ذلك العصر، مثل بربشتر، وقلمرية، وبلنسية، وطليطلة، وغيرها. وقد تمخض عن ذلك أسر أعداد كبيرة من المسلمين؛ حيث بقي أولئك الأسرى عند النصارى مدة ليست بالقليلة، فلما فك أسرهم عادوا إلى بلادهم، وقد تأثر بعضهم بما رأى وعايش من عادات نصرانية بل ربما تجاوز بعضهم التأثر إلى الإعجاب بما رأى؛ ومن هنا ظهر الانهزام الفكري لديهم[٣]. ويتأكد هذا الأمر إذا تذكرنا أن الأسرى المسلمين الذين وقعوا في أيدي النصارى كان غالبهم من العامة الذين لا يملكون ثقافة كافية؛ ومن ثم يكونون عرضة للتأثر بالفكر النصراني أكثر من غيرهم.

ويضاف إلى ما سبق أن من طال مكثه بين ظهراني النصارى فإنه لا يؤمن عليه التأثر ببعض ما عندهم، كما هو الحال بالنسبة للنصارى الذي يعيشون بين

---

(١) لطفي عبد البديع، الإسلام في إسبانيا، ص ٢٧، ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ص ٧٩.

(٢) أبو بكر ابن العربي، العواصم من القواصم، ص ٦١، الطرطوشي، سراج الملوك، ج ٢، ص ٥٨٩.

(٣) ابن رشد، فتاوى ابن رشد، ج ٢، ص ١٠٥٨ ـ ١٠٥٩.

ظهراني المسلمين، يقول ابن تيمية: «وقد رأينا اليهود والنصارىٰ الذين عاشروا المسلمين؛ هم أقل كفراً من غيرهم، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارىٰ؛ هم أقل إيماناً من غيرهم ممن جرد الإسلام»[١].

كانت هذه أهم الأسباب الرئيسة لذلك الانهزام الفكري في عصر ملوك الطوائف، ومن الممكن أن يضاف إليها بعض العوامل والأسباب العامة التي وجدت في ذلك العصر، وفي العصور السابقة واللاحقة، حيث يرىٰ بعض الكتاب والمؤرخين أنها قاعدة مطردة، ومن أهمها:

١ ـ ما ذكره ابن خلدون من أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونُظُمه وسائر أحواله وعوائده، وقد عزا هذا الأمر لأسباب معنوية ونفسية، منها نظرة الكمال التي ينظر بها المغلوب للغالب، أو لما ينتحله الغالب من عوائد ومذاهب هي في نظر المغلوب سبب قوته وغلبته[٢]. ولو حاولنا رصد واقع المسلمين في عصر ملوك الطوائف حسب هذه القاعدة لتبين لنا أن بعضهم قد تأصل في نفوسهم هذا الأمر، وقد بدا هذا واضحاً في كثير من شؤون حياتهم ـ كما سنرىٰ إن شاء الله ـ وهذا بلا شك لم ينشأ من فراغ، بل جاء نتيجة مباشرة للإعجاب بالنصارىٰ الغالبين. كما ذكر ابن خلدون أن هذا الأمر واقع في الأمة الإسلامية وغيرها، ثم أكد أن ذلك وجد في بلاد الأندلس في عهده حيث قال: «حتىٰ إنه إذا كانت أمة تجاور أخرىٰ، ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة؛ فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم، وأحوالهم، حتىٰ في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتىٰ لقد يستشعر من

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ج ١، ص ٤٨٨.
(٢) ابن خلدون، العبر، ج ١، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، والأمر لله»[١].

٢ ـ تأثير الزوجات ذوات الأصل النصراني؛ ذلك أن المسلمين من عرب وبربر حينما دخلوا البلاد الأندلسية ارتبطوا بعلاقات مصاهرة مع أهلها، كما عاشوا معهم متجاورين يعيشون في ظل الحكم الإسلامي بكل أمن وطمأنينة ما داموا يؤدون الجزية[٢]، ويرىٰ ابن بشكوال أن تلك الزيجات كانت عاملاً مهماً في هذا المجال، حيث قال: «ذكر أن من أقوىٰ أسباب تأثر المسلمين بالنصارىٰ مطاوعة الرجال للنساء في تقليد النصارىٰ، وانقيادهم لهن في ذلك عاماً بعد عام، حتىٰ رسخت في صدورهم وتصورت في عقولهم، وتاقت نفوسهم لبعض العادات والتقاليد النصرانية[٣].

٣ ـ تولي بعض النصارىٰ وظائف مهمة في الدولة الإسلامية، وهذا بلا شك كان له أسوأ الأثر علىٰ حياة الناس، كما كان سبباً قوياً في كسر الحاجز النفسي بين المسلمين والنصارىٰ؛ ولهذا حاول بعض الشعراء التنبيه علىٰ هذا الأمر، وبيان ما يتمخض عنه من آثار سلبية، ومن ذلك ما قاله الشاعر أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود التجيبي الألبيري (ت ٤٥٦ هـ)؛ إذ نظم قصيدة وجهها إلىٰ بربر صنهاجة يحرضهم فيها علىٰ عزل يوسف بن صمويل بن النغريلة الوزير اليهودي لملك غرناطة باديس بن حبوس، وقد جاء في مطلعها:

ألا قُل لصنهاجة أجمعين ... بدور الندى وأُسد العرينْ
لقد زلَّ سيدكم زلةً ... تقر بها أعين الشامتينْ
تخير كاتبه كافراً ... ولو شاء كان من المسلمينْ
فعزَّ اليهودية وانتخوا ... وتاهوا وكانوا من الأرذلينْ

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج ١، ص ٢٥٩.
(٢) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٤٢٣.
(٣) العزفي، الدر المنظم، ص ٢٨. (نقلاً عن ابن بشكوال).

ويذكر ابن الخطيب أن هذه القصيدة قد حركت نخوة صنهاجة ولاسيما أن ذلك الوزير قد مكن أهل ملته وأقصىٰ كثيراً من المسلمين عن الوظائف؛ فثاروا عليه وقتلوه كما قتلوا عدداً كبيراً من اليهود الموجودين في غرناطة، وذلك سنة ٤٥٩ هـ[١]، فلما مات هذا الوزير اليهودي اسْتَوْزَر باديس بن حبوس بعده وزيراً نصرانياً، فقال أبو القاسم خلف بن فرج السميسر أبيات شعر يستنكر هذا العمل، ومما جاء فيها:

فزماناً تهودا وزماناً تنصرا
وسيصبو إلى المجوس إن الشيخ عمّرا[٢]

أما صور الانهزام الفكري فقد بدت واضحة عند مسلمي الأندلس، ولو حاولنا استقصاءها لطال بنا المقام، وحسبنا هنا أن نذكر بعضاً من صورها ومظاهرها؛ فمن ذلك ما ذكره ابن بسام من أن مسلمي الأندلس بعد كارثة طليطلة هانت عليهم الرزية، كما لم يبالوا في إعطاء الدنية، حتىٰ تنصَّر بعضهم سواء من العامة أو من ضعاف النفوس من الفقهاء[٣]، وممن ظهر تنصُّره الفقيه أبو القاسم ابن الخياط حيث يذكر ابن سعيد نقلاً عن المسهب أن هذا الفقيه أقام خمسين سنة علىٰ العفاف والخير لا تعرف له زلة، فلما استولىٰ النصارىٰ علىٰ طليطلة حلق وسط رأسه، وشد الزنَّار[٤]، فقال له أحد أصحابه: أين عقلك؟ فقال: ما فعلت هذا إلا بعد ما كمل عقلي، وقال شعراً، منه:

تلون كالحرباء حين تلون وأبصر دنياه بملء جفونه
وكَلٌّ إلى الرحمن يومي بوجهه ويذكره في جهره ويقينه

(١، ٢) الإحاطة، ج ١، ص ٤٤، وانظر أيضاً: الطاهر أحمد، دراسات أندلسية، ص ٦٩، ٧٥، انخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ١٠٧-١٠٨.
(٣) الذخيرة، ق ٤، ج ١ ص ١٣١.
(٤) الزنَّار: حزام يشده النصارىٰ علىٰ أوساطهم.

ولـو أن دينـاً كـان نـقـيـاً لخـالـقـي لما كـنـت يـومـاً داخـلاً في فـنـونـه[١]

ويبدو أن هذا التحول الخطير عند بعض مسلمي الأندلس، كانت له ظروفه النفسية التي عشعش فيها الضعف والانهزام، ثم ما لبث أن ظهر واضحاً للعيان؛ إذ لم يأبه أصحابه بإظهار انحرافهم على الملأ، حيث يذكر ابن عذارى أن كثيراً من مسلمي الأندلس أعجبوا بالنصارى وتوقعوا منهم الخلاص من مأزقهم الصعب؛ ولهذا فإنهم كانوا يحزنون لفراقهم[٢].

كما يذكر كل من ابن بسام[٣]، والمقري[٤] أن الشاعر أبا عامر أحمد بن شهيد[٥] بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة، وقد فرشت بأغصان آس، وقَرْعُ النواقيس يُهيِّج سمعه، فقال واصفاً انطباعاته عن تلك الكنيسة:

ولـرُبَّ جـام قـد أدرت بـديـرة خمر الصبا مُزجت بصفو خُموره
في فتـيـة جعلوا الزقَاقَ تكاءهم متصاغرين تخشعاً لكبيره
وآلـى عـلـيَّ بـطـرفِـه وبـكـفِّـه فأمال من رأسي لعب كبيره

(١) المغرب، ج ٢، ص ٢٢.
(٢) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٤٢٣.
(٣) العزمي، الدر المنظم، ص ٢٨. (نقلاً عن ابن بشكوال).
(٤) الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١١.
(٥) هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن شهيد قال عنه ابن بسام: إنه شيخ الحضرة، وفتاها، ونادرة الفلك الدوار، وأعجوبة الليل والنهار، وكان من شعراء الأندلس المشهورين، ويعد من أعلم أهل الأندلس، وله مؤلفات منها: (كشف الدك وإيضاح الشك) أو (التوابع والزوابع)، توفي سنة ٤٢٦ هـ.
وعلى الرغم من أن ما قاله ابن شهيد حول النصرانية كان بسبب ولعه بعشيقته النصرانية نويرة أو جميلة كما يسميها بعضهم، إلا أن هذا لا يعفيه، فمصلحة الدين فوق كل مصلحة.
ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ١٩١، ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٧٨ - ٨٠، الحميدي، جذوة المقتبس، ص ١٢٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١١٦ - ١١٧، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٣، ص ٢٢٠.

وترنَّم الناقوسُ عند صلاتهم ... ففتحتُ من عيني لرَجْع هديره
يُهدي إلينا الراحَ كلّ معصفرٍ ... كالخشف خفره التماح خفيره

وعلىٰ الرغم من هذا الضلال المبين الذي وقع فيه ابن شهيد فإنه قد أدرك بعض مظاهر الانهزام الفكري، وذلك حينما نادىٰ بضرورة العودة إلىٰ اللغة العربية والتحدث بها؛ لمَّا رأىٰ أن كثيراً من مسلمي الأندلس قد تساهلوا فيها، وأخذوا يتكلمون بلغة غير الفصحىٰ؛ حيث أصبح لسانهم «ليس لسيبويه فيه عمل، ولا للفراهيدي إليه طريق، ولا للبيان عليه سمة؛ إنما لكنة أعجمية يؤدون بها المعاني تأدية المجوس والنبط»[1].

كما أن الشاعر محمد بن أحمد بن الحداد لم يخجل من إظهار إعجابه بالنصارىٰ وهم يؤدون طقوسهم الدينية حيث قال:

وقد تلوا صحف أناجيلهم ... بحسن ألحان وأصوات[2]

كما لم يستح الشاعر من التردد علىٰ الكنيسة من أجل عشيقته النصرانية، وفي هذا يقول:

أمولعتي بصُلبانٍ ... ورُهبانٍ ونساك
ولم آت الكنيسةَ عن ... هوى فيهنَّ لولاكِ[3]

ولقد كان لهذا الانهزام الفكري أمام النصارىٰ آثاره السلبية علىٰ المسلمين، والدين الإسلامي هناك، حيث يذكر ابن عذارىٰ أنه في مستهل ذلك العصر «بلغ من استخفاف أهل قرطبة بالإسلام أن رجلاً نصرانياً وقف في أعظم شوارع قرطبة فقال. . . ـ ونال من النبي ﷺ وشرفه وكرمه ـ فلم يكلمه أحد منهم بكلمة،

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٢٦٨ـ٢٦٩.
(٢) المصدر السابق، ق ١، ج ٢، ص ٧٠٥.
(٣) المصدر السابق، ص ٧٠٧.

فقال رجل من المسلمين غيرة للنبي ﷺ: ألا تنكرون ما تسمعون؟ أما أنتم مسلمون؟ فقال له جماعة من أهل قرطبة: امض لشغلك. وكان الإفرنج إذا سمعوا الأذان للصلاة يقولون قولاً لا يُذكر فلا يعترض عليهم أحد بشيء»[١].

كما ذكر ابن حزم أن إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة ـ مع علوّ منزلته العلمية، ولا سيما في علم الكلام ـ ألف كتاباً في تفضيل التثليث على التوحيد؛ وذلك من أجل إرضاء فتى نصراني كان قد أولع به[٢]، وقد علّق ابن حزم على هذا العمل المشين مبيناً أنه كان من أسباب ضعف الوازع الديني الحرص على الوصول إلى الملذات والشهوات، حيث قال: «فيا غوثاه! عياذك يا رب! من تولج الشيطان ووقوع الخذلان، وقد يعظم البلاء، وتكلب الشهوة ويهون القبيح، ويرق الدين حتى يرضى الإنسان في جنب وصوله إلى مراده بالقبائح والفضائح»[٣].

ويبدو أن هذا الانهزام الفكري إلى جانب الانهزام العسكري الذي مني به مسلمو الأندلس في عصر ملوك الطوائف كان من الأسباب القوية التي جرأت النصارى على دعوة المسلمين إلى الديانة النصرانية، ولم يكن هذا الأمر خاصاً بالعامة من الناس بل تعداهم إلى بعض قادة المسلمين، ومما يذكر في هذا تلك الدعوة التي تلقاها المقتدر بالله ابن هود صاحب سرقسطة والتي وهبها إليه راهب فرنسي يدعى القديس هيو (St. Hugh) كبير رهبان دير (CLUNV)؛ حيث بعث برسالة لهذا الغرض إلى المقتدر بالله ابن هود مع راهبَيْن فرنسيَّيْن، كما طلب منهما أن يشرحا لابن هود الديانة النصرانية وما فيها من مزايا.

ويبدو أن هذه الرسالة وما سبقها من رسائل مماثلة لم تخرج من فراغ، وإنما دفع النصارى إلى إرسالها لزعيم المسلمين في منطقة الثغر الأعلى طمعهم في

(١) البيان المغرب، ج٣، ص ٩٨.
(٢) طوق الحمامة، ص ١٣٠.
(٣) المصدر السابق، ص ١٣٠.

تنصره؛ لما أبداه من ضعف أمامهم وموالاة ظاهرة لهم، أثناء خلافه مع أخيه، كما توحي بذلك بعض عبارات تلك الرسالة التي جاء فيها:

«إلىٰ الصديق الحبيب الذي نؤمله أن يكون خليلاً مدانياً المقتدر بالله.

إن القادر علىٰ الكل الذي اصطفىٰ أولياءه قبل خلق العالم، ولم يسبق في علمه هلاكهم، قد أنار قلبك، وأشعره للإيمان بالإله المسلم لك وهو الرحمن الرحيم الغفور الذي يهديك لمعرفته. . . ولن يسعنا أن نتراخىٰ عن الاجتهاد في تتميم هذه المصلحة ـ بجميل معونته ـ لتشترك معنا في ملكوته إن آثرت ذلك؛ ولهذا الأمر أشخصنا إليك من إخواننا من يورد عليك كلاماً إلهياً، ويشرحون لديك حقيقة دين النصارىٰ، ويقررون عندك معرفة المسيح سيدنا الذي لا ينبغي لنا الإيمان بأحد سواه، ولا نرتجي النجاة إلا به. . .

فاعتبر ـ أيها الملك الشريف ـ ولا تؤثر علىٰ نجاة نفسك يوم الحكم والجزاء، . . . ومتىٰ قبلت قولنا، وعملت برأينا، وتقررت عندنا إجابتك إلىٰ ما ندعوك إليه من قبول كلمة النجاة الدائمة التي نعرضها عليك لم نتوقف عن الالتحاق بك»[(١)].

هذه نماذج مما جاء في تلك الرسالة، وهي دعوة صريحة إلىٰ الدخول في الديانة النصرانية، وترك الدين الإسلامي؛ فماذا كان موقف ابن هود منها؟ هل استجاب لها فانخلع من الدين الإسلامي ليدخل في الديانة النصرانية؟ وللإجابة عن هذا التساؤل يقال: إنه علىٰ الرغم من ضعف المقتدر بالله ابن هود أمام النصارىٰ فإن موقفه من تلك الرسالة كان جيداً وقوياً، فقد استقبل الرسولين النصرانيين وسمع منهما ما يحملانه من مغالطات، وأقاويل باطلة حول الديانتين الإسلامية والنصرانية، كما تسلم منهما الرسالة، ثم عهد إلىٰ القاضي أبي الوليد

---

(١) انظر رسالة راهب فرنسا إلىٰ المسلمين، وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها (دراسة وتحقيق الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي)، ص ٤٩ ـ ٥٣.

الباجي[١] الذي كان يعيش في سرقسطة في تلك الفترة بالرد عليها .

وقد جاء رد أبي الوليد الباجي على الرسالة مطولاً حيث بيَّن في البداية أن مبعث الاهتمام برسالة الراهب ورسله، إنما كان لما له من مكانة عند أهل ملته[٢]، ثم بعد ذلك تتبع كل الأفكار الواردة في الرسالة النصرانية بالإيضاح أو التفنيد، والرد عليها من منطلق شرعي أو عقلي، وفي ختام الرسالة دعاه إلى الإسلام حيث خاطبه بقوله : «فإن قبلت نصحي وسمعت موعظتي أخرجناك ـ بعون الله ـ من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن حيرة الشك إلى تيقن الحق . . . وإن أَبَيْت إلا الاستكبار والعتو، والإصرار والغلو والإلحاد . . . فإنك لن تعجز ربك، ولن تنجو من ذنبك»[٣] .

هكذا كان موقف ابن هود من تلك الدعوة النصرانية، ونستوحي من خلال قراءة رسالة ابن هود أن تلك الدعوة من قبل الراهب الفرنسي لم تكن الرسالة الأولى والوحيدة، بل سبقتها رسائل أخرى؛ حيث جاء في رسالته ما يشير إلى ذلك مثل قوله : «وقد كان ورد علينا قبل هذا كتابك . . . ولما تكررت علينا رسائلك ورسلك تعينت علينا مفاوضتك فيما رضينا من مسألتك»[٤] .

---

(١) أبو الوليد الباجي هو سليمان بن خلف بن سعد التجيبي الأندلسي الباجي نسبة إلى مدينة باجة الأندلسية، ولد سنة ٤٠٣ هـ، بمدينة بطليوس . ويعد الباجي من علماء الأندلس المشهورين؛ فهو فقيه، وأديب، وشاعر، وقد قيل عنه بأنه فقيه الأندلس وإمامها، رحل في أول عمره إلى بلاد المشرق لطلب العلم، فلما عاد إلى الأندلس سنة ٤٤٠ هـ وجد المسلمين هناك قد ابتلوا بالفُرقة بعد سقوط الدولة الأموية؛ فأخذ يدعو المسلمين إلى الوحدة ولمِّ الشمل، حيث تنقل بين العديد من المدن والولايات الأندلسية لهذا الغرض، حتى توفي ـ رحمه الله ـ سنة ٤٧٤ هـ .
(ابن خاقان : قلائد العقيان، ج ٢، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٦٣٥، العماد الأصفهاني، خريدة القصر، ج ٢، ص ٤٩٩، ابن بشكوال، الصلة، القسم الأول، ص ٢٠١) .

(٢) رسالة راهب فرنسا، تحقيق محمد الشرقاوي، ص ٦٣ .

(٣) المصدر السابق، ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٤) المصدر السابق، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

ولكن مع كل هذه المحاولات، فقد خيب ابن هود ظن النصارىٰ فيه علىٰ الرغم من التنازلات الكبيرة التي قدمها لهم قبل ذلك في المجالات السياسية، والعسكرية والمادية، ولا أستبعد أن يكون لأبي الوليد الباجي أثر قوي في توجيه المقتدر لتلك الوجهة السليمة الموفقة في الرد علىٰ تلك الدعوة النصرانية المغرضة.

وإزاء هذا الانهزام الفكري لم يقف علماء المسلمين مكتوفي الأيدي، بل حاولوا التصدي لذلك الضعف ومحاربة تلك الظاهرة التي أخذت تغزو المجتمع الإسلامي؛ وذلك ببيان ما يحمله الفكر النصراني من مغالطات وأوهام لا يقرها الإسلام، ولا يقبل من المسلمين السكوت عليها، فضلاً عن قبولها أو إظهار الإعجاب بها، وكان ممن برز في هذا الميدان أبو محمد بن حزم (٣٨٤ـ٤٥٦ هـ) فقد ألف كتابه المشهور (الفصل في الملل والأهواء والنحل)؛ حيث يعد هذا الكتاب تاريخاً نقدياً تحليلياً للأديان والفرق والمذاهب؛ إذ قام هذا المفكر بخوض معركة فكرية مع اليهود والنصارىٰ وغيرهم من أصحاب الملل، ناقش فيها أهم معتقداتهم، كما بيَّن ما تحمله من انحرافات ومغالطات، وذلك بأسلوب علمي فريد اعتمد فيه علىٰ العقل والنقل، ومما ساعده في ذلك معرفته باللغة اللاتينية حيث تعمق في قراءة الإنجيل والتوراة فأدرك ما فيهما من تحريف؛ وهذا مما مكنه من تفنيد ومناقشة لأصول تينك الديانتين[1]، وبالإضافة إلىٰ ذلك فقد رد علىٰ ابن النغريلة اليهودي، كما ألَّف قصيدة طويلة في الرد علىٰ نقفور[2] ملك الروم.

---

(١) انخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٢٢٢ـ٢٢٣، رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٤٤٨.

(٢) كان (نقفور فوكاس) إمبراطور الروم (٣٥٢ـ٣٦٠ هـ/ ٣٦٣ـ٩٦٩ م) شديد الحقد والكراهية للدين الإسلامي، وكان يقيم في بلاطه أحد الأدباء من المسلمين فارتد عن الإسلام، فأشار عليه نقفور أن ينظم قصيدة للنيل من الإسلام والخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤ـ٣٦٣ هـ/ ٩٤٦ـ٩٧٤ م). (السبكي، طبقات الشافعية، ج٣، ص ٢١٤ـ٢١٥، عمرو فروخ، ابن حزم الكبير، ص ٨٦). عبد الحليم عويس، ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي، ص ١١٩.

رابعاً : تدهور الحياة العامة عند مسلمي الأندلس:

وبالإضافة إلىٰ ما سبق فقد كان من إفرازات الضعف المعنوي لمسلمي الأندلس في عصر ملوك الطوائف تدهور الحياة العامة عند أولئك القوم حيث شاع الفقر، وانتشر الظلم، فضلاً عن انعدام الأمن وخوف الناس علىٰ أعراضهم وأموالهم بسبب تلك الفوضىٰ السياسية التي ضربت أطنابها في كل تلك البلاد، وقد أحسّ مفكرو الأندلس وعقلاؤها بتلك الظاهرة؛ حيث وصفوها بعبارة دقيقة تنم عن شدة معاناتهم منها، وحرصهم علىٰ اجتيازها، والخلاص من آثارها، وكان ممن تحدث عنها ابن حزم؛ حيث ذكر أن كثيراً من الظواهر السياسية والاجتماعية التي حلت بمسلمي الأندلسي في ذلك العصر هي من الظواهر الغريبة والفريدة التي يندر حدوثها في تاريخ البشرية[١]، وقد وافقه علىٰ ذلك تليمذه الحميدي[٢]، أما ابن حيان فقد ذكر أن ذلك العصر قد سفَّه أخلاق الناس، كما خبَّث الأعراق، واحتوىٰ علىٰ الناس الجهل، ودنو الهمم[٣]. كما سمَّىٰ ذلك العصر بـ(عصر الفتنة المبيرة)[٤]، وعلىٰ الرغم من قساوة هذه الأحكام التي أطلقها ابن حيان علىٰ عصر ملوك الطوائف، فقد ذكر ابن بسام أن الناس بقرطبة أعجبوا بهذا الطرح حيث ذكر أنه «كان عندهم ـ يعني ابن حيان ـ بقرطبة خاتمة المتكلمين... علىٰ ما تراه: ركب من إثم، واحتقب من ظلم، وتناول من عرض، وأطبق من سماء علىٰ أرض، عجباً بافتنانه، وتعجباً من بيانه»[٥].

---

(١) ابن حزم، نقط العروس، ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) جذوة المقتبس، ص ٢٨.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٨، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٥٥.

(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٣٨٨. (نقلاً عن ابن حيان).

(٥) الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٥٧٤.

أما المقري فقد ذكر أن الحياة العامة في ذلك العصر «قد نشأ بينها من المفاسد ما أعوز دفعه، وتعدد وتره وشفعه، واستحكم ضرره حتىٰ لم يمكن دفعه»[١]، ويعتبر ما تركه لنا ابن بسام من وصف للحياة العامة، من أدق وأشمل ما خلفه لنا المؤرخون حيث قال: «قال أبو الحسن ابن بسام: ولما أدارت تلك الفتنة رحاها، علىٰ حاضرة قرطبة وما والاها ـ إذ كانت علىٰ ما قدمنا ذكره منتهىٰ الغاية، ومركز الراية ـ فقلصت أذيالها، وانتسفت جبالها، واشتفت الماء من عودها، وألوت بمعظم طارفها وتليدها، شذ قوم من أهلها علىٰ حال لو رآها ابن جبير لقال بالتقية، وبين يدي قتال لو أحاط ببني ذبيان ليئسوا من البقية، بأذماء أنفس قد نازعهم الموت أرماقها، وبقايا أحوال قد هتكت النوائب أستارها وأوراقها، فأصبحوا طرائد سيوف، وجلاء حتوف، قد خلعهم لين العيش علىٰ خشنه، وأسلمتهم غفلات الزمان إلىٰ محنه، يلوذون بآفاق هذه الجزيرة المنكوبة لواذ الماء بأقطار الزجاجة المصبوبة، فكانوا كما وصف ذلك الملك الضليل[٢] حيث يقول:

فريقان منهم جازعٌ بطن نخلة　　　وآخر منهم قاطع نجد كبكبِ»[٣]

كما ذكر ابن عذارىٰ أنه علىٰ الرغم من شدة معاناة الناس بسبب ما حل بهم من مجاعات وأزمات اقتصادية «فشرب الخمر ظاهر، والزنا مباح، واللواط غير مستور، ولا ترىٰ إلا مجاهراً بمعصية»[٤].

هكذا كان واقع الحياة بشكل عام في المجتمع الإسلامي بالأندلس في عصر ملوك الطوائف، فقد تلاشت كثيرمن القيم الحضارية التي كانت تسيطر علىٰ ذلك

---

(١) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ص ٦٠.
(٢) المقصود به امرئ القيس.
(٣) الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ٩ ـ ١٠.
(٤) البيان المغرب، ج ٣، ص ١٠٦.

المجتمع، حيث انعدم الوازع الديني، كما أن الوازع السلطاني أصبح تأثيره ضعيفاً بل يكاد يكون منعدماً عند كثير من الناس، وهذا بلا شك مما جعلهم يعيشون في فوضىٰ عمت شؤون حياتهم جميعها؛ إذ أمسىٰ الناس في مثل عصر الجاهلية كما يقول ابن عذارىٰ[١]، وقد بدت آثار هذه الفوضىٰ واضحة في كثير من جوانب حياة الناس، ولعل من أهمها:

* **ضعف الحياة الاقتصادية.**

* **تردي الحالة الأمنية.**

* **انتشار القلق النفسي بين الناس.**

أما الحياة الاقتصادية: فقد تأثرت بتلك الظروف السياسية والحربية تأثراً كبيراً؛ إذ إنه لا يختلف اثنان في أن الاستقرار واستتباب الأمن يُمكّن الناس من مزاولة تجاراتهم والعمل في مصانعهم ومزارعهم، وغيرها من المجالات الاقتصادية دونما خوف أو قلق، لكن هذا الأمر ينعدم في حالات الفزع والتقلبات السياسية والحروب المتواصلة التي تشبه معارك قطاع الطرق[٢]، وقد أدىٰ ذلك الوضع في عصر ملوك الطوائف إلىٰ عدم الاستقرار الاقتصادي، وإلىٰ قلق عام في الأسواق، وركود في الحياة التجارية والصناعية[٣]؛ لهذا يرىٰ أحد الباحثين أن الحالة الاقتصادية العامة لمسلمي الأندلس في ذلك العصر كانت بالغة السوء[٤]، فقد كانت الأسواق والدكاكين تبقىٰ مدة خالية من الناس بعد المعارك الحربية التي تقع بين ملوك الطوائف أنفسهم، حيث استمر القتل بالناس كما وقع

---

(١) المصدر السابق، ص ٢١٨.
(٢) عبد الحليم عويس، ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، ص ٢٨.
(٣) محمد خلاف، قرطبة الإسلامية، ص ٩١.
(٤) عبد الحليم عويس، ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، ص ٢٨.

في سنة ٤٤٢ هـ، بعد معركة(يابرة) التي وقعت بين ابن عباد وابن الأفطس، فقد قتل ابن عباد ما يزيد على ثلاثة آلاف رجل، فبقيت بطليوس خالية الدكاكين والأسواق، وهذا يدل على فشوِّ المصيبة كما يقول ابن حيان[١].

ولعل من الأدلة القوية على تلك النكسة الاقتصادية أنه خلال عصر ملوك الطوائف كله لم يوجد عملة فضية تُسمَّى الدراهم؛ إذ كانت العملة المتداولة إما من النحاس أو من الفضة الرديئة ذات الوزن المتغير[٢]، ومما يدل على إفلاس الناس ما ذكره صاعد من أن أهل قرطبة «اضطرتهم الفتنة إلى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب، وسائر المتاع، فبيع ذلك بأوكس ثمن، وأتفه قيمة، وانتشرت تلك الكتب في أقطار الأندلس»[٣].

وقد كان لهذا الضعف في الحياة الاقتصادية أسباب قوية؛ من أهمها تسلط النصارى في حرب المسلمين، تلك الحروب التي استمرت عشرات السنين أكلت خلالها الأخضر واليابس، هذا إلى جانب تسلط النصارى على المسلمين في أعقاب النكسات الحربية، بجمع المال واستنزاف ما عندهم بعد تهديدهم إن لم يعطوا عن يد وهم صاغرون، ولعل موقف ابن ردمير ملك أراجون من أهل بلنسية أوضح دليل على ذلك؛ فقد جمع أهل المدينة ثم قال لهم: «انظروا لي في سبعمائة ألف مثقال وإلا هلكتم، وأحللت السيوف عليكم. ثم خرج وبقي المسلمون في القصر، وأغلق عليهم الباب، فصاروا في سجن، والروم تحفهم بالأسلحة، فرأوا الموت، ووقع البهت، وخرست الألسنة، ثم رجع اليهودي وزيره إليهم وقال لهم: لم أزل ألاطفه حتى قاطعته عليكم بمائتي ألف مثقال،

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٣٨٨. (نقلاً عن ابن حيان).

(٢) محمد خلاف، قرطبة الإسلامية، ص ٩٥.

(٣) طبقات الأمم، ص ٨٩-٩٠.

فبادروا بتوزيعها، وافدوا أنفسكم منه. فتوزع العدد على الأحوال، واشتد ثقاف الأغنياء»(١).

وهكذا أفضى ضعف المسلمين المعنوي إلى إفراز العديد من الآثار والنتائج، وما الضعف الاقتصادي إلا أثراً واضحاً ونتيجة ملموسة لضعف المسلمين المعنوي، وقد استبان لنا من خلال النص السابق كيف تجاسر النصارى على المسلمين، فأرغموهم على دفع ما يريدون من مال، ومما لا شك فيه أن هذا التجاسر كان له أثره الواضح في هدم اقتصاد المسلمين، وإضعاف إمكاناتهم المادية.

ولم تكن جرأة النصارى على أموال المسلمين هي السبب الوحيد في إضعاف الحياة الاقتصادية، بل وجد معها عدد من العوامل الداخلية، ومن بينها تسلط كثير من الحكام والوزراء على أموال الناس، واستيلاؤهم عليها، وبشتى الطرق والوسائل كما فعل مبارك ومظفر العامريان؛ حيث فرضا الضرائب والإتاوات الكثيرة على رعاياهما؛ إذ كانا يستخرجانها بأشد العنف ومن كل صنف؛ حتى تساقطت الرعية، ورحلت عن الأندلس إلى بلاد أخرى(٢). وقد ترك لنا ابن حيان وصفاً دقيقاً لهذا الإجراء، حينما قال: كانا «... يحثان بسوق الرعية المضطهدة بسلطانهما، ولا يعبئان بما آذاها من كلفهما، يقلدانها شرار العمال، ويستزيدان عليها في الوظائف الثقال، مع الأيام والليالي، حتى لغدا كثير منهم يلبسون الجلود والحصر، ويأكلون البقل والحشيش، وفرَّ كثير منهم عن قراهم»(٣)، ويضيف ابن حيان أن هذا السلوك لم يكن خاصاً بالعامريين بل إنه

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٤، ص ٤١.
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص ٩٩-١٠٦-١٠٧، ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٥-١٦.
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ١٦٢. (نقلاً عن ابن حيان).

على هذا السبيل «سلك أكثر الثوار المنتزين على أكنافها، الثائرين بأطرافها، بعد افتراق الجماعة بقرطبة آخر دولة بني عامر»(١).

ويذكر ابن عذارى أن سبب موت مبارك العامري هو دعاء أهل بلنسية عليه بسبب تشططه في جمع الأموال منهم؛ ذلك أنه لما خرج يوماً للنزهة اعترضه أهل بلنسية وهم يستغيثونه في أن يرفق بهم في مال كان قد افترضه عليهم، فقال لهم يومئذ: «اللهم إن كنت لا أريد إنفاقه فيما يعم المسلمين نفعه فلا تؤخر عقوبتي الساعة». ثم ركب إثر ذلك فلما أتى القنطرة وكانت من خشب خرجت رجل فرسه فرمى به أسفلها، واعترضته خشبة نائية من القنطرة وفُتق بطنه، ففاضت نفسه لوقته، وأمن أهل البلد من مقته، وكفاهم الله أمره، كما يقول ابن عذارى(٢).

ويضاف إلى ما سبق: ما فعله المقتدر بالله أحمد بن هود (٤٣٨ ـ ٤٧٤ هـ) حاكم الثغر الأعلى حيث بالغ في فرض الإتاوات المالية والضرائب على الرعية، لكي يدفعها للنصارى، فلما أثقلت تلك الضرائب كواهل الرعية، وعجزوا عن سدادها لجؤوا إلى أحد العابدين المعروفين بالصلاح، فأخبروه بما فرضه عليهم ابن هود، وأنهم أصبحوا عاجزين عن سداده فقال لهم: «معاذ الله! هذا لا يكون وأنا حي في الدنيا أبداً»، ثم ركب مع بعض الناس، وذهبوا إلى المقتدر بسرقسطة، فلما قابلوه وعظه، وبين له ما جاء في الشرع حول هذا الموضوع، فاغتاظ المقتدر لما سمع من ذلك الرجل وقال: «احتقرنا هذا الرجل حتى خاطبنا بمثل هذه المخاطبة، فإن تركناه ولم نعاقبه تجاسر علينا غيره»، فأمر به فقُتل(٣)،

(١) المصدر السابق، ص ١٦٢.

(٢) البيان المغرب، ج٣، ص ١٦٣.

(٣) وقد ذكر ابن عذارى أن ابن هود عاقبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عمله السيئ ضد ذلك الرجل=

بينما استمر ابن هود في فرض الضرائب على الرعية، وتقديمها للنصارى، وهذا مما أضعف سكان تلك البلاد[١].

وقد نهج عبد الملك بن جهور هذا النهج، حيث لم يسر على سياسة أبيه في المحافظة على أموال الناس، بل تنكب الطريق فاستباح أموال المسلمين وسلط عليهم أهل الفساد، كما أهمل الأمور الشرعية، وأخاف الطريق، فكثر الدعاء عليه[٢]، ومما يدل على تعديه على أموال الناس ما ذكره ابن سهل من أن عبد الملك بن جهور حين تملك قرطبة استولى على مزرعة تعرف بـ (السهلة) من أصحابها، وأن هؤلاء رفعوا دعوى ضده بعد نهاية حكم الجهاورة فردت إليهم تلك المزرعة[٣].

ومما يذكر في هذا الشأن تسلط المعتضد بالله ابن عباد صاحب إشبيلية حيث ذكر المراكشي أنه تسلط على كثير من رعيته، حتى أمات بعضهم خمولاً وفقراً[٤]، كما ذكر أنه كان لا يتورع عن أموال الناس بل يضم ويستولي على ما يعجبه، ومما يذكر في هذا أنه وضع يده على بعض مال لرجل أعمى، فافتقر ذلك الرجل، ورحل إلى مكة، فلم يزل يدعو على المعتضد بها، فلما بلغ المعتضد الخبر أرسل إليه من قتله في مكة. كما استولى على ضيعة لرجل يعمل مؤذناً بإشبيلية ففر منه إلى طليطلة فكان يدعو عليه بها في الأسحار، فلما علم بذلك

= الصالح، حيث دعا عليه قبل قتله فرماه الله بعِلَّة في جسده أذهبت حسه وعقله، فما مات سنة ٤٧٤ هـ حتى كان ينبح كما تنبح الكلاب، نعوذ بالله من سوء العاقبة. (ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٢٩).

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٢٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٢.

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٣٢.

(٤) ابن سهل: الأحكام الكبرى (مخطوط) ورقة ١٥٠.

المعتضد بعث إليه من قتله وجاءه برأسه.

ومن العوامل التي أضرت بالحياة الاقتصادية في عصر ملوك الطوائف ما خلفته الحروب التي وقعت بينهم من آثار سيئة، فحينما انتهت الحرب التي وقعت بين المعتضد ابن عباد والمظفر ابن الأفطس سنة ٤٤٢ هـ، واستمرت عدة شهور؛ كانت تلك الحرب قد دمرت عمارات واسعة، أفسدت غلاتها وأوقعت رعيتها في المجاعة الطويلة؛ إذ امتدت الحرب بين ذينك الزعيمين حتىٰ أفنيا العالمين، كما يقول ابن عذارىٰ[١].

وقد كانت دولة البكريين في أونبة وشلطيش ذات اقتصاد قوي، حيث كانت أيامها أعياداً من رخاء السعر وأمن السبل إلىٰ أن ضايقهم المعتمد ابن عباد بشنّ الغارات ففسدت البلاد، وكثر الفساد، وذلك سنة ٤٤٣هـ[٢]. كذلك ما فعله المعتضد ابن عباد مع دولة بني مُزين حيث شنّ عليهم الغارات ووالىٰ السرايا ثم حاصر مدينة شلب فاشتد عليها البلاء مع غيرها من الأقاليم المجاورة[٣]، وقد لقيت هذا المصير كلاً من دولة اليحصبين في لبلة[٤] ودولة عماد الدولة الدمري بمورور[٥].

وبالإضافة إلىٰ ما سبق فقد ذكر ابن بسام عاملاً مهماً من العوامل التي أفسدت الحياة الاقتصادية في ذلك العصر؛ حيث قال: «أكثر ملوك هذا الإقليم ـ يعني ملوك الطوائف ـ كانوا يداخلون طوائف الروم، ويكثر كل واحد

(١) البيان المغرب، ج٣، ص ٢١٠.
(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٩٩.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٩٨.
(٤) المصدر السابق، ص ٣٠٠.
(٥) المصدر السابق، ص ٢٩٦.

منهم عسكراً بجملة من المال، يخرجه إلىٰ بلد كاشحه، ويسلطه علىٰ معانده ممن يجاوره من البلاد حسداً له، وطمعاً في بلده أن يصير طوع يده، فكانت نيران الفتنة بينهم مشتعلة، والرعية مهملة؛ لأن جملة غلاتهم، وجميع اعتمالاتهم، كانت تتلف بأيدي تلك الطواغيت الخارجة إليهم في أكثر المواقيت، وما كان يفلت من الخراب يغرمونه في المغارم»[١]، ويؤكد هذا ما ذكره صاحب كتاب الحلل الموشية من أن المعتمد ابن عباد قد فرض علىٰ أهل بلاده إتاوة كان يؤديها إلىٰ النصارىٰ فافتقر أكثرهم بسببها، كما جلا بعضهم عن تلك البلاد[٢].

وكانت عمليات السلب والنهب التي تلي الحروب ويقوم بها بعض عامة الناس من العوامل القوية التي أدت إلىٰ إضعاف الاقتصاد في ذلك العصر، ومن الأمثلة علىٰ ذلك أنه حينما اقتحم جيش بني عباد مدينة قرطبة سارع العامة إلىٰ دار عبد الملك بن جهور المحصور، فغشيها جموع من الناس من أعلاها وأسفلها كالجراد المنتشر ينهبون ويسلبون، «فصيّروا جميع ما احتوىٰ عليه قصره كحريق سريع، وفضوا أقاصي مخازنه علىٰ نفيس أغلاقها»[٣].

ومن التصرفات التي أضرت بالحياة الاقتصادية في عصر ملوك الطوائف تصرفات بعض الوزراء الذين كانوا يلهثون وراء جمع المال بأي وسيلة، ويمثل هذه الفئة بوضوح الوزير ابن السقاء الذي بالغ في هذا الأمر؛ إذ اتبع في جمع الأموال من الناس سياسة حمقاء، ومنهجاً صعباً، وقد وصف ابن حيان تلك السياسة بقوله: «وما هو إلا أن حمل الأمانة - يعني تولي الوزارة - علىٰ كاهله، فوضعها أسفل رجله... فتحول جُرَذاً للسرقة والخيانة... وقد تولىٰ أمر

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ٢، ص ٢٥٤.
(٢) الحلل الموشية، ص ٤١.
(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٦٠.

السلطان وهو فقير فلم يستتر في الاكتساب، بل جاهر في التحامل على الجيرة، والإكراه للمستضعفين ممن يصاقبه من ذوي خطة أو بهجة، وبسط يده إلى مال الخراج، واحتوى عليه، يأخذه كيف شاء [١]، وينفقه فيما يريد، وما هو إلا أن حمل الأمانة على كاهله، فوضعها أسفل رجله، وتذكر عض الكلاب لعصاه فتحول جُرذاً للسرقة والخيانة، وابتنى القصور المنيعة، واقتنى الضياع المغلة إلى أملاك لا تحصى كثرة»[٢].

ويبدو أن ابن السقاء كان مطلق اليد في أموال الناس، وأنه يأخذ ما يريد بلا رقيب، ودون محاسبة، أو مساءلة؛ ولهذا عرضت تركته بعد وفاته على القضاء في قرطبة ـ كما يذكر ابن سهل في نوازله ـ فأفتى عدد من الفقهاء، وهم: ابن عتاب، وأحمد بن محمد، وموسى بن هذيل، وعبيد الله بن مالك، بأن جميع ما تركه الهالكان إبراهيم ـ يعني ابن السقاء ـ ومحمد (أخو ابن السقاء) للمسلمين إلا ما صح ملكه لهما بوجوبه لهما، وإنه لا تنفذ وصاياهما إلا فيما علم مما صح ملكه لهما، وقد نفذ هذا الحكم[٣].

ولم يكن هذا السلوك خاصاً بابن السقاء فقد شاركه فيه الكثير من رجالات تلك الدول، وممن اشتهر بهذا أبو محمد يوسف بن القلاس البطليوسي، أحد رجالات عمر بن المظفر بن الأفطس، حيث وصفه ابن بسام بأنه «أحد عفاريت الضلال، وآكلة الأموال، من أجرأ خلق الله على دم، وهو أجبن من صافر، وأجسرهم على ركوب ثبيج محرم»[٤].

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ٣٢٨ ـ ٣٤٣. (نقلاً عن ابن حيان).
(٢) ابن سهل، الأحكام الكبرى، ص ٢٢٣.
(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ٣٢٩. (نقلاً عن ابن حيان).
(٤) الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

كانت هذه صوراً وأمثلة لتصرفات الوزراء في الاستيلاء على المال العام وأموال الناس، ولا شك أن هذا المنهج كان من العوامل الرئيسة التي أدت إلى انهيار الاقتصاد في ذلك العصر؛ حيث أدى إلى قطع أموال الناس جملة كما يقول ابن حيان[١].

ويقابل هذا الحرص من ملوك الطوائف على المال وجمعه أنهم كانوا يحيطون أموالهم بالبخل الشديد؛ فإسماعيل بن ذي النون على الرغم من كثرة جبايته وشدة جمعه للمال فقد كان بخيلاً به، شديد الإمساك له، مقتراً في الإنفاق حيث لم يبادر إلى عمل طيب في هذا الميدان، كما لم يَجُد بمعروف، ولا أعملت إليه مطية، ولا حملت أحداً نحوه ناقة، ولا استخرج من يده درهم من حق ولا باطل كما يقول ابن بسام[٢]. وعلى هذا المنهج كان أبو الحزم ابن جهور، فعلى الرغم من كثرة ماله فقد وُصف بالبخل الشديد والمنع الخالص اللذين لولاهما ما وجد فيه عائبه مطعناً، ولكمل لو أن البشر يكملون[٣].

وقد كان هذا التعدي على أموال الناس من قِبَل كثير من ملوك الطوائف ورجالاتهم سبباً في ازدراء النصارى لهم؛ حيث وصفهم ألفونسو السادس بأنهم جماعة من اللصوص[٤]، فقد خاطب ابن عمار قائلاً: «يا ابن عمار، مثلك مثل السارق سرق السرقة فضيعها حتى سُرقت منه»، وقد قال هذه المقولة حينما لجأ إليه ابن عمار ضد خصمه ابن رشيق الذي بادر بالهدايا الجزلة للملك النصراني مما أسقطهم جميعاً من نظره[٥].

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ٣٤٣. (نقلاً عن ابن حيان).
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٤٣.
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٦. (نقلاً عن ابن حيان).
(٤) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٣٨٧.
(٥) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٤٦.

وبالإضافة إلىٰ ما سبق فإن تلك المعاناة الاقتصادية قد تجر الناس إلىٰ الفتن والثورات، ويبدو هذا واضحاً في موقف أهل طليطلة من القادر ابن ذي النون حيث قاموا ضده بثورة عارمة سنة ٤٧٢ هـ، وذلك حينما بالغ في فرض الضرائب عليهم، وقد أدت تلك الثورة إلىٰ هروبه من طليطلة حيث لجأ إلىٰ حصن وبذة[(١)].

وقد كانت تلك المعاناة في أيام السلم، أما في الحرب وحصار المدن والثغور من قبل النصارىٰ فإنه يعظم البلاء، ويتضاعف الغلاء، ويستوي في عدم القوت الفقراء مع الأغنياء[(٢)].

لم يكن تأثير تلك المعاناة علىٰ العامة فحسب بل إنها تجاوزتهم إلىٰ المفكرين والعلماء، حيث ذكرها بعضهم بعبارة توحي بشدة معاناتهم وعمق تأثرهم بذلك الواقع الاقتصادي المتردّي، يقول ابن بسام: «وكان من غريب ما اتفق، وعجيب ما انتظم من ذلك واتسق؛ أن البُرّ كان علىٰ زعمهم يمكث عندهم أكثر من خمسين سنة لا يؤثر فيه طول القِدم، ولا يُخاف عليه آفة العدم، ولم يرفع مدة الفتنة من البيادر علىٰ تعذر بذره، وضيق الحيلة عن محاولة شيء من أمره إلا وقد بدا البلىٰ عليه، وأسرعت الآفة إليه، أمر من الله لم يكن له مرد، ولا منه بد»[(٣)].

كان هذا عرضاً سريعاً للوضع الاقتصادي في عصر ملوك الطوائف، حيث تبيّن لنا من خلاله أن ذلك الاقتصاد كان هشاً بل ضعيفاً متداعياً، وكما كان لهذا الضعف أسبابه فقد كانت له نتائجه المباشرة، ولعل من أهمها ـ وهو ما يعنينا في هذا البحث ـ أن قلة المال في أيدي الناس ـ والذي هو عصب المعارك كما يقال ـ قد

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.
(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٤، ص ٣٨.
(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص١٦٤.

أدىٰ إلىٰ ضعف الناس مما أضعف حصونهم وثغورهم، ويبدو أن النصارىٰ كانوا يخططون لهذا الأمر، وقد بدا هذا واضحاً في سياسة ألفونسو السادس مع ابن ذي النون فقد «قفر ثغوره . . . فجعل لوقته يطويها طي السجل للكتاب، وينهض فيها نهضة الشيب في الشباب، وابن ذي النون يلقمه أفلاذ كبده، ويرجمه بسيده ولبده، وألفونش ـ لعنه الله ـ لا يقنع منه بصيد العنقاء، ولا ببيض الأنوق، بل يكلفه إحضار الأبلق العقوق، ويسومه درك الشمس، ويطلبه برد أمس، فلما أكل الإنفاق ثبج ماله، وأخذ الخناق بكظم احتياله، وأحس العدو المشاق بذلك من حاله، سما إلىٰ معاقله المنيعة، وذرىٰ أملاكه الرفيعة، عُدد الأنام ودروب الإسلام»[١].

وقد يكون من الإنصاف في نهاية هذا المبحث أن نبين أن ذلك الضعف الاقتصادي لم يكن شاملاً لكل دول الطوائف، بل يستثنىٰ من ذلك دولة بني جهور في بداية أمرها، فقد كانت تملك اقتصاداً قوياً في عهد أبي الحزم ابن جهور (٤٢٢ ـ ٤٣٥ هـ)، وذلك بسبب ما أوجده من خطط اقتصادية فريدة كان من أهمها ورعه عن المال العام، وتأمين الأمن والطمأنينة للناس[٢]، حيث يذكر المؤرخون أن أبا الحزم ابن جهور قد نهج سياسة مالية جيدة؛ إذ لم يطمع إلىٰ ما في أيدي الناس أو بيت مالهم، بل كان يقتات من ماله الخاص، كما كان لا يلتبس بشيء من مال المسلمين، ولا يدخل داره، ومتىٰ سُئل؛ قال: ليس لي عطاء ولا منع، هو للجماعة وأنا أمينهم[٣].

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٥٦.

(٢) الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٢٧ ـ ٢٨، المراكشي، المعجب، ص ١١١ ـ ١١٢، ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ٣٠ ـ ٣١.

(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٠٣، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٦.

أما ما يصل إليه من أموال المسلمين، فقد كان يجعل كل ما يرتفع إليه في البلد من مال - بعد إعطاء المقاتلين نصيبهم - بأيدي ثقات، مشاركاً لهم في إدارته وتصرفه(١).

وقد ذكر ابن حيان أن هذه السياسة الاقتصادية الحكيمة التي اتبعها أبو الحزم ابن جهور كان لها أثر واضح على مسلمي قرطبة حيث «رخت الأسعار، وصاح الرخاء بالناس أن هلموا، فلبوه من كل صقع، فظهر تزايد الناس بقرطبة من أول تدبيره لها حتى ملؤوا المساجد والأفنية، وسمت أثمان الدور بها، والابتناء لخرابها الفاشي أخذ بالهوينا، فاتصل البنيان بها، وغلت الدور، وحركوا الأسواق»(٢).

وقد أدت هذه النقلة الاقتصادية التي وجدت بقرطبة خلال حكم أبي الحزم ابن جهور إلى تعجب الناس من ذلك التغير الذي طرأ على قرطبة دون سواها من مدن الأندلس؛ حيث إن معاول الهدم ما زالت موجودة في ذلك المجتمع، وقد وصف ابن حيان ذلك الموقف الذي بدا من الناس فقال: «فعجب ذو التحصيل للذي أدى إليه في صلاح أحوال الناس من القوة، ولما تعتدل حال، أو يهلك عدو، أو تقو جباية، وأمر الله - تعالى - بين الكاف والنون»(٣).

أما الحالة الأمنية: في عصر ملوك الطوائف فلم تكن أحسن من سابقتها فقد تردت الأوضاع الأمنية هناك، بل كانت بالغة السوء، ولعل تسمية هذا العصر (أيام الفَرَق)(٤) أوضح دليل على ذلك، فالفَرَق يعني الخوف، ولهول ما وقع فيه

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٦.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ص ٦٠٤. (نقلاً عن ابن حيان).
(٣) المصدر السابق، ص ٦٠٤. (نقلاً عن ابن حيان).
(٤) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٧٨.

من الفتن التي تدع الحليم حيران، فالعدو وخطره يهددهم جميعاً، والحكام مشغولون بمصالحهم وبتآمر بعضهم على بعض[١]؛ إذ لم يستشعروا المسؤولية بل إنهم أضحوا كما أمسوا أمراء فرقة همل يعيشون ما بين فشل ووكل[٢].

وفي خضم تلك الفتنة ومع غياب الوازعَيْن الديني والسلطاني عن أفراد ذلك المجتمع عمَّت الفوضى، وافتقد النظام، وثارت الأحقاد بين عناصر المجتمع الواحد، كما ظهرت نزعة الانتقام والتشفي، وكان يكفي أن يقال هذا من الجنس الفلاني فتمزقه السيوف، ومن ثم تحتضنه اللحود[٣].

وقد بدا هذا الأمر واضحاً في مستهل ذلك العصر، فقد استغل الكثير من أهل الأهواء الفتنة البربرية التي اجتاحت الأندلس آنذاك، فحققوا من خلالها الكثير على حساب النظام والأمن والمصلحة العامة؛ إذ لم يبق أحد من هؤلاء إلا عمل مجهوده في ذلك، فقتل الكثير من الرجال الذين كانت لهم مساهمات كبيرة في ميدان الجهاد، بل إن بعضهم ذبحوا على فُرشهم، كما سُبيت النساء، وهُتكت الأعراض[٤]، وهكذا انعدم الأمن، وسيطرت الفوضى فأصبح الناس لا يأمنون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ففي الأسواق أصبحوا يخافون حتى حينما يصهل فرس على فرس[٥]، كما أخذ الناس في قرطبة يستفتون في جواز تقديم صلاة العشاء مع المغرب؛ وذلك بسبب الخوف حينما يحل الظلام[٦]، كما صلى أهل قرطبة العيد في إحدى السنوات بالجامع بدلاً من

---

(١) ليث جاسم، ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ، ص ٦١.
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٥٤.
(٣) ليث جاسم، ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ، ص ٦٦.
(٤) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٨١.
(٥) المصدر السابق، ص ٩٢، ابن بشكوال، الصلة، ج ١، ص ١٧٨.
(٦) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج ٣، ص ٦٧.

المصلى؛ وذلك بسبب خوفهم[١].

وفي ظل تلك الفوضى أصبح حثالة الناس ربما يعزلون ويولون حسب ما تمليه مصالحهم الذاتية، ففي قرطبة يذكر ابن عذارى أنه في أيام الفتنة قام بضعة عشر رجلاً من أراذل العامة، حجامين وخرازين وكنّافين وزبالين، أصبحوا يقومون بمسؤوليات أهل الحل والعقد إلى جانب السطو والنهب في قرطبة والزهراء، دون أن يلقوا أي معارض[٢].

ولم تكن تلك الأعمال سببها انعدام الوازعَيْن الديني والسلطاني فحسب، بل ربما ساعدت بعض تلك الكيانات على هذا الأمر، ومما يذكر في هذا المجال أن علي ابن حمود حينما تولى السلطة «صبَّ على أهل قرطبة ضروباً من المغارم، وانتزع السلاح منهم، وقبض دورهم، وقبض أيدي الحكام من إنصافهم، وأغرم عامتهم، وتوصل إلى أعيانهم بقوم من شرارهم، ففتحوا لهم أبواباً من البلايا أهلكوا بها الأمة، وتقربوا إليه بالسعاية فيهم، وصار شطر الناس أشراطاً على سائرهم... وأخذت على الناس الأقطار، وأظلمت الدنيا وأبلس أهلها، وغشيهم من الله ما غشيهم، فلزموا البيوت، وانطمروا في بطون الأرض؛ حتى قل بالنهار ظهورهم، وخلت أسواقهم، فإذا دنا المساء، وكف الطلب عنهم انكشفوا إلى وقت الظلام لقضاء حاجتهم»[٣].

كما ذكر ابن حزم أن قرطبة في ذلك الوقت «عاد نهارها تبعاً لليلها في الهدوء والاستيحاش»[٤]، ويضيف إبراهيم بن القاسم أنه خلال الفتنة البربرية كان يقتل كل متشبه بالبربر، وكل عُدْوي[٥]، ولو لم ير العدوة ولا سمع بها

(١) محمد خلاف، قرطبة الإسلامية، ص ٢٩٨.
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٧٤.
(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ١٢٣.
(٤) طوق الحمامة، ص ٩٤، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١٠٦.
(٥) العدوي، نسبة إلى العدوة المغربية.

إسرافاً وتحاملاً وجرأة على الله ـ سبحانه ـ وطغياناً؛ حتى إن كل من بينه وبين أحد عداوة قال هذا بربري فيقتل، كما قتلوا الأطفال وشقوا بطون الحوامل، وأخذوا ابنة رجل من البادية وكانت جميلة حسنة، وعرف أبوها العلج الذي أخذها، فوقف إلى أحد الناس، وقال له: إن فلاناً العلج أخذ ابنتي وليست بربرية، فقال له: لا تتكلم في شيء من هذا فما إلى ردّها من سبيل. فحاول والدها ردها حيث بذل أربعمائة دينار للعلج، فلما أخذها منه قتله[١].

وقد أدرك العلماء والفقهاء تردي الحالة الأمنية في مجتمع ملوك الطوائف، ولهذا أخذوا يصدرون الأحكام والفتاوى أحياناً على تقدير أن كل غائب طالت غيبته فهو هالك، وهذا المنهج في الفتوى عند الفقهاء إنما يعمل به في الأوقات المضطربة وغير الآمنة[٢].

ومما يدل على انعدام الأمن وترديه في كل أقطار الأندلس وصف مدينة قرطبة بأنها أصبحت في أيام أبي الحزم ابن جهور «حرماً يأمن فيه كل خائف»[٣].

هكذا كانت حالة أولئك القوم عامتهم وخاصتهم، فالضعف المعنوي قد ضرب بجذوره في أعماق نفوسهم؛ إذ انعدم الوازع الديني بينهم لما لم يعد للوازع السلطاني أي قدر، فانقطعت السبل، وكثر القتل والهرج، والسلب، وأمسى الناس في مثل عصر الجاهلية، كما يقول ابن عذارى[٤]، وقد تأصل هذا الأمر في نفوس بعض ملوكهم ومن هؤلاء المعتضد ابن عباد الذي وصفه ابن حيان بأنه: شهاب الفتنة، ذو الأنباء الشنيعة، والوقائع المبيرة، والسطوة الأبية،

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٩٧.
(٢) ابن سهل، الأحكام الكبرى، ص ٢٠٠.
(٣) المراكشي، المعجب، ص ٩٢.
(٤) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢١١.

كما يذكر أن نفسه ـ يعني المعتضد ـ كانت ترتاح حينما ترىٰ الحديقة التي ملأها برؤوس أعدائه، بينما الخلق يذعرون من مجرد التماحها لهول ما فيها، ولأنها شاهد حي علىٰ ظلمه وسطوته[١]، وقد نهج هذا المسلك عبد الملك بن جهور الذي أضاع الأمن واعتدىٰ علىٰ أموال الناس، كما يذكر ابن عذارىٰ أن «هذا السفيه القوي قد تعاظم وتعاطىٰ حتىٰ سمَّىٰ نفسه ذا السيادتين، المنصور بالله، الظافر بفضل الله»[٢].

وبالإضافة إلىٰ ما سبق فقد ذكر ابن حزم أن من عوامل تداعي الأمن أن جنود الفتنة كانوا لا يتورعون عن شن الغارات علىٰ الناس الآمنين، والاستيلاء علىٰ أموالهم بالقوة، وقطع الطريق علىٰ مصالحهم، وضرب المكوس والجزية علىٰ رقابهم، بل وتسليط اليهود لأخذ الجزية منهم[٣].

وقد أدرك بعض ملوك الطوائف أن ما حل بالأمة في عصرهم إنما كان بسبب سياستهم الخرقاء الظالمة، وقد اعترف أبو الوليد ابن جهور حينما أخرج من قرطبة قاعدة مملكته، ونفي إلىٰ جزيرة شلطيش، بأن ما حلّ به، إنما كان بسبب جوره، وظلمه، فقال كلمته المشهورة حينما وصل إلىٰ وسط القنطرة الموصلة إلىٰ تلك الجزيرة بعد أن رفع يديه إلىٰ السماء: «اللهم كما أجبت الدعاء علينا فأجبه لنا»[٤]، كما بدا هذا واضحاً في الرسالتين اللتين بعث بهما كل من المتوكل ابن الأفطس ـ حاكم بطليوس ـ، والمعتمد ابن عباد ـ حاكم إشبيلية ـ إلىٰ ألفونسو السادس ملك قشتالة[٥].

---

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦. (نقلاً عن ابن حيان).
(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٣٣.
(٣) رسالة التلخيص لوجوه التخليص، ص ١٧٣ ـ ١٧٤.
(٤) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٥٨.
(٥) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٣٦ ـ ٤١.

وبهذا يظهر لنا تردي الحالة الأمنية في عصر ملوك الطوائف، وأنه كان عصراً مضطرباً لا يأمن الناس فيه علىٰ أنفسهم، ولا أعراضهم ولا أموالهم، وأن الذي أسهم في صنع ذلك الوضع غياب الهاجسَيْن الديني والسلطاني عند عامة الناس، وكذلك عدم اكتراث زعماء الأندلس آنذاك بهذا الأمر، بل إنهم ربما ساعدوا علىٰ إضعافه بما يخلقونه من فتن، وحروب، وأزمات اقتصادية ساعدت أحياناً علىٰ تردي الحالة الأمنية أو انتكاسها.

أما القلق النفسي: أو ما يمكن أن نسميه بالنكسة النفسية عند مسلمي الأندلس في عصر ملوك الطوائف، فقد بدت هذه الظاهرة واضحة، ليس عند العامة فحسب، بل تجاوزتهم إلىٰ المفكرين والعلماء وغيرهم، فقد تضافرت تلك الفتن السياسية، والأزمات الاقتصادية والأمنية والحربية، فتمخض عنها أجواء نفسية مضطربة أصبح فيها الحليم حيران؛ إذ اختل التصور السليم للأمور، فلم يعد هناك معايير ولا أعراف، فضلاً عن القيم والأخلاق، بل إنها كلها قد غابت عن ذلك المجتمع حيث أصبح «الأدب أقل من الوفاء، حامله أضيع من قمر الشتاء، وقيمة كل أحد ماله، وأسوة كل بلد جهاله، حسب المرء أن يسلم وفره، وإن ثُلم قدره، وأن تكثر فضته وذهبه، وإن قل دينه وحسبه»[١].

هكذا لم يعد هناك ضابط شرعي أو نظامي أو عرفي لكثير من القضايا والأزمات التي حلَّت بذلك المجتمع، فقد هانت كثير من مصالح الأمة، وتركت دون المصالح الذاتية، فأصاب الأمة من الضياع والحيرة والقلق، بقدر ما حادت عن الخط الإسلامي الصحيح[٢]، ويدرك المتتبع لتاريخ أولئك القوم أنهم قد ساروا بعيداً في هذا الميدان حتىٰ ظن بعضهم أن ما هم فيه من فوضىٰ ـ شملت

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٢٠.
(٢) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٧٥.

شؤون حياتهم كلها، وخلفت آثاراً كثيرة كان من بينها ذلك القلق النفسي - هو واقع لا يصلحه إلا نبي؛ لتأصله في النفوس، وشدة أوجاعه، وهمومه بين الناس[١]، فقد جلحت الأباليس، وصارت الدور كالتنانير كما يقول ابن عبد البر[٢].

كما يدرك المتتبع لما خلفه علماء ذلك العصر من تراث فكري أن رصدهم لتلك الظاهرة كان قوياً، كما أن معاناتهم منها كانت موجعة، فمن يقرأ في مقدمة ابن بسام لذخيرته يدرك هذا واضحاً عند قوله: «وعلم الله أن هذا الكتاب لم يصدر إلا عن صدر مكلوم الأحناء، وفكر خامد الذكاء، بين دهر متلون تلون الحرباء... وحين اشتد الهول هنالك اقتحمت بمن معي الممالك على مهامة تكذب فيها العين الأذن، وتستشعر فيها المحن:

مهامة لم تصحب بها الذئب نفسه ولا حملت فيها الغراب قوادمه»[٣]

كما ظهرت تلك المعاناة واضحة في كتابات ابن حيان حيث وصف بعض سني العصر بقوله إنها كانت «شداداً نكدات، صعاباً شؤومات، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى والخاتمة، لم يعدم فيها حيف، ولا فورق فيها خوف، ولا تم سرور، ولا فقد محذور، مع تغير السيرة، وخرق الهيبة، واشتعال الفتنة، واعتلاء العصبية، وظعن الأمن، وحلول المخافة... فتمخضت عن الفاقرة الكبرى، وآلت بمن أتى بعدها، إلى ما كان أعضل، وأدهى مما طوى بساط الدنيا، وعض رسمها، وأهلك أهلها»[٤].

(١) ابن عبدون، ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة، ص ٦٠.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٣٧.
(٣) الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ١٩.
(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ٣٦. (نقلاً عن ابن حيان).

أما ابن حزم فإن ذلك الوضع الذي يعيشه الناس ظل هاجساً ملازماً له، يقلقه أينما حل وارتحل، كما عده من المصائب الكبرىٰ التي رُزئ بها المسلمون؛ ولهذا فقد لجأ إليه الناس ينشدونه الطرق الموصلة للخلاص من ذلك المأزق الذي هم فيه، وقد أجابهم بقوله: «وأما ما سألتم عنه من أمر هذه الفتنة، وملابسة الناس بها . . . فهذا أمر امتحنا به ـ نسأل الله السلامة ـ وهي فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقىٰ الله تعالىٰ، من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب»[١].

وقد صور تلك المعاناة النفسية الشاعر الأديب أبو الحسين يوسف بن محمد ابن الجدّ، وفي رسالة بعثها إلىٰ عمه من جزيرة ميورقة، ومما جاء فيها:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر ... فزعت فيه بآمالي إلى الكذبِ
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا ... شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

وإن عيناً لم تصب بدم بعد دم لبخيلة، وإن نفساً لم تذب علىٰ تلك النازلة العظمىٰ لجلدة خمولة، لله ـ تعالىٰ ـ التسليم فيما حلّ وجلّ، وفجع وأوجع، وإن لم تكن تجافت عن النفوس، ورتعت في العرض الخسيس، فخطبها حقير، وكسرها مجبور، علىٰ أنها كيف تصرفت مشكلة، وعلىٰ ما تخيلت مذهلة، وصفاتك ـ أعزك الله ـ أصلب من أن تؤثر فيها النوازل، وأثبت من أن تضعضع فيها الرواجف والزلازل، وأنا حين خططت هذه الأحرف علىٰ جمر من الأسىٰ متقلب:

كتبتُ وقد غالت عزائي أشجان ... وقد شرّقت بالدمع والدم أجفانُ
وقد وقذتني نبأة الخطب لم تصغْ ... إلى مثلها في سالف الدهر آذانُ
تصاممتُ عنها مستريحاً إلى المنى ... وقلت عساها في الأحاديث بهتانُ
كذا فارقبوا يوم القيامة بغتة ... فيهلك شيطان ويهتك سلطانُ»[٢]

---

(١) ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ٣، ص ١٧٦ .
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ٢، ص ٥٥٨ ـ ٥٦٠ .

هكذا كانت المعاناة النفسية لمسلمي الأندلس كما يصورها ذلك الأديب الذي عاش في ظلها واكتوىٰ بنارها، ومما يدل علىٰ شدة المعاناة والنكسة النفسية التي عاشها المسلمون آنذاك، ما ذكره ابن حزم من أن الأحزان والمآتم، وتكدر الخواطر الذي كان من سمات ذلك العصر شغلت النساء حتىٰ عن الاهتمام بزيها وزينتها، وهذه من الأمور المعمول بها يومياً عند المرأة، بل إنها من المحببات إلىٰ نفوسهن، وفي هذا يقول واصفاً بعض قريباته بعد أن رآها بعد عودته إلىٰ قرطبة: «فنزلت علىٰ بعض نسائنا فرأيتها هنالك، وما كدت أن أميزها حتىٰ قيل لي هذه فلانة، وقد تغير أكثر محاسنها، وذهبت نضارتها، وفنيت تلك البهجة، وغاض ذلك الماء الذي كان يرىٰ كالسيف الصقيل، والمرآة الهندية. . . فلم يبق إلا البعض المنبئ عن الكل، والخبر المخبر عن الجميع، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها، وعدمها الصيانة»[1].

وفي ظل تلك الظروف النفسية والاجتماعية المضطربة التي عاشها مسلمو الأندلس آنذاك بدأ يظهر في الساحة الأندلسية بعض الظواهر النفسية والاجتماعية التي أفرزها ذلك الضعف، ولعل من أهمها: ظهور بعض الشائعات التي تمخضت عن تلك النكسة النفسية، حيث أصبح مسلمو الأندلس يرددون أنه «في عهد لذريق فتحت هذه الجزيرة، ولذريق يستنقذها» يعنون ألفونسو السادس، كلمة ملأت الصدور، وخيلت وقوع المخوف والمحذور، كما يقول ابن بسام[2]، ويبدو أن ظهور مثل هذه الإشاعة هو الذي جعل أبا الحزم ابن جهور يطرد عدداً من الوشاة الذين يسعون بالنميمة وإثارة البلبلة في المجتمع القرطبي؛ وذلك لكي يقضي علىٰ الإشاعة المغرضة، والحرب النفسية التي

(١) طوق الحمامة، ص ١١٢.
(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٩٩.

يبثها المغرضون[١].

ومن الظواهر الاجتماعية التي بدت واضحة: الهجرة عن كثير من المدن الأندلسية التي أصبحت مناطق طرد لسكانها بسبب ما استعر فيها من حروب، وقام فيها من فتن، فهاجر كثير من السكان عن مدنهم إلىٰ بلاد العدوة المغربية أو أماكن أخرىٰ، وكان ممن اكتوىٰ بهذه النار الأديب الشاعر أبو عامر بن شهيد (ت ٤٢٦ هـ)، فحينما رأىٰ ما حل بقرطبة من فساد، وخراب وتدمير اضطر كثير من أهلها إلىٰ الهجرة عنها، وصف تلك الظاهرة وما أدت إليه من فراق الأهل والأحبة بقوله:

ما في الطلول من الأحبة مُخبر ... فمن الذي عن حالها نستخبرُ
لا تسألنَّ سوى الفراق فإنه ... يُنبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جَارَ الزمان عليهم فتفرّقوا ... في كل ناحية وباد الأكثرُ
جرت الخطوبُ على محلِّ ديارهم ... وعليهم فتغيرت وتغيروا
فلمثل قرطبة يقل بكاء من ... يبكي بعينٍ دمعُها يتفجرُ

إلىٰ قوله:

حزني على سرواتها ورواتها ... وثقاتها وحماتها يتكررُ
نفسي على آلائها وصفاتها ... وبهائها وسنائها تتحسرُ
كبدي على علمائها، حكمائها ... أدبائها، ظرفائها تتفطرُ[٢]

كان هذا عرضاً للوضع النفسي المتمخض عن الضعف المعنوي الذي انتاب مسلمي الأندلس في عصر ملوك الطوائف، ولعل من المناسب أن نبين أن ذلك الضعف لم تكن نتائجه وإفرازاته شراً محضاً، بل إن الأمة لم تعدم بعض النتائج

---

(١) صالح السنيدي، دولة بني جهور في قرطبة، ص ١٤١.
(٢) الطاهر أحمد، دراسات أندلسية، ص ٢٤١-٢٤٢.

الإيجابية التي تمخضت عن ذلك الوضع الذي أقلق بعض قادة الفكر بالأندلس، كما أقض مضاجعهم تخلي كثير من ملوك الطوائف عن مسؤولياتهم إزاء الأمة؛ ولهذا حاول أولئك المفكرون أن ينبروا لمعالجة ذلك الواقع لإصلاح الحال؛ كي يعيدوا الأمة إلىٰ سابق مجدها وعزها.

وقد نهجوا في ذلك أساليب متباينة كل حسب إمكاناته وقدراته، والفرص المتاحة له؛ فمنهم من خاطب الحكام موضحاً لهم حقيقة واقعهم، وحاجتهم إلىٰ الوحدة الإسلامية، وإحياء روح الجهاد بين المسلمين لكي يقفوا سداً منيعاً أمام النصارىٰ، ومنهم من استخدم الخطب، والتأليف، والفتاوىٰ، والرسائل، والنقد البناء؛ لتكون وسائل لدعوته لإصلاح الواقع، كما طاف بعضهم علىٰ بلدان المسلمين بالأندلس لإصلاح ذات البين، والدعوة إلىٰ الوحدة بين ملوك الطوائف، وإزالة ما بينهم من وحشة أو فجوة.

ولم تكن هذه الجهود، وتلك المحاولات قاصرة علىٰ الحكام فقط، بل تجاوزتهم إلىٰ كل شرائح المجتمع؛ حيث بين لهم بعض العلماء والمفكرين أسباب الضعف وعوامله، كما دلوهم علىٰ أسباب العز ة والقوة، وكيفية معالجة واقعهم المرير؛ إذ بينوا لهم أن ما حل بهم من ضعف وهوان علىٰ الناس، إنما كان بسبب بعدهم عن منهج ربهم، وتخليهم عن أصالتهم التي دخلوا بها تلك الديار، بل اقتحموا بها الدنيا بأسرها[١].

وقد كان من نتائج هذه الجهود إحياء روح الجهاد عند بعض مسلمي الأندلس، فقد رأينا كيف تحرك بعض المسلمين لتحرير بربشتر حينما سقطت بيد النصارىٰ سنة (٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م)؛ وذلك حينما نهض بعض العلماء

(١) للمؤلف بحث غير منشور حول جهود العلماء في ذلك، بعنوان: «جهود مفكري الأندلس لإصلاح الوضع السياسي في عصر ملوك الطوائف».

والمفكرين من أمثال ابن عبد البر، فبينوا للناس أسباب ما هم فيه من ضعف[١]، كذلك يعد موقف القاضي ابن جحاف من المواقف المشهورة في هذا الميدان، فقد تصدىٰ للقوىٰ النصرانية، كما حاول استنهاض همم المسلمين ودعوتهم إلىٰ إصلاح الحال[٢].

وكان من النماذج الطيبة لهذه الجهود دعوة المرابطين إلىٰ دخول الأندلس بعد أن يئس الناس من قدرة أولئك الزعماء علىٰ إصلاح حالهم فضلاً عن إصلاح الناس والواقع، فحينما قتل المعتضد ابن عباد أبا حفص الهوزني حينما دعاه إلىٰ الجهاد، محاولاً بذلك إسكات أي صوت يدعو إلىٰ الإصلاح، غضب ابنه أبو القاسم الهوزني لذلك التصرف المشين، فدعا المرابطين إلىٰ دخول الأندلس لإصلاح الحال، وذلك سنة ٤٦٠ هـ[٣]، وفي سنة ٤٧٤ هـ كرر هذه الدعوة أبو الوليد الباجي ـ حامل لواء الدعوة إلىٰ التوحيد ـ الذي توفي بالمرية سنة ٤٧٤ هـ وهو يروم جمع كلمة ملوك الطوائف مع المرابطين لكنه توفي قبل تمام غرضه كما يقول القاضي عياض[٤]، وبعد ذلك توالت الوفود الأندلسية علىٰ المرابطين حيث وعدهم السلطان يوسف بن تاشفين بإمدادهم وإعانتهم[٥].

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٧٨ ـ ١٧٩، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٢٧.

(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٣٠٥، ج ٤، ص ٣٩، شكيب أرسلان، الحلل السندسية، ج٣، ص ٦٥، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٤٤.

(٣) المقري، نفح الطيب، ج ٢، ص ٩٤.

(٤) ترتيب المدارك، ج ٣ ـ ٤، ص ٨٠٨.

(٥) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٣٣.

W9U) «

إن من القضايا التي حرص الإسلام علىٰ تأصيلها في نفوس المسلمين أينما كانوا القوة المعنوية؛ حيث وجه الإسلام المسلمين إلىٰ ضرورة أن يبقوا محافظين علىٰ هذا الأمر، فقد قال ـ سبحانه ـ: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [**آل عمران**: ١٣٩]، وقد سعىٰ الرسول ﷺ والسلف الصالح من هذه الأمة إلىٰ إحياء هذا الشعور وتنميته في نفوس المسلمين كافة، ومحاولة بقائه صفة ملازمة لكل فرد منهم، ويدرك المتتبع لتاريخ المسلمين أن قوة المسلمين وضعفهم في شؤون حياتهم جميعها مرتبطان ارتباطاً قوياً ومباشراً بقوتهم المعنوية.

وهكذا ظل المسلمون في القرون الأولىٰ محافظين علىٰ هذه القوة، وكانت جيوشهم تتمتع بروح معنوية عالية؛ لأن أفرادها التزموا بتعاليم الإسلام الشاملة، كما انصهروا في بوتقته. وكان جيش المسلمين الفاتح لبلاد الأندلس في طليعة من حافظ علىٰ هذه القوة؛ حيث تربىٰ أفراده بمدرسة عقبة بن نافع وموسىٰ ابن نصير وغيرهما من الولاة والقادة الذين أدركوا أن الاستعداد النفسي والقوة الإيمانية لا تقل أهمية عن الاستعداد المادي بالأسلحة والعتاد.

إن مسلمي الأندلس بقوا محافظين علىٰ هذه القوة خلال القرون الأولىٰ من وجودهم، ولكن بعد أن انهارت الخلافة الأموية هناك، وقامت علىٰ أنقاضها دول الطوائف، بدأ كثير من مسلمي الأندلس بالتخلي عن المبادئ والقيم التي كان أسلافهم قد تربوا عليها، وهكذا تحولت قوتهم بكل معانيها إلىٰ فرقة وشتات ثم ضعف وخور، كما تبدلت غاياتهم النبيلة إلىٰ أهداف ومطامح رخيصة، و ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [**الرعد**: ١١].

إن هذا التحول الذي مني به المسلمون في عصر ملوك الطوائف لم ينشأ من

فراغ، كما لم يكن وليد يومه أو ليلته، وإنما تمخض نتيجة لعدد من العوامل التي توافرت فتضافرت على وجوده، وقد كان ضعف الالتزام بمبادئ الدين وتعاليمه عند الخاصة والعامة من أقوى هذه العوامل.

وقد بدا لنا من خلال هذه الدراسة أن انعدام الوحدة السياسية بين مسلمي الأندلس قد أدى إلى تناثر كيانهم السياسي الموحد إلى عدد من الدول والإمارات الصغيرة، وهذا مما أدى إلى تراخي السلطة فيها؛ ومن ثم عدم السيطرة على البلاد والعباد، حيث فقد الحكم فيها هيبته وصرامته؛ مما أدّى إلى ضعف الوازع السلطاني بينهم.

كما أبرزت الدراسة أن روح الجهاد في سبيل الله والشعور بأهميته، قد ضعفت في نفوس مسلمي عصر ملوك الطوائف؛ حيث حلت محلها روح الانهزامية والخور التي ملأت قلوب كثير منهم، وهذا بدل قوتهم ضعفاً وعزتهم ذلاً، وقد أوضحت الدراسة العوامل التي خلقت تلك الروح الانهزامية بين مسلمي ذلك العصر.

وكانت العصبية التي استشرت بين المسلمين هناك من أكبر معاول الهدم التي وجهت ضدهم؛ إذ إن تلك الظاهرة الجاهلية أدت إلى تمزيق المجتمع الإسلامي إلى أشلاء ضعيفة لم تستطع الوقوف في وجه الخطر النصراني؛ مما أدى إلى سقوط ذلك البنيان الشامخ، حيث تحولت عملياتهم الجهادية إلى حروب ثأرية، ونزاعات أهلية لا هدف لها سوى إرضاء الذات، والثأر للقبيلة مهما كانت النتائج والآثار المترتبة على ذلك.

وقد رصدت هذه الدراسة مظاهر الضعف المعنوي الذي حل بمسلمي الأندلس في ذلك العصر، حيث كان في مقدمة تلك المظاهر ظاهرة الفوضى السياسية وما أدت إليه من فرقة وخلاف، كذلك أبرزت الدراسة ظاهرة التكالب

على المصالح الدنيوية والتناحر من أجلها، حيث أصبح هذا الأمر غاية وحيدة، وهدفاً مهماً عند كثير من مسلمي ذلك العصر، وهذا بلا شك مما أثر على النيات والأهداف، بل قاد الأمة إلى نزاع داخلي بين المسلمين أنفسهم.

وكان من المظاهر المهمة التي أبرزتها هذه الدراسة ظاهرة موالاة كثير من ملوك الطوائف للنصارى وما تمخض عن ذلك من تبعات أدبية ومادية أثرت في كثير من شؤون حياة المسلمين ولا سيما الجانب الحربي منها، حيث كسرت الحواجز النفسية التي كانت تفصل بين المسلمين والنصارى.

كما أبرزت هذه الدراسة ظاهرة الترف والخلاعة والمجون وغيرها من الأوجاع الخلقية التي انتشرت في مجتمع عصر ملوك الطوائف، حيث توصلت إلى أن هذه الظاهرة من أكبر العوامل التي أوقعت أولئك القوم في مستنقعات الضعف وأوحال الذل والانهزامية.

كما توصلت الدراسة إلى أن ذلك الضعف وما صاحبه من مظاهر مَرَضية، قد خلَّف العديد من الآثار والنتائج التي بدت واضحة بحيث لا يمكن تجاهلها أو الإقلال من شأنها، وكان في مقدمة هذه الآثار الضعف العسكري الذي مُني به المسلمون، وما صاحب ذلك من ازدياد للمد النصراني، وضعف للثغور والحصون في تلك الديار.

ويضاف إلى ما سبق ما مُني به المسلمون من انهزام فكري وتدهور في الحياة العامة، حيث تردت الحالة الأمنية، كما ضعف الاقتصاد، وانتشر الفقر، وكثر القلق النفسي بين الناس، وقد توصلت هذه الدراسة إلى أن هذه القضايا إنما ظهرت حينما ضعف المسلمون في تمسكهم بدينهم، وحادوا عن منهج ربهم، فأصابهم الله بالضعف النفسي قبل السياسي والعسكري.

والله المستعان

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

* ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي المعروف بابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ):
- **الحلة السيراء**، تحقيق حسين مؤنس، نشر الشركة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٦٣م.
- **التكملة لكتاب الصلة**، نشر وتصحيح السيد عزت العطار الحسيني، ١٣٧٥هـ.
* ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠ هـ):
- **الكامل في التاريخ**، نشر دار صادر، بيروت ١٣٨٥هـ.
* ابن الأثير الجزري، مجد الدين (ت ٦٠٦ هـ):
- **جامع الأصول في أحاديث الرسول** ﷺ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، نشر مكتبة الحلواني، سنة ١٣٩٢هـ.
* الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (ت. ق ٦ هـ):
- **صفة المغرب** وأرض **السودان ومصر والأندلس** (مأخوذة من كتاب: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، طبعة لندن ١٩٦٨م.
* ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (٥٤٢ هـ):
- **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.
* ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨ هـ):
- **كتاب الصلة**، القسم الأول، الدار المصرية للتأليف والترجمة، المكتبة الأندلسية، ١٩٦٦م.
- **كتاب الصلة**، القسم الثاني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، المكتبة الأندلسية ١٩٦٦م.
* البكري، عبد الله بن عبد العزيز البكري، (ت ٤٨٧ هـ):

ـ **جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب (المسالك والممالك)**، تحقيق عبد الرحمن الحجي، بيروت ١٣٧٨هـ.

* ابن بلقين، عبد الله بن بلقين الصناجي (٤٨٣ هـ):

ـ **مذكرات الأمير عبد الله المعروفة بـ (كتاب التبيان)**، نشر وتحقيق أ. ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر (ذخائر العرب ١٨).

* ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (ت ٧٢٨ هـ):

ـ **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، تحقيق وتعليق الدكتور ناصر العقل، نشر دار المسلم بالرياض، ١٤١٥ هـ.

* ابن حزم، أبو محمد بن حزم (٤٥٦ هـ):

ـ **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق أحمد شاكر، طبعة القاهرة، ١٣٤٥هـ.

ـ **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق الدكتور إحسان عباس، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

ـ **طوق الحمامة في الألفة والإيلاف**، تحقيق حسن كامل الصيرفي، وتقديم إبراهيم الإبياري، نشر المكتبة التجارية الكبرىٰ بمصر.

ـ **نقط العروس في تواريخ الخلفاء لابن حزم (رواية الحميدي)**، تحقيق ودراسة شوقي ضيف، مستلّة من مجلة لمكتبة الآداب، ج١٣، جزء ٢، ١٩٥١م، جامعة فؤاد الأول.

ـ **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر ١٣٨٢ هـ.

* الحموي: أبو عبد الله ياقوت عبد الله (ت ٦٢٦ هـ):

ـ **معجم الأدباء**، نشر دار المأمون، مراجعة وزارة المعارف العمومية.

ـ **معجم البلدان**، نشر البلدان، نشر دار صادر بيروت.

* الحميدي، أبو عبد الله بن أبي نصر (ت ٤٨٨ هـ):

ـ **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق إبراهيم الإبياري، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

* الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠ هـ):

ـ **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، نشر مكتبة لبنان، بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

* ابن حيان، أبو مروان بن خلف بن حيان (ت ٤٦٩ هـ):

ـ **المقتبس في أخبار بلد الأندلس**، تحقيق عبد الرحمن بن علي الحجي، نشر دار الثقافة بيروت، ١٩٨٣م.

ـ **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، تحقيق د. محمود علي مكي، طبع دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٣٩٣هـ.

* ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي، (ت ٥٢٦ هـ):

ـ **قلائد العقيان في محاسن الأعيان**، تقديم محمد العناني، نشر المكتبة العتيقة بتونس ١٣٨٩ هـ.

* ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦ هـ):

ـ **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، القسم الثالث، تحقيق ليفي بروفنسال، نشر دار الكشوف، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٥٦م.

ـ **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

* ابن خفاجة، إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الهواري (ت ٥٣٣ هـ):

ـ **ديوان ابن خفاجة**، جمع وتحقيق كرم البستاني، نشر دار صادر بيروت ١٣٨١هـ.

* ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ):

ـ **العبر**، **وديوان المبتدأ والخبر**، **في تاريخ العرب والعجم والبربر**، **ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، بيروت، دار الفكر الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

ـ **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق علي عبد الواحد وافي، بيروت دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

* ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ):

ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق د. إحسان عباس، طبعة دار صادر بيروت.

* أبو دينار، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني الفيروني المعروف بابن أبي

دينار (ت ١١١٠ هـ).
ـ **المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس**، تحقيق محمد شمام، نشر المكتبة العتيقة بتونس، الطبعة الثانية ١٩٦٧م.
* الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، (ت ٧٤٨ هـ):
ـ **تذكرة الحفاظ**، الطبعة الثالثة، مطبعة دائرة المعارف بحيدر آباد، سنة ١٣٧٦هـ.
ـ **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، نشر جامعة الإمام، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٥هـ.
ـ **العبر في خبر من غبر**، تحقيق فؤاد الرشيد، نشر دار المطبوعات والنشر بالكويت ١٩٦١م.
* ابن رشد الجد، أبو الوليد محمد بن أحمد (ت ٥٢٠ هـ):
ـ **فتاوى ابن رشد**، تحقيق المختار بن الطاهر النابلسي، الطبعة الأولىٰ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٠٧هـ.
* ابن رشد، أبو الوليد محمد بن رشد القرطبي الحفيد، (٥٩٥ هـ):
ـ **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، دار الفكر.
* السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١ هـ):
ـ **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناجي، نشر إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٧٦م.
* ابن سعيد المغربي، علي بن موسىٰ بن محمد (ت ٦٨٥ هـ):
ـ **رايات المبرزين وغايات المميزين**، تحقيق محمد رضوان الداية، نشر دار طلاس، دمشق، الطبعة الأولىٰ ١٩٨٧م.
ـ **المغرب في حلي المغرب**، تحقيق شوقي ضيف، نشر دار المعارف بمصر.
* ابن سهل الأندلسي (أبو الأصبع عيسىٰ) ت ٤٨٦ هـ:
ـ **الأحكام الكبرى** (**أو نوازل ابن سهل**) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط برقم ٣٣٩٨.
* السيواسي، محمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام.
ـ **شرح فتح القدير**، تخريج عبد الرزاق غالب مهدي، دار الكتب العلمية، بيروت،

الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
* ابن صاعد الأندلس، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن (ت ٤٦٢ هـ):
ـ **طبقات الأمم**، تحقيق حياة علوان، الطبعة الأول، نشر الطليعة، بيروت، ١٩٨٥م.
* الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيل الصفدي (ت ٧٦٤ هـ):
ـ **الوافي بالوفيات**، تحقيق مجموعة من الباحثين، دار نشر فرانز، ١٤١١هـ.
* التويري، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد (ت ٧٣٢ هـ):
ـ **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج٢٢، نشر جاسيار راميرو، ١٩٧١م.
* الضبي، أحمد بن يحيىٰ بن أحمد بن عميرة الضبي (ت ٥٩٩ هـ):
ـ **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: علمائها وأمرائها وشعرائها وذوي النباهة فيها ممن دخل إليها أو خرج عنها**، طبع في مدينة مجريط سنة ١٨٨٤م.
* الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ).
ـ **تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، بيروت.
* الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد (ت ٥٢٠ هـ).
ـ **سراج الملوك**، تحقيق محمد فقي أبو بكر، الطبعة الأول ١٤١٤هـ.
* ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد البر، (ت ٤٦٣ هـ):
ـ **بهجة المجالس وأنيس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس**، تحقيق محمد مرسي الخولي، نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.
ـ **القصد والأمم في التعريف بأصول العرب والعجم، وأول من تكلم بالعربية من الأمم**، نشر المكتبة الحيدرية ومطبعتها بالنجف ١٣٨٦هـ.
* ابن عبدون، محمد بن أحمد التجيبي (ت. ق ٦).
ـ **ثلاث رسائل في الحسبة**، نشرها ليفي بروفنسال، طبع المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م.
* ابن عذارىٰ، أبو عبد الله محمد المراكشي، (ت بعد ٧١٢ هـ).
ـ **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان، و أ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م.

* العذري، أبو العباس أحمد بن عمر (ت ٤٧٨ هـ):
- **نصوص عن الأندلس من كتاب (ترصيع الأخبار...)**، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٥م.
* ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، (ت ٥٤٣ هـ).
- **العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ**، تحقيق محب الدين الخطيب، جدة ١٣٨٧هـ.
* العزفي، أبو العباس أحمد بن محمد (٥٣٦ هـ).
- **مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة**، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٣م.
* العماد الأصفهاني، أبو عبد الله محمد بن محمد العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ).
- **خريدة القصر وجريدة العصر**، القسم الرابع، ج ٢، تحقيق عمر الدسوقي، علي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة.
* ابن عميرة، أحمد بن يحيى بن أحمد الضبي، (ت ٥٩٩ هـ).
- **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، القاهرة، ١٩٦٧م.
* عياض، القاضي أبو الفضل بن موسى اليحيى السبتي، (ت ٥٤٤ هـ).
- **ترتيب المدارك وتقريب المسالك المعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق أحمد بكير محمود، نشر مكتبة الحياة، بيروت.
* ابن غالب، محمد أيوب (ت. ق ٦ هـ).
- **فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس**، نشر قطعة منه وحققها لطفي عبد البديع، نشر طبعة ١٩٥٦م.
* أبو الفداء، إسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢ هـ):
- **المختصر في أخبار البشر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٠م.
- **تقويم البلدان**، نشر ماك كوين ديسلان، الطبعة الأولى، باريس، ١٨٤٠م.
* ابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد (ت ٧٩٩ هـ):
- **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور، ج ١، نشر دار التراث للطبع والنشر.

* ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣ هـ):
- **تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق إبراهيم الإبياري، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، دار صادر بيروت.
* ابن القاضي، أحمد بن محمد المكناسي، (ت ١٠٢٥ هـ):
- **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس**، دار المنصور بالرباط، ١٩٧٣م.
* ابن قدامة، أبو محمد عبد الله بن قدامة المقدسي.
- **المغني**، دار الفكر بيروت، ١٤١٤هـ.
* ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر (ت ٣٦٧ هـ):
- **تاريخ افتتاح الأندلس**، تحقيق إبراهيم الإبياري، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.
* القلقشندي، أبو العباس أحمد علي، (٨٢١ هـ):
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، طبع المؤسسة المصرية للتأليف.
* ابن كثير، إسماعيل بن عمر (٧٧٤ هـ):
- **البداية والنهاية**، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م، مكتبة المعارف بيروت.
* ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري (ت بعد ٧٣ هـ):
- **تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط**، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، نشر معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١م.
* الماوردي، القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين، (ت ٤٥٨ هـ):
- **الأحكام السلطانية**.
* مجهول.
- **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها**، تحقيق إبراهيم الإبياري، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
* مجهول: (ت. ق ٨ هـ):
- **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق، سهيل زكار، د. عبد القادر زمامة، نشر دار الرشاد الحديثة بالدار البيضاء الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

* المراكشي، عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧ هـ):
ـ **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٣٦٨هـ.
* المقري، أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (١٠٤١ هـ):
ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٣٨٨هـ.
ـ **أزهار الرياض في أخبار عياض**، تحقيق وتعليق مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي سنة ١٣٩٨هـ.
* ابن هذيل، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن (ت ق ٨ هـ):
ـ **تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس**، نشر بالتصوير الفوتوغرافي بباريس سنة ١٩٣٢م.

ثانياً: المراجع:

* إحسان عباس.
ـ **تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين**، نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٧٨م.
* أرسلان، شكيب.
ـ **الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية**، نشر دار مكتبة الحياة بيروت.
* أشباخ، يوسف.
ـ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، ترجمة محمد عبد الله عنان، الطبعة الثانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٧هـ.
* أعراب، سعيد.
ـ **مع القاضي أبي بكر ابن العربي**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
* بالنثيا، انخل جنثالث.
ـ **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥م.
* البشري، سعد عبد الله.

ـ **الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف بالأندلس**، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤هـ.
* بروفنسال، ليفي.
ـ **الإسلام في المغرب والأندلس**، ترجمة السيد عبد العزيز سالم وآخرين، نشر مكتبة نهضة مصر، سلسلة الألف كتاب.
* بهجت، منجد مصطفىٰ.
ـ **الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهد ملوك الطوائف والمرابطين**، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٧هـ.
* بيضون، إبراهيم.
ـ **الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة**، طبع دار النهضة العربية ١٩٨٠م، بيروت.
* ببريس، هنري.
ـ **الشعر الأندلسي في عصر الطوائف**، ترجمة الطاهر أحمد مكي، الطبعة الأولىٰ، دار المعارف، بالقاهرة، ١٤٠٨هـ.
* جاسم، ليث سعود.
ـ **ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ**، نشر دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع بالمنصورة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٧هـ.
* الحجي، عبد الرحمن علي.
ـ **التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ٩٢ ـ ٨٩٧ هـ**، نشر دار القلم دمشق وبيروت الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.
* حسين، كريم عجيل.
ـ **الحياة العلمية في مدينة بلنسية**، نشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ ١٣٩٦هـ، ساعدت جامعة بغداد علىٰ طبعه.
* خلاف محمد عبد الوهاب.
ـ **قرطبة الإسلامية في القرن الخامس الهجري، الحياة الاقتصادية والاجتماعية**، الدار التونسية للنشر تونس، ١٩٨٤م.

* خليفة، عبد الكريم.
- **ابن حزم الأندلسي، حياته وأدبه**، نشر دار العربية، مكتبة الأقصى بيروت.
* الدوري، إبراهيم ياسر خضير.
- **عبد الرحمن الداخل في الأندلس، وسياسته الخارجية والداخلية**، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢م.
* دوزي.
- **ملوك الطوائف**، تعريب كامل كيلاني، الطبعة الأولى بالقاهرة، عام ١٩٣٣م.
* الزركلي، خير الدين.
- **الأعلام**، دار العلم، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٤م.
* أبو زهرة، محمد.
- **ابن حزم حياته وعصره، آراؤه الفقهية**، دار الفكر العربي، ١٣٧٣هـ.
* السامرائي، خليل.
- **الثغر الأعلى الأندلسي**، رسالة ماجستير غير منشورة، بغداد، ١٩٧٦م.
- **علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية**، طبع دار الحرية بغداد، ١٤٠٦هـ.
* السنيدي، صالح محمد.
- **دولة بني جهور في قرطبة، (٤٢٢ - ٤٦٢ هـ)**، رسالة ماجستير مكتوبة بالآلة الكاتبة، ومقدمة لقسم التاريخ بكلية العلوم الاجتماعية بالرياض، ١٤٠٤ هـ.
* الشرقاوي، محمد عبد الله، دارس ومحقق.
- **رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها**، نشر دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة، ١٤٠٦ هـ.
- **في مقارنة الأديان بحوث ودراسات**، نشر دار الجيل بيروت، مكتبة الزهراء بالقاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٠ هـ.
* الصوفي، خالد.
- **تاريخ العرب في إسبانيا**، الطبعة الأولى، دار الشرق، حلب.
* الطاهر، أحمد.

ـ **دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة**، دار المعارف بمصر، ١٩٨٠ م.
* عاشور، سعيد عبد الفتاح.
ـ أوروبا **العصور الوسطى**، الطبعة السابعة، مكتبة الأنجلو بالقاهرة، ١٩٧٨م.
* العبادي، أحمد مختار، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، نشر مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر بالإسكندرية، ١٩٨٢م.
* عبد البديع، لطفي.
ـ **الإسلام في إسبانيا**، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٩م، القاهرة.
* عبد الحليم، رجب محمد.
ـ **العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف**، دار الكتب الإسلامية.
ـ **دولة بني حمود في مالقة بالأندلس**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٧٦م.
* العجلان، عبد الرحمن بن سليمان.
ـ **الأندلس تحت حكم المرابطين**، رسالة ماجستير مكتوبة بالآلة الكاتبة، مقدمة لكلية العلوم الاجتماعية بالرياض، سنة ١٤٠٢هـ.
* العريني، يوسف بن علي.
ـ **مملكة بني ذي النون في طليطلة دراسة في التاريخ السياسي ٤٢٧ ـ ٤٧٨ هـ**، رسالة ماجستير مكتوبة بالآلة الكاتبة، مقدمة لقسم التاريخ بكلية العلوم الاجتماعية بالرياض ١٤٠٤هـ.
* العطار، نجاح.
ـ **الأندلس من نفح الطيب**، نشر وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٩٠م.
* عنان، محمد عبد الله.
ـ **دولة الإسلام في الأندلس**، العصر الأول، القسم الأول والثاني، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٦٩م.
ـ **الدولة العامرية**، طبعة / مطبعة مصر، سنة ١٩٥٨م.

ـ **دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي**، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ.

* عويس، عبد الحليم.

ـ **ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري**، نشر دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة.

* فروخ، عمر.

ـ **ابن حزم الكبير**.

* الكاندهلوي، محمد يوسف.

ـ **حياة الصحابة**، تحقيق تأليف العباد، محمد علي دولة، دار العلم دمشق، الطبعة السادسة، ١٤١٤هـ.

* لوبون، غوستاف.

ـ **حضارة العرب**، نقله إلى العربية عادل زعيتر، الطبعة الثانية، ١٣٦٧هـ، القاهرة.

* لين بول، ستانلي.

ـ **الدول الإسلامية**، القسم الأول، مع إضافات وتصحيحات بارتولد، وخليل أدهم، ترجمه من التركية إلى العربية محمد صبحي قرزات.

* مؤنس، حسين.

ـ **فجر الأندلس**، الطبعة الثانية، الدار السعودية، ١٤٠٥هـ.

* الناعوري.

ـ **عيسى في ربوع الأندلس**، طبعة الدار العربية للكتاب، تونس ١٣٨٩هـ.

* نعنعي، عبد المجيد.

ـ **الإسلام في طليطلة**، دار النهضة العربية للطباعة.

المراجع الأجنبية

- Altamirai R. Historia de Espania Y la,civilizacion Espaniola: To l. 30 Ed. Barcelona, 1913.

- Aviles Fernandez: M Espania Muslmana Colibato Reinos de taifas Madrid, 1980.

- Masia A. Introduccion Historia de Espania Barcelona, 1913.

- Mendendez Pidal: R. Poesia a’ rabe Y Po’esia Eurapea coleccian ausbral NO 195 Madrid, 1975.

- Menedez Pidal: El cid Campeador Coleccion Aaustral No 1000 Madrid, 1973.

- Picatorte Felipe: Historia de Espania .Madird, 1899.

- Profencal L. la civilizacian arabe en Espania. Coleccian ausbral NO 1161 Madrid, 1977.

- Sauchez allornoz: El Islam de Espania coleccian ausbral NO 1560 Madrid, 1974.

- Suarez Farnandaz L. Manual de Historia Umiversal T.3. Edad Media Madrid, 1972.

- Villa Realy Valdicia F. Historia de Espania Granada, 1899.

فهرس الموضوعات

الموضـــوع الصفحـــة

هذا الكتاب

- مما لا شك فيه أن القوة المعنوية ما هي إلا نوع مهم من أنواع القوة التي دعا الإسلام إليها وأمر بها، وكان الرسول ﷺ وصحابته من بعده يسعون دائماً إلى تأصيلها في نفوس المسلمين عامة والجند والمحاربين خاصة، وذلك إدراكاً منهم لأهميتها وتأثيرها على المسلمين في كل شؤون حياتهم الاجتماعية والسياسية والحربية.

- ولـمَّا دخل المسلمون الفاتحون بلاد الأندلس، كان الجيش الفاتح يتمتع بروح معنوية قوية؛ لأن أفراده التزموا بتعاليم الإسلام الشاملة التزاماً حقيقياً، كما فهم قادته الأوائل الجهاد في سبيل الله على حقيقته، في أنه من أجل إعلاء كلمة الله، ونشر دينه في الأرض.

- وبعد أن انهارت الخلافة الأموية بالأندلس، وانفرط عقد المسلمين بانهيارها، وقام على أنقاضها العديد من الدويلات الإسلامية ـ تغير واقع المسلمين هناك، سنة الله في خلقه؛ فقد تخلى هذا المجتمع عن كثير من المبادئ والأسس التي كان المسلمون قد تربوا عليها قبل ذلك العصر؛ إذ تحولت الوحدة إلى فرقة، والاجتماع إلى تشتت، والقوة بكل معانيها إلى ضعف وخور، والغايات النبيلة إلى أهداف ومطامح رخيصة، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

- ومما لا شك فيه أن هذا التحول الذي مُني به مجتمع ملوك الطوائف بكل فئاته لم ينشأ من فراغ، كما لم يكن وليد يومه أو ليلته، وإنما تمخّض نتيجة لعدد من العوامل والأسباب التي توافرت فتضافرت على وجوده.

- هذا ما سوف تسعى هذه الدراسة ـ بعون الله ـ للإجابة عنه وبيانه، والمؤمل أن تكون هذه الدراسة إسهاماً جاداً في بيان عوامل ضعف المسلمين، وهوانهم على الناس في كل زمان ومكان، وخصوصاً في هذا العصر الذي هان فيه المسلمون على أنفسهم بترك الالتزام بدين الله تعالى؛ فهانوا في أعين أعدائهم، فتداعوا عليهم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، والله المستعان وهو القادر على إصلاح الأحوال.

من المقدمة